جمهـــوريـــة العـــراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة القادسية/ كلية التربية - قسم التاريخ

الانقسامات الكنسية وأثرها على الحروب المذهبية في فرنسا (١٣٠٩-١٥٩٨)

أطروحة تقدمت بها الطالبة

مريم هادي حسن الياسري

إلى مجلس كلية التربية/ جامعة القادسية

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث

اشـــراف

الأُستاذ الدكتور

عمار محمد علي الطائي

١٤٤٠هـ ٢٠١٨م

قرار لجنة المناقشة

نشهد نحن رئيس وأعضاء لجنة المناقشة إننا قد اطلعنا على الاطروحة الموسومة بـ(**الانقسامات الكنسية وأثرها على الحروب المذهبية في فرنسا ١٣٠٩-١٥٩٨**)، وقد ناقشنا الطالبة (**مريم هادي الياسري**) في محتوياتها وفيما له علاقة بها وكانت جديرة بالقبول لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث وبتقدير ( )، في يوم الأحد الموافق ٢٠١٩/٣/١٨.

الأستاذ الدكتور علي هادي المهداوي رئيس اللجنة ٢٠١٩/٣/ ١٨	الأستاذ الدكتور الهام محمود الجادر عضواً ٢٠١٩/٣/١٨	الأستاذ الدكتور سنان صادق الزيدي عضواً ٢٠١٩/٣/ ١٨
الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد حسون عضواً ٢٠١٩/ ٣/ ١٨	الأستاذ المساعد الدكتور حيدر جاسم عبد عضواً ٢٠١٩/ ٣/ ٧	الأستاذ الدكتور عمار محمد علي الطائي عضواً ومشرفاً ٢٠١٩/٣/١٨

صادقة عمادة كلية التربية- جامعة القادسية على قرار اللجنة.

الأستاذ الدكتور
خالد جواد العادلي
عميد كلية التربية
٢٠١٩ / ٥ / ٢١

فهرست المحتويات

الموضوع	الصفحة
الآية القرآنية	(أ)
الإهـداء	(ب)
الشكر والعرفان	(ت – ث)
المقدمة "نطاق البحث وتحليل المصادر"	(١-١٠)
الفصل الأول: قيام المملكة الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية والتأسيس للصراع بينهما من أجل الزعامة العالمية حتى سنة ١٣٠٩.	**(١١-٦٩)**
المبحث الأول: قيام المملكة الفرنسية ودورها في تأسيس ومساندة الكنيسة الكاثوليكية حتى القرن العاشر الميلادي.	(١١-٢٧)
عصر انفراج الأزمة عن الدين المسيحي	١٦
الكنيسة في أوج قوتها	١٩
الدولة البابوية والسيادة العالمية	٢٠
شارل مارتل وبيبين وأهميتهما في التعضيد الديني المسيحي	٢٢
عهد شارلمان وتغيّر العلاقات الكارولنجية- البابوية	٢٥
المبحث الثاني: طبيعة النظام الكنسي ودور الإصلاح الكلوني في تأزم علاقة الدين بالسياسة (٩٠٠-١٢٠٩).	(٢٨-٥١)

اختيار البابا للكرسي الرسولي.	٢٩
هيمنة رجال الدين على المجتمع المسيحي في العصور الوسطى.	٣٠
توسع الكنيسة السياسي والسيادي في أوربا وتدهور روحيتها الدينية.	٣٦
المحاولات الفرنسية لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية(دير كلوني).	٣٨
الانقسام الديني الكبير وتأزم العلاقات الدينية الزمنية.	٤١
الكنيسة تساند التاج الفرنسي في اضطهاد الرعايا المسيحيين.	٤٧
المبحث الثالث: العلاقات الكنسية- الملكية ودورها في الاضطهاد الديني-محاكم التفتيش الفرنسية- (١٢٠٩-١٣٠٩).	(٥٢-٦٩)
اضطهاد البلاط الفرنسي للمسيحيين بأسم الكنيسة وتأسيس محاكم التفتيش.	٥٣
ضياع هيبة الكنيسة وبداية الصراع البابوي الملكي الفرنسي.	٥٨
تأزم العلاقات الملكية-البابوية ودورها في الصراعات المذهبية.	٦٢
الفصل الثاني: تجسيد التفوق الفرنسي على سيادة الكنيسة الكاثوليكية في حدوث الأسر البابلي(١٣٠٩- ١٤١٧).	**(٧٠-١٢٥)**
المبحث الأول: تتويج الجهود الفرنسية بنقل مركز المسيحية إلى أفينيون.	(٧٠-٩١)
دور الملك فيليب الرابع في تصعيد الانقسام الديني.	٧٢
دور الملك فيليب في استمرار الصراع البابوي الملكي.	٧٩
نجاح الدبلوماسية الفرنسية في تعميق الانقسام البابوي(كنيسة أفينيون).	٨٤

المبحث الثاني: دور التاج الفرنسي في تثبيت دعائم الانقسام الديني الكاثوليكي.	(٩٢-١٠٣)
أثر التدخل الفرنسي المباشر في اختيار ممثل المسيحية واستمرار لانقسام المذهبي.	٩٢
حبرية البابا بينديكت الثاني عشر وزيادة الاضطهاد الديني الفرنسي.	٩٥
المبحث الثالث: احتدام الصّراع البابوي والجهود الفرنسية في أرساء السلام الديني العالمي (١٣٧٨ - ١٤١٧).	(١٠٤-١٢٥)
حدة التنافس الفرنسي- الإيطالي على زعامة الكرسي الرسولي.	١٠٥
كنيسة أفينيون الغير شرعية وتدهور أوضاع العالم المسيحي.	١٠٨
انهيار المؤسسة الدينية وتأزم الخلافات المذهبية.	١١١
البابوات الثلاث والدور الفرنسي في أزمة الكرسي الرسولي.	١١٥
تظافر الجهود الكاثوليكية وانهاء الانشقاق الديني العالمي.	١٢١
الفصل الثالث: سياسة الاستبداد الفرنسي ودورها في الحروب المذهبية الأهلية في فرنسا (١٥٥٩-١٥٧٢).	
المبحث الأول: جهود البلاط الملكي الفرنسي لإقصاء البروتستانت (١٥٥٩-١٥٦٢).	(١٢٦-١٤١)
عهد الملك فرانسوا الثاني ومرحلة الاضطهاد المذهبي.	١٢٨
تأرجح الملكة كاترين في سياستها الهادفة للقضاء على البروتستانت.	١٣٢
رحلة كونديه بعد مغادرة باريس.	١٣٤
المبحث الثاني: تأزم الأوضاع الدينية الفرنسية واندلاع الحروب المذهبية (١٥٦٢-١٥٦٧).	١٣٥-١٥٧

اخفاق الخطة العسكرية لكوندي واندلاع الحرب المذهبية الأولى.	
المبحث الثالث: استئناف طرفي النزاع للحروب المذهبية الأهلية (١٥٦٧-١٥٧٢).	
مفاجأة (مو) والحرب المذهبية الثانية (١٥٦٧-١٥٦٨).	
الحرب المذهبية الثالثة (١٥٦٨-١٥٧٠).	
الفصل الرابع: تفاقم الأزمة الأهلية الفرنسية واستمرار الحروب المذهبية حتى صدور مرسوم نانت(١٥٧٢-١٥٩٨).	
المبحث الأول: الممارسات الوحشية للبلاط الفرنسي بحق طائفة الهيغونوت وانعكاسها على استمرار الحروب المذهبية(١٥٧٢-١٥٧٩).	
الحرب المذهبية الرابعة: مجزرة سان - بارثولوميو(١٥٧٢-١٥٧٤).	
الحرب المذهبية الخامسة(١٥٧٤-١٥٧٦).	
الحرب المذهبية السادسة(١٥٧٦-١٥٧٩).	
المبحث الثاني: التدخل الخارجي في فرنسا ودوره في المرحلة الأخيرة من الحروب المذهبية(١٥٧٩-١٥٨٨).	
الحرب المذهبية السابعة(تشرين الثاني ١٥٧٩ ـ تشرين الثاني ١٥٨٠).	
الحرب المذهبية الثامنة(١٥٨٦ - ١٥٨٨).	
المبحث الثالث: تغَّير أيدولوجية الحروب المذهبية وإقرار مرسوم نانت (١٥٨٨-١٥٩٨).	
الخشية من البروتستانت والتدخلات الأوربية في فرنسا.	

مرسوم نانت ونهاية الحروب المذهبية عام(١٥٩٨).	
الخاتمـــــــة	
قائمة المصـــــــادر	
المـــلاحق	
الخلاصة باللغة الأنكليزية (Abstract)	

المـــقدمـــــة

نطاق البحث وتحليل المصادر:

يحتل تاريخ العصر الوسيط الأوربي Middle Age (الذي يختلف المؤرخون في تحديده تاريخيا)، اهمية كبيرة في حقل التاريخ عموماً، والتاريخ الاوربي على نحو خاص، تقف وراء ذلك أسباب متعددة: فهذه الحقبة التاريخية الطويلة تشكل حلقة متصلة وأساسية في فهم التاريخ الأوربي الحديث، واستمراراً منطقياً للتاريخ القديم، فغالبية التطورات التي حدثت في أوربا منذ عصر النهضة والعصور اللاحقة، تستمد أصولها من التاريخ الوسيط، من ذلك تكون لحقبة العصور الوسطى أهمية بالغة لأنها شهدت أحداثاً متميزة، فظهور الكنيسة وتزايد صلاحياتها في الجانب الديني والسياسي وبروزها قوة منافسة للدولة، وتماديها في ممارسة سلطاتها الدنيوية التي تخالف الاسس والقواعد التي جاءت بها عقيدة السيد المسيح, تمخض عن ذلك حدوث اختلاف عقدّي بين الكنيستين الغربية الكاثوليكية والشرقية الأرثذوكسية والذي تطور إلى حدوث انقسامات دينية عديدة شهدتها الكنيسة بدءً من الانشقاق الكبير الذي وقع سنة ١٠٥٤م ما بين الكنيسة الكاثوليكية والارثودوكسية.

تكمن أهمية الموضوع في دراسة ما آلت إليه تلك الانقسامات من انعكاسات سلبية على العلاقة بين الدين والدولة بشكل عام والعالم المسيحي بشكل خاص، إذ تسبب بأفول نجم البابوية بعد هذه المرحلة، نتيجة الصراع السياسي الديني بين الأباطرة والبابوات من جهة وبين البابوات أنفسهم من جهة أخرى، على زعامة الكرسي الرسولي والتي مهدت الطريق الى ظهور بعض الحركات الدينية التي ادت دوراً مهما في المجتمع الغربي المسيحي ومن بين هذه الحركات: حركة الإصلاح الديني التي كانت سببا في

تحول الوضع الديني الكنسي فظهرت الحاجة إلى تغيير جذري للكنيسة والرجوع إلى الكتاب المقدس في كل الحياة الإنسانية وذلك للوضع السيء الذي آلت إليه الكنيسة بصفة خاصة والمجتمعات الغربية المسيحية بصفة عامة، هذه الحركة وما رافقها من عوامل انفتاح وتطور فكري ساهمت بشكل مباشر بظهور تيارات إصلاحية في أوربا الغربية وخاصة في فرنسا واجهت الكنيسة والبلاط الملكي وكانت نتيجة ذلك، أن شهدت فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر حروب أهلية مذهبية بين ابناء الدين الواحد استمرت أكثر من ثلاثون عاماً، راح ضحيتها العديد من الأرواح وتكبدت فرنسا خلالها الكثير من الخسائر المادية داخل وخارج حدودها، وطبيعي أن تنعكس الحروب الأهلية سلباً على علاقات فرنسا الإقليمية نتيجة التدخل المباشر من قبل إنجلترا وإسبانيا، إذ دعمت الأولى البروتستانت الفرنسيين فيما ساندت الأخرى الكاثوليك.

وبالرغم من هذه الاهمية التي اختصت بها حقبة العصور الوسطى، ألا أن دراسة التاريخ الأوربي الوسيط لم تنل في المؤسسات الاكاديمية العراقية الاهتمام الذي تستحقه[1]، في ظل قلة الدراسات والأبحاث هذه والى جانب الرغبة الكبير في مواصلة الدراسة في هذا المجال، كانا الدافع للتخصص في هذا الحقل المعقد، والذي يتطلب صبراً طويلاً وعمل دؤوب لإنجازه، فقد وقع الاختيار على موضوع **(الانقسامات الكنسية وأثرها في الحروب المذهبية في فرنسا ١٣٠٩-١٥٩٨)**، موضوعاً لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الأوربي الحديث، إذ تم تحديد الحقبة التاريخية بـ ١٣٠٩ لأنها تمثل نقلة نوعية عصيبة شهدتها كنيسة روما إثر انتقال مركز البابوية من روما إلى مدينة أفينيون الفرنسية وحدوث ما اصطلح عليه تاريخياً **"بالأسر البابلي"**، وما أثر على مكانة الكنيسة

---

[1] فإذا كان المؤرخون المصريون قدموا العديد من الدراسات الرصينة في هذا الحقل، فان المؤسسات الاكاديمية العراقية ما زالت تشق طريقها في هذا الاتجاه بخطى وئيدة، فقد قدمت المؤسسات الاكاديمية المصرية اسماء بارزة في حقل التاريخ الوسيط مثل سعيد عبد الفتاح عاشور والسيد الباز العريني وعبد الحميد حمدي محمود وجوزيف نسيم يوسف وعبد المنعم ماجد وغيرهم، اما في العراق، فتأتي كتابات المؤرخ الرائد في حقل التاريخ الوسيط الدكتور عبد القادر احمد اليوسف في مقدمة الدراسات الرصينة في هذا الحقل. محمود عبد الواحد القيسي، العلاقات الخارجية للدولة الكارولنجية في عهد شارلمان(٧٦٨-٨١٤).

الغربية وتحكم بطبيعة علاقتها مع الملوك الفرنسيين وما آلت إليه من تطورات انتهت بسنة ١٥٩٨ وهي نهاية الحروب المذهبية الفرنسية وصدور مرسوم نانت الذي نص على السلام العالمي والتسامح الديني، بالإضافة إلى ذلك تقف وراء اختيار الموضوع اسباب عديدة تمحورت بـــ:

أولاً: أن الانقسامات الكنسية التي شهدت أوربا أولها في القرن الحادي عشر الميلادي والتي استمرت على مدى القرون اللاحقة انتهاءً بالحروب المذهبية، قد انهكت أوربا الغربية بشكل عام وأثرت بشكل مباشر على فرنسا المملكة الكاثوليكية المتعصبة، وبعد دراسة حيثياتها ومجريات احداثها وجدنا إنها مشابهة تماما لما يحدث في عالمنا العربي، فهناك أيادي خفية تثير النزاعات السياسية والفكرية والصراعات الطائفية والازمات الاقتصادية، فهي تطبيق حقيقي لمقولة إن التاريخ يعيد نفسه ولكن الفرق باختلاف الشخوص والحقبة الزمنية.

ثانياً: عند العودة إلى جذور هذه الخلافات والانقسامات، نجدها سياسية في الأصل بغطاء ديني بين الزعامة الدينية المتمثلة بالبابا والدنيوية بالإمبراطور، على الكرسي الرسولي، فالأول يسعى إلى الانفراد بالسلطة والزعامة العالمية بوصفه خليفة الله على الأرض والثاني يجاهد من أجل السيطرة التامة على الغرب الأوربي واخضاع الكنيسة إدارياً ودينياً، وكانت فرنسا هي الأرض الخصبة لهذه الصراعات التي تحولت إلى خلافات عقدّية بين المسيحين أنفسهم.

ثالثاً: أستند ملوك فرنسا في مطالبتهم بالكرسي البابوي إلى جهود الدولة الكارولنجية والميروفنجية في دعمها للكنيسة ومساندتها للبابوات في تركيز وجودهم وتوسيع نفوذهم وبسط سيرتهم على البلاد والعباد، الجهود الكبيرة التي بذلها الملوك الكارولنجيين وخاصة شارلمان من أجل حماية المؤسسة الدينية من الغارات الخارجية، وعندما تولت أسرة كابيه Capet الحكم في فرنسا (٩٨٧-١٣٢٨م)، بعد انتهاء اسرة شارلمان سنة ٩٨٧م، فان

الملك هيو كابيه Hugh Capet (٩٣٨-٩٩٦م) اصر على ان أسرته مجرد استمرار او تجديد للعمل الذي بدأه شارلمان ولم ينجزه عند وفاته.

رابعاً: تسببت تلك الصراعات المستمرة حول الزعامة العالمية في انشغال الكنيسة عن أداء المهام الروحية الطقوس العبادية المختصة بها، بل لجأت إلى فرض الضرائب وبيع صكوك الغفران واتباع الاساليب الوحشية في اضطهاد رعاياها المسيحيين تحت ذريعة الهرطقة، كل ذلك إرضاءً للأباطرة والملوك، من ذلك مساندة البابا إينوسنت الثالث للملك الفرنسي فيليب اغسطس في الدعوة إلى شن حملة صليبية ضد الألبنجنسيين في الجنوب الفرنسي والتي استمر على نهجهم الخلفاء الذين تقلدوا المناصب من بعدهم، لا سيما وأن هذه الطائفة(الألبنجنسيين)، كانت النواة لظهور المذاهب المسيحية الأخرى كالبروتستانتية والكالفنية على يد المصلحين الإنسانيين ضمن حركة هصر النهضة والإصلاح الديني التي شهدتها أوربا في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي.

خامساً: أدى وبشكل مباشرة تعدد الانقسامات الكنسية والصراع والتنافس الدولي والإقليمي بين البابوات والنبلاء من جهة وبين الكنيسة والأباطرة وملوك فرنسا على اختلاف الحقب التاريخية من جهة أخرى، والتي جاءت بالكثير من الضغوط والاضطهادات التي وقعت على الشعب من الكنيسة والبلاط الملكي، كل ذلك أدى إلى إن يتزعم قادة المذهب البروتستانتي مبادرة المقاومة والوقوف بوجه الاستبداد الملكي والاضطهاد الديني والمطالبة بإصلاح الكنيسة والبرلمان الفرنسي المؤيد لطموح وقرارات التاج، فكانت النتيجة الحتمية التي وقعت ضحيتها فرنسا المكّونة من تنوع أثني كبير، تمثلت في حدوث الحروب المذهبية الدينية في النصف الثاني من القرن السادس، كانت هذه النقاط المهمة السبب المباشر في اختيار هذا الموضوع.

ولدراسة هذا الموضوع لا بدَّ من طرح الإشكالات الآتية:

ماهي اوضاع المجتمعات الغربية المسيحية بصفة عامة والكنيسة بصفة خاصة في العصور الوسطى؟، ما الدواعي الحقيقية التي وقفت وراء الانقسامات الكنسية وتعددها

على مختلف الحقّب التاريخية؟، ما هي الأسباب التي أدت إلى ظهور حركة الإصلاح الديني؟ وهل نجحت هذه الحركات في تغيير الوضع السائد آنذاك؟، هل كان لحركات الإصلاح الديني وظهور المذاهب الدينية(البروتستانتية والكالفنية)، مساهمة في الحروب الأهلية المذهبية التي وقعت في فرنسا في القرن السادس عشر؟ أم وقفت الانقسامات الكنسية التي شهدتها أوربا الغربية وراءها بشكل مباشر؟، هل نجح مرسوم نانت الذي صدر في عهد الملك الفرنسي هنري الرابع، في انهاء الخلافات العقدّية والحروب الأهلية المذهبية؟.

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى أربعة فصول، جاء الفصل الأول بعنوان قيام المملكة الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية والتأسيس للصراع بينهما من أجل الزعامة العالمية حتى سنة ١٣٠٩، ضمن ثلاثة مباحث، عالج المبحث الأول قيام المملكة الفرنسية ودورها في تأسيس ومساندة الكنيسة الكاثوليكية حتى القرن العاشر الميلادي، والمبحث الثاني طبيعة النظام الكنسي ودور الإصلاح الكلوني في تأزم علاقة الدين بالسياسة(٩٠٠-١٢٠٩)، في حين عالج المبحث الثالث العلاقات الكنسية- الملكية ودورها في الاضطهاد الديني- محاكم التفتيش الفرنسية(١٢٠٩-١٣٠٩).

بينما درس الفصل الثاني، تجسيد التفوق الفرنسي على سيادة الكنيسة الكاثوليكية في حدوث الأسر البابلي(١٣٠٩-١٤١٧)، تضمن ثلاثة مباحث، إذ سُلط الضوء في المبحث الأول على تويج الجهود الفرنسية بنقل مركز المسيحية إلى أفينيون(١٣٠٩-١٣٣٧)، اما المبحث الثاني فقد ركز على دور التاج الفرنسي في تثبيت دعائم الانقسام الديني الكاثوليكي(١٣٣٧-١٣٧٧)، وناقش المبحث الثالث احتدام الصراع البابوي والجهود الفرنسية في ارساء السلام الديني العالمي(١٣٧٨-١٤١٧).

في حين ناقش الفصل الثالث اشتداد التنافس البابوي- الفرنسي وانعكاسه على اوضاع فرنسا الدينية(١٤١٨-١٥٥٩)، جاء بمبحثين: المبحث الأول تعرض إلى فشل المجامع المسكونية في إعادة وحدة الكنيسة المسيحية(١٤١٨-١٥١٥)، والمبحث الثاني

إلى أثر الاستقلال الرسمي لكنيسة فرنسا على تدهور الاوضاع الدينية فيها(١٥١٥-١٥٥٩).

بينما تمحور الفصل الرابع حول الحروب المذهبية في فرنسا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر(١٥٥٩-١٥٩٨)، في ثلاثة مباحث سُلط فيها الضوء على تأزم الأوضاع الدينية الفرنسية واندلاع الحروب المذهبية(١٥٥٩-١٥٦٨)، وفي المبحث الثاني على استبداد التاج الفرنسي وانعكاسه على تفاقم الحروب المذهبية في فرنسا(١٥٦٨-١٥٧٦)، أما المبحث الثالث فيدرس سياسة فرنسا الخارجية ودورها في احتدام الصراع المذهبي وإقرار مرسوم نانت(١٥٧٦-١٥٩٨).

وأخيراً تضمنت الأطروحة خاتمة بينت أبرز النتائج التي توصلت إليها الباحثة، ذُيلت بقائمة للمصادر التي اعتمدت عليها الأطروحة ومجموعة من الملاحق التوضيحية لأهم أحداث الدراسة، ثم خلاصة باللغة الإنكليزية.

تحليل موجز لأهم المصادر:

أولاً: الكتب الأجنبية:

تطلب الخوض في غمار هذا الموضوع الاستعانة بعدد من الكتب الوثائقية التي لم يكن الحصول عليها بالأمر اليسير، وان معظم هذه المصادر الواردة في ثنايا الاطروحة قد تم الحصول عليها من أشهر المكتبات الإلكترونية العالمية، يأتي في مقدمتها مكتبة الارشيف الفرنسي (Bibliothèque Al alrchieve Français) ومكتبة المليون كتاب(Million Book Library)، والمكتبة المسيحية العالمية (ChristianLibrary) وبسبب حرص الباحثة على تقديم المعلومات الجديدة والوافية لحقبة الدراسة، تمكنت بعد جهود مضنية من العثور على كم لا بأس به من المصادر التي افادت الاطروحة بعد ان عجزت مكتباتنا عن توفيرها.

ويأتي في مقدمة الكتب التي تم اعتمادها في البحث هو كتاب المؤرخ الإنكليزي ويلستون ووكر Willston Walker المعنون بـــــ A History of the Christian

Church(تاريخ الكنيسة المسيحية) والذي يحتوي على معلومات قيمة تعالج تاريخ المسيحية عبر القرون، وقد اعتمدت عليه الدراسة في الفصل الأول عند ذكر الأحداث المهمة التي تزامنت مع انتشار المسيحية وتأسيسها البابوي في القرون العشر الأولى مع بيان الأزمات العقدّية التي مرت بها المسيحية.

أما كتاب المؤرخ جوزيف راتسينجر Joseph Ratzinger الذي جاء بعنوان Catechism of the Catholic (تعاليم المسيح الكاثوليك)، إذ يعد من اهم الكتب المسيحية التي تركز على العقيدة الكاثوليكية ومضامينها مع التفسير الديني لتلك المفاهيم، وقد افادت منه الاطروحة في الفصل الأول عند بيان المعتقدات الدينية الكاثوليكية من الاسرار السبعة والقربان المقدس والعشاء الرباني وغير ذلك من الطقوس الدينية الخاصة بالكنيسة الغربية والتي درات حولها الانقسامات الكنسية والاختلافات العقدّية.

فيما جاء كتاب هنري وايت Henry White بعنوان History of the Religious wars in the reign of charles IX (تاريخ الحروب الدينية في عهد شارل التاسع)، الذي احتل اهمية كبيرة بين المصادر العلمية ضمن هذه الحقبة التي شملت الفصل الرابع من الاطروحة، وذلك لما تضمنه من معلومات مهمة امتازت بالدقة والتفصيل بأسلوب الباحث الموضوعي المحايد، فضلاً عن اعتماده على الوسائل التوضيحية من أرقام واحصائيات مهمة للمعارك المذهبية الأهلية التي حدثت في فرنسا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، داعماً تلك المعلومات بخرائط تفصيلية لذات الأحداث، كما تم الافادة من كتاب وليم هانا William Hanna الذي بعنوان The Wars of Huguenots (حروب الهيغونوت)، في المباحث الأخيرة من الفصل الرابع عند دراسة تأزم الوضع الديني في فرنسا وتطور الحروب المذهبية فيها، إذ أرخ هانا لجميع الأحداث التي شهدتها طائفة الهيغونوت في فرنسا، موثقاً لمراحها بشكل علمي مفصل، مضمناً دراسته صوراً وخرائط توضيحية لتلك الأحداث.

ثانياً: الكتب العربية والمعربة:

اعتمدت الاطروحة على بعض الكتب التي تغطي الجانب الفلسفي للعقيدة الكاثوليكية، من اهمها كتاب حنا جرجس الخضري المعنون بـ (تاريخ الفكر المسيحي)، الذي يتكون من اربعة اجزاء، يُعد من أوائل الكتب المهمة في دراسة العقيدة الدينية للمذاهب المنشقة من الكاثوليكية نتيجة الخلافات العقدية حول بعض الأسس الدينية والتي سميت بالهرطقة، فيسلط الضوء على اهمها وهي: الاوطيخية، كالآريوسية، النسطورية والابولوناريوسية، كما يتعرض الكتاب بشكل دقيق ومفصل للمجامع الدينية المسكونية منها والمحلية التي شهدتها الكنيسة الغربية اثناء الانقسامات الدينية.

ومن الانصاف ان نذكر الموسوعة العالمية التي لا يمكن لأي باحث في التاريخ الأوربي بمختلف مراحله وتطور احداثه أن يتجاوزها، وهي (قصة الحضارة)، للمؤلف ول ديورانت المولود في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٨٥ ودرس الفلسفة ونال درجة الدكتوراه فيها من جامعة كولومبيا عام ١٩١٧ وألقى محاضرات في تاريخ الفلسفة والادب مهدت له السبيل لكتابة (قصة الفلسفة وقصة الحضارة)، وطاف حول العالم لدراسة أحوال الشعوب والدول من جميع جوانب الحياة معتمداً التوثيق التاريخي، أثمرت عن تأليف أربعين مجلد واستفادت الدراسة من المجلد الحادي عشر في الأجزاء (٢٢/٢١)، ترجمة: محمد بدران وعبد الحميد يونس والمجلد الثالث عشر في الأجزاء (٢٦/٢٥)، ترجمة: عبد الحميد يونس محمد علي ابو دُرَّة, اللذين بذلوا جهداً مكملاً تميزَّ بالإتقان الذي ينضوي على رؤية شمولية للأحداث التاريخية.

اما كتاب (أوربا في مطلع العصور الحديث) للمؤلف الكبير عبد العزيز محمد الشناوي، كان بارزاً في مكتبات أقسام التاريخ إذ ليس من المعقول أن يترك الطلبة يعتمدون في دراسة التاريخ الأوربي منذ بداية عصر النهضة حتى عقد معاهدة وستفاليا

عام ١٦٤٨ على مؤلفات كررت وبشكل مختصر لما ذكره الشناوي أو بالاعتماد على مصادر أوربية قد تكون غير مبرئه من عوامل التعصب والنظرة الاستعلائية، إذ كتب الموضوع بروح المؤرخ العربي المحايد وجاءت وافيه لكل الأحداث التي شهدتها أوربا خلال تلك الحقبة، معتمداً طريقة التحليل والنقد، ومن الملاحظ إن المؤلف استغنى عن استخدام الحواشي وخاصة عند ذكره اقوال التنصيص واقتصر في أغلب الأحيان استخدامه للحواشي على الإضافات العلمية والإيضاحات الجانبية.

كما اعتمدت الدراسة على بعض الكتب الاخرى منها: كتاب (مختصر تاريخ الكنيسة) لمؤلفه اندرو ملر، الذي يتكون من ست وخمسون فصل موثقاً لتاريخ الكنيسة لمدة تسعة عشر قرناً، وكذلك كتاب الاب منصور المخلصي الذي يحمل عنوان (الكنيسة عبر التاريخ)، أما كتاب جون لوريمر الموسوم بـ (تاريخ الكنيسة)، والذي يتكون من أربعة اجزاء، ترجمة عزرا مرجان، فقد تم الافادة من الجزئين الثالث والرابع.

يضاف إلى تلك الكتب، العديد من المصادر العلمية القيمة بين موسوعة ومجلة وكتاب، التي اعتمدت عليها الاطروحة في توثيق ما ورد فيها من معلومات، لا يسمح المقام لذكرها جميعا، لذا سنقتصر على توثيقها في قائمة المصادر المثبتة بنهاية الاطروحة.

وبالرغم من وجود العديد من العوامل التي شجعت الباحثة على اختيار هذا الموضوع، ألا أن الأطروحة واجهت عدداً من الصعوبات في سبيل اخراج هذه الدراسة واهمها: صعوبة الحصول على الوثائق من مصادرها الاصلية فضلاً عن عدم وجود مراكز بحثية متخصصة حيث تبعثرت هذه المصادر هنا وهناك مما شكل صعوبة بالغة امام البحث.

ختاماً أضع هذا الجهد المتواضع بين يديَّ اساتذتي الافاضل شاكرةً لهم سلفاً جهودهم في إبداء ملاحظاتهم لتعزيز القيمَّة العلمية لهذه الأطروحة وتصويب ما يرون فيها من هفوات لان الكمال غاية لا تدرك، فهو لله وحده، كما ارجو ان يكون هذا البحث

اضـافة جديـدة الـى المكتبـة الاكاديميـة العربيـة مـن باحثـة لا زالـت فـي بدايـة طريقهـا الاكاديمي الشائك.

والله ولي التوفيق

الباحثة

الفصل الأول

قيام المملكة الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية والتأسيس للصراع بينهما من أجل الزعامة العالمية حتى سنة ١٣٠٩.

المبحث الأول: قيام المملكة الفرنسية ودورها في تأسيس ومساندة الكنيسة الكاثوليكية حتى القرن العاشر الميلادي.

المبحث الثاني: طبيعة النظام الكنسي ودور الإصلاح الكلوني في تأزم علاقة الدين بالسياسة(٩٠٠-١٢٠٩).

المبحث الثالث: العلاقات الكنسية- الملكية ودورها في الاضطهاد الديني-محاكم التفتيش الفرنسية- (١٢٠٩-١٣٠٩).

المبحث الأول

قيام المملكة الفرنسية ودورها في تأسيس ومساندة الكنيسة الكاثوليكية حتى القرن العاشر الميلادي.

لا يختلف اثنان بأنّ الدّين المسيحي هو صرحٌ كبيرٌ وله تأريخه القديم، وقد مُثّل هذا الصرح بشيء اسمه (الكنيسة) حاله حال بقية الديانات الأخرى؛ فلكل دين تمثيلاتٌ أرضية. وأيضاً هو كغيره قد واجه الكثير من المحن والعقبات وبكل أشكالها؛ تفاوتت بين اختلاف الفكر والمنهج، أو طريقة التعبّد والاعتقاد، وانقسامات داخل الدين الواحد أدّت في بعض الأزمنة والأمصرة إلى سفك الدماء، وخراب البلاد عبر حروب كبيرة مدمرة! أغلب هذه الأحداث كانت في الألفية الأولى من تأريخ الكنيسة، عندما أعلنت عن تصديها إلى ابتداعات الوثنية والهراطقة، لتصحيح المسار الذي تشكلت منه الركائز الأساسية للدين المسيحي. ولأجل هذا حاولنا من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على المراحل المهمة والمفصلية في تأريخ الكنيسة الديني والسياسي، ورصد أحداث الحقب الزمنية القديمة منذ التأسيس، والتركيز على مرحلة الحروب المذهبية والتي هي محور هذا البحث.

ولتحقيق ذلك الغرض اقتضت الضرورة العلمية معالجة الموضوع بتقسيمه إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: البحث في طبيعة الانقسامات الكنسية، وأسبابها، ومراحل تطورها، والتي أدت بطبيعة الحال إلى الحروب المذهبية.

المرحلة الثانية: الحروب المذهبية التي عمت فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر. لذا من الواجب ان نبتدأ بمعالجة الانقسامات الكنسية التي شهدتها

الكنيسة الكاثوليكية في روما والبحث في مقتضيات هذه الانقسامات ومعطياتها على كافة الاصعدة والمستويات وانعكاس ذلك على فرنسا.

من الجدير بالذكر اننا نتحدث عن الديانة المسيحية الكاثوليكية بشكل عام، والذي لا يمكن أن يتلخص في حياة أفراد معينيّن حتى لو كان لهم تمييز ديني معين، فإننا نبحث عن النظام الذي سارت عليه الكنيسة في تلك المراحل، حتى نستطيع فهم تأريخها في العصور الوسطى وعلاقتها مع الدولة والمجتمع كذلك، لا سيما وأن البحث يتطلب التركيز على كنيسة فرنسا ومدى تأثرها بالانقسامات الدينية التي شهدتها كنيسة روما في القرون الوسطى؛ لأن الكنيسة في العالم الحديث تُعد مؤسسة تطوعية محدودة العضوية والمهام، والدولة لها نظامها الخاص والراعية لحياة الفرد والمجتمع.

ظهور وانتشار الدين المسيحي وموقف الامبراطورية الرومانية:

ظهر الدين المسيحي في القرن الأول الميلادي في فلسطين، وانتشر في الثلاثة القرون الأولى، وكان للعبيد والفقراء الحظ الأوفر منه؛ إذ انتشر بين هذه الفئات ابتداءً؛ لأن الأيدولوجيات كانت مهيئة لسبب أو لآخر، وبعد ذلك في انحاء الإمبراطورية الرومانية ـ والتي اتسعت رقعتها بصورة كبيرة خارج الحدود الرسمية ادارياً وجغرافياً، بالإضافة إلى سيادة اللغتين اللاتينية واليونانية ـ لتتحول إلى قوة سياسية واجتماعية كبيرة، إضافة إلى تمثيل الكنيسة بمجالس للصلاة والعبادة يرتاده المسيحيون المؤمنون بالمسيحية[٢].

من هنا أوجست الإمبراطورية الرومانية خيفة من الدين المسيحي ـ بعدما كانت لم تولهم أهمية واهتماماً كبيرين؛ على اعتبار انهم فئة دينية صغيرة ـ لا سيما إنّ هذا الدين قد أعطى كلمته ـ عبر السيد المسيح لكل المسيحيين ـ بعدم جواز تأليه الإمبراطور أو

---

[١] كرستوفر دوسن، تكوين اوربا، ترجمة: محمد مصطفى وآخرين، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٣٨.

عبادته، ونصّت أيضاً على عدم الانخراط للخدمة في الجيش الروماني[٣]، مما جعل الإمبراطورية الرومانية في قلق وشعور بالخطر وإن هذا الأمر يُهدد سلامة الدولة وسلطاتها، ويساهم في تفكيك روابط المجتمع الروماني؛ كونها تعارض الكثير من النُظم والتقاليد التي قامت عليها الامبراطورية الرومانية، ولا مناص حينئذٍ من اعتبار هذه التعاليم تعاليم تحريضية ثورية تعمل على تأجيج الشعب ضدها[٤].

وهكذا فكل ما يتنامى الوجود المسيحي بآفاقه الفكرية والعقدية، والذي بلغ من التنظيم الحد الذي لا يمكن اغفاله، كلما أثار ذلك حفيظة الأباطرة، وبلغت الامور أن بدأوا باضطهادهم وممارسة السياسية القمعية[٥]، حتى تم اتهامهم ـ من قبل الإمبراطور نيرونEmperor Nero (٥٤-٦٨م) ـ بحرق روما سنة ٦٤م. وبلغت الأمور أوجها في عهد الإمبراطور دميتيانوس Emperor Demetianus (٨١-٩٦م) سنة ٩٦م، واستمر حتى القرن الثالث لاسيما عهد الأباطرة سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus (١٩٣-٢١١)، وديكيوسAnd Decius (٢٤٩-٢٥١) ودقلديانوس And Diocletian (٢٨٢-٣٠٥)[٦].

كانت الدوافع الرئيسية وراء كل هذا القمع والاضطهاد للمسيحيين في رفضهم الاعتراف بتأليه الإمبراطور، والانخراط في صفوف الجيش الإمبراطوري، وتأكيدهم على أن سلطة الكتاب المقدس فوق كل شيء ولا سلطة عليهم إلّا هو، وطاعة الإله. ومن المؤكد رفض شريحة واسعة من الشعب الانصياع لإمبراطورية عظمى مثل روما، لهو خطر كبير يهدد كل البلاد. ولهذا أخذت الأمور أكثر تصعيداً من حيث القمع وتقييد الحريات، وكل فترة تمر هي اكبر من السابقة؛ فكلّ ما كان الدين المسيحي ينتشر كان رد فعل الامبراطورية أكثر ضراوة، إذ يُذكر أنّ الإمبراطور دقلديانوس تطرّف بقمعهم في

---

(١) نعيم فرح، الحضارة الاوربية في العصور الوسطى، جامعة دمشق، ١٩٩٥، ص١٥٩.

(٢) صلاح مدني، تاريخ العصور الوسطى في اوربا، دمشق، ١٩٧٣، ص١٢٠.

(٣) منصور المخلصي، الكنيسة عبر التاريخ، بغداد، ١٩٩٧، ص ٢٧.

(٤) Robert A. Barker, A Summary of Christian History, Nashville, 1956, P.28-29.

نهاية القرن الثالث، نظراً لازدياد نفوذهم بين رجال الجيش وتأثرهم بالأفكار والمعتقدات المسيحية، الأمر الذي يهدد بالقضاء على ولاء الجند للإمبراطورية، فأصدر عدة مراسيم، منع فيها صلاة المسيحيين، وأمر بهدم كنائسهم، وأحرق كتبهم وحبس كبار قساوستهم وطرد أبنائهم نهائياً من الوظائف الحكومية[٧]، ولأجل كل هذه والسياسة الإقصائية سُميَّ عهده بـ(عصر الشهداء)[٨]، وكل ذلك لأجل إجبار الكنيسة على الخضوع للإمبراطورية وقوانينها، كبقية الهيئات والمنظمات الاجتماعية في الإمبراطورية الرومانية، تحت سلطان الحكم، لا ندّاً له.

إنّ الدين المسيحي كبقية الأديان كلما يزداد انتشاراً وعمقاً تحصل هناك قناعات وأيدولوجيات ـ لفئات من المعتنقين للدين المسيحي ـ جديدة، وبالتالي هذه الانقسامات أو القناعات الجديدة تؤثر على قوة ووحدة الدين وتبث الفرقة روحياً في المؤمنين، وقد حصل هذا الأمر مع الدين المسيحي فواجه جماعة سميت بجماعة الغنوصيين[٩] ، الذين خلطوا تعاليم المسيحية بالآراء الميتافيزيقية والفلسفة الافلاطونية الحديثة، الأمر الذي أدّى بشريحة كبيرة من المبغضين ووعاظ السلاطين من اليهود والأباطرة اليهود بتحريض الإمبراطورية الرومانية ضد الديانة المسيحية ومعتنقيها بشكل أكبر من السابق، بالرغم من قول السيد المسيح: "**اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله**"[١٠]، وبذلك ألتقت مصالح الطرفين؛ إذ أقرّت الإمبراطورية الرومانية تنظيم الحياة الكنسية وفق ما يناسب توجهات وصيانة سلطة الأباطرة وسيادتهم، وكانت الأبرشية[١١] مجرد تابع يطبق ما يمليه عليها

---

[١] هارديل، اوربا في صدر العصور الوسطى، ترجمة الدكتورة حياة ناصر الحجي، الكويت،١٩٧٩، ص١٢.

[٢] جفري برون، تاريخ أوربا الحديث، ترجمة: علي المرزوقي، الأردن، الأهلية للنشر والتوزيع، ص٥٢-٥٥.

[٣] جماعة اهتم أتباعها بالحياة الداخلية للإنسان الفرد، وجاهد معلموها للانطلاق بالروح نحو خالقها وذلك بتعميق الصلة بين الروح الإنساني والروح الأعلى في السموات، وهي تؤمن بالثنائية فهناك الروح والمادة منذ البدء.

[٤] منصور المخلصي، المصدر السابق، ص ١٣.

[١] الأبرشية : وحدة صغرى من وحدات الكنيسة، ويرأس الأسقف الكنيسة الخاصة بالأبرشية.

الأباطرة، بالرغم من أنها تعتبر الرأس المسيحي، تتبعها الأديرة والصوامع في كل كبيرة وصغيرة، فكان التنظيم الكنسي يتم على نطاق ضيق من حيث المساحة والتأثير[١٢]، ولم يكن للمجلس الكهنوتي ـ الذي يضم كبار أساقفة الكنيسة ويُعهد إليه بانتخاب البابوات وإصدار التشريعات الدينية الجديدة ـ أي تأثير في صياغة شريعة الكنيسة وقوانينها[١٣].

عصر انفراج الأزمة عن الدين المسيحي:

لم يستمر الوضع الديني المسيحي تحت تأثير الاضطهاد والقمع؛ إذ تمكنت الكنيسة المسيحية في أوائل القرن الرابع الميلادي من ضم الإمبراطور قسطنطين[١٤] Emperor Constantine(٢٨٥-٣٣٧) إلى صفوفها، وهذه كانت نقطة تحول كبيرة في تاريخ الدين المسيحي؛ إذ بواسطة هذا الانفراج انفتحت المسيحية على كل فئات المجتمع الأوربي بكل أطيافه وطبقاته وثقافاته، حكومية كانت أو أهلية، وكل هذا بمعونة الإمبراطور قسطنطين، الذي وجد نفسه مضطراً لقبولهم بسبب توسع نفوذهم ومقبوليتهم في كل أرجاء المعمورة، كما أنّ النفس قد طابت للمسيحية بعض الشي[١٥]؛ إذ وجد في المسيحية على هذا النطاق الواسع قوة إيديولوجية منظمة ذات قاعدة قوية، يمكن استخدامها في صراعه ضد منافسيه على العرش[١٦]، فضلاً عن كونها عامل مهم لتوحيد

الموسوعة، الموسوعة العربية العالمية، مج١، ص ٧٥.

(٢) Charles Norris Cochrane, Christianity and Classical Culture, Oxford, 1940, P.361.

(٣) H. Daniel Rops, The Protestant Reformation, London, 1961, p.131.

(٤) ابن القيصر قسطنطيوس كلورس، التحق بخدمة الامبراطور دقليانوس في مصر عام (٢٩٦-٢٩٧م) وتجول في الاقاليم الاسيوية ووقف على احوالها وبعد تنازل دقليانوس عن العرش عام ٣٠٥م لحق قسطنطين بوالده في الغرب، ولما توفي عام ٣٠٦م نودي بقسطنطين امبراطوراً، نهج مسلك والده في التسامح مع المسيحيين لا سيما وان والدته هيلانه كانت مسيحية، اصدر في عام ٣١١م مرسوماً منح فيه المسيحيين بعض التسهيلات ثم اعقبه مرسوم ميلان ٣١٣م، وحارب عام ٣٢٣م امبراطور الشرق ليكينوس وانتصر عليه فاصبح بذلك الحاكم والامبراطور الاوحد للإمبراطورية الرومانية في الغرب والشرق.

(٥) Robert A. Baker Op.Cit, P.35.

Ibid, P.38

(١) كرستوفر دوسن، المصدر السابق، ص٢٣٨.

وسلامة البلاد التي كانت تعاني من النزعات الانفصالية واختلاف الآراء والتوجهات بين الوثنية والكاثوليكية الجديدة، تلك الوحدة التي كان بحاجة لها لإحكام سيطرته في الداخل، ليتمكن من صد الاخطار الخارجية للدولة، والتي تتمثل بتزايد ضغط الجرمان على جبهتي الراين والدانوب، والفرس وخطرهم على الولايات الاسيوية[١٧].

في ضوء ذلك قرر الإمبراطور قسطنطين التسامح مع اتباع المسيحية والتقرب منهم وضم كبار قساوستها إلى إمبراطوريته، فأصدر مرسوم ميلان(Milan decree) سنة ٣١٣م والذي اعترف فيه بالديانة المسيحية على قدم المساواة مع الديانات الأخرى في الإمبراطورية، وقد تضمن المرسوم: "**نحن قسطنطين اوغسطس وليسنيوس اوغسطس، بعد تداول الرأي في ميلانو تبين لنا ان مصلحة الدولة تقتضي منح المسيحيين وجميع الرومانيين حق اتباع الدين الذي يختارونه**"[١٨]، وبهذا المرسوم انتهى عهد الاضطهاد، بل ساعد اعتناقه للمسيحية على فرض هيمنتها الروحية في كل الإمبراطورية[١٩]. لكن ـ وكما ذكرنا سابقاً ـ بعد انتشار المسيحية بهذه الطريقة تعددت الأفهام الدينية، وكلٌّ يحاول فهم الدين وفق آفاقه وأيدولوجياته المعرفية، فنشبت خلافات أخرى مجدداً وظهرت ما يُعرف تاريخياً بالهرطقة الاريوسية[٢٠]، نسبة الى مؤسسها آريوس (Arius) والتي ظهرت عام ٣٢٣م، وأصبح هناك خلاف بينهم وبين اسقف

---

[٢] هارديل، المصدر السابق، ص٩.

[٣] نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في اوربا، الجزء الاول، لبنان، ١٩٦٧، ص ٦٩.

[٤] Vasiliev, History of the Byzantine Empire (324-1453), Wisconsin , 1952, P.51.

[٥] فقد عَلَّمَ اريوس بان الله اله واحد غير مولود، ازلي، اما الابن أي المسيح فهو ليس ازلياً وغير مولود من جوهر الاب خرج من العدم مثل كل الخلائق الاخرى وان المسيح ليس الهاً ولا يملك الصفات الالهية، كما ان معرفة الابن محدودة وليست مطلقة ولا يستطيع ان يعلن لنا الاب بطريقة كاملة وان الله خلق الكلمة (الابن) لأجلنا لأنه عندما اراد ان يخلقنا، خلق كائناً يدعى الكلمة، او الحكمة لكي نكون على صورته.

جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، الجزء الثالث، ترجمة عزرا مرجان، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٠؛

ول ديورانت، قصة حضارة، المجلد السادس، قيصر والمسيح، ترجمة محمد بدران، القاهرة،٢٠٠١، ص ٣٩٢.

الاسكندرية الكسندروس[٢١]، وعندما بلغ الخلاف أشده وتفاقم النزاع بين الطرفين، خشي قسطنطين ان يؤدي ذلك الى فوضى قد تهدد الامن والسلام في ولايات الامبراطورية[٢٢]، لذا سارع بعقد اول مجمع ديني عالمي في تاريخ الكنيسة المسيحية، وهو مجمع نيقيا (Nicaea) المسكوني في شهر حزيران عام ٣٢٥م، وقد حضر الاجتماع ما يزيد عن الفين وثمانية وأربعين أسقفاً، وافتتح الامبراطور جلسته الحوارية بكلمة دعا فيها الاساقفة الى توحيد الآراء والقلوب[٢٣]. وانتهى المجمع إلى قرارين مهمين[٢٤]:

الأول: إدانة المتبنيات الاريوسية، والحكم على الزعيم اريوس وانصاره بالحرمان من رحمة الكنيسة، والحكم على اريوس بالنفي الى ايليريا وحرق جميع كتبه.

الثاني: وضع القانون[٢٥] الرسمي للإيمان بالديانة المسيحية باتفاق الاساقفة المجتمعين عام٣٢٥م، وقد تم تسمية هذا القانون بـ (الأمانة) ونص على أن الأبن مساوٍ للأب في الجوهر وأزلي مثله.

وفي نهاية القرن الرابع الميلادي اعترفت السلطات الرومانية بشرعية وجود الديانة المسيحية وجعلها متساوية مع الاديان الوثنية الرومانية بشكل رسمي في عموم

---

[١] الذي جاء رده بان فكرة الثالوث المقدس (الاب، الابن، الروح القدس) تحتم ان يكون الابن مساوياً للإله الاب تماماً في كل شيء بحكم انهما من عنصر واحد بعينه وإن كانا شخصين متميزين.
نعيم فرح، المصدر السابق، ص ١٦٢.

[٢] جون لوريمر، المصدر السابق، ص٤٤.

[٣] Young, East and West Through Fifteen Centuries, Vol.1, London,1916,P.2.

[٤] حنا جرجس الخضري، المصدر السابق، ص ٦٤٨؛ جون لوريمر، المصدر السابق، ص٦٠.

[٥] نص القانون على: "نؤمن بإله واحد الآب الضابط الكل خالق كل الاشياء ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله المولود من الاب، المولود الوحيد، أي من جوهر الاب، اله من اله، نور من نور، اله حق من اله حق، مولود غير مخلوق مساو للاب في الجوهر، الذي به كان كل شيء في السماء وعلى الارض، الذي من اجلنا نحن البشر ومن اجل خلاصنا نزل وتجسد وتأنس وتألم وقام ايضاً في اليوم الثالث وصعد الى السماء, سيأتي من هناك ليدين الاحياء والاموات. وبالروح القدس, واما الذين يقولون ان كان زمان لم يوجد فيه وانه لم يكن له وجود قبل ان ولد وانه خلق من العدم او انه من مادة اخرى او جوهر آخر او ان ابن الله مخلوق او انه قابل التغيير او متغير فهم ملعونون من الكنيسة الجامعة الرسولية". للتفاصيل ينظر: ول ديورانت، المصدر السابق، ص٣٩٥.

الإمبراطورية الرومانية وخارج حدودها، واصبح للكنائس المسيحية حق التملك كما منح المرسوم للمسيحيين الحماية الكاملة لأرواحهم ومبانيهم وممتلكاتهم[٢٦].

الكنيسة في أوج قوتها:

بعد تعزيز قوتها ونفوذها الديني والسياسي والاقتصادي، أصبحت الكنيسة الكاثوليكية قوة عظيمة كقوة الإمبراطورية، إن لم نقل كانت هي الإمبراطورية! إذ اخذت زمام الأمور وأصبحت صاحبة المبادرة في قمع واضطهاد كل من يخالفها، أو مَن لم يقتنع بالدين المسيحي الكنسي، وأصبحت تستقطب حتى الذين حاربوا الإمبراطورية ـ كالقبائل الجرمانية حينما غزت أراضي الامبراطورية وتقهقرت قام الإمبراطور قسطنطين بفتح أبوب الكنيسة في سبيل جذبهم إليها وتمكنت بالفعل الكنيسة من ذلك ـ بعدما القت العبادة الكنسية الكاثوليكية في قلوبهم الرهبة والخشوع وابتهجوا بالنظام الفرائضي لسد كل احتياجاتهم العبادية، لذا لم يكن من الصعب كسبهم جميعاً لوجهة النظر الكاثوليكية[٢٧]، لا سيما بعد منحهم بعض الامتيازات منها:

- اعفاءهم من الخدمة العسكرية.
- استثناء كنائسهم من ضريبة الاملاك.
- جعل يوم عبادتهم عطلة رسمية وهو يوم الاحد.

مقابل ذلك فقد اتاحت القبائل الفرصة لتوسيع جهاز الكنيسة الكاثوليكية من ناحية وتشديدها من ناحية اخرى، إذ اسست كنائس جديدة في روما، وانطاكية وفلسطين ودرّبت كهنة جدد واعدت طرق جديدة لتعليم اصول الدين المسيحي، مما ادى الى توسيع نفوذ سلطة الكنيسة الكاثوليكية[٢٨]، بالإضافة إلى قيام قسطنطين بهدم بعض المعابد الوثنية؛ لمزاولتها الطقوس الوثنية والتي خالف العقيدة المسيحية،

---

(١) نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص٧٠.

(٢) Robert A. Baker, op.cit, p.49-50.

(١) محمود سعيد عمران، معالم تاريخ اوربا في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٨٢، ص٥٩.

كمعبد اسكلبيوس (Asclepius) في جزيرة كوس (Cos) اليونانية وهليوبولس وافيكا(HeliopolisAfica) في فينيقيا، كما أن اعتراف عامة القبائل بالكنسية وسيادتها وعلو شأنها شكّل لها شرعية أولى في كل أرجاء البلد وأصبح الدين الرسمي والمرجع الأعلى للجميع، الأمر الذي أصبح كضربة لكل من لا ينتهل منهم سواء كانت كنيسة او أسقف، أو اي شخص يدعي انتمائه للدين المسيحي، واصبح لها هيبة عظيمة، وحراسة عسكرية قوية[٢٩].

الدولة البابوية والسيادة العالمية:

أخذت البابوية في بداية القرن الثامن الميلادي في المطالبة بالسيادة العالمية السياسية والدينية في عموم أوربا؛ على اعتبار أنّ شعبيتها اتسعت في كل أرجاء البلاد الاوربية وغيرها، مما أهلها لأن تطالب بهذه السيادة حرصاً على مصالح مؤمني الدين المسيحي، وكونها الأب الروحي للجميع حُكّاماً وشعوباً، فضلاً عن استنادها على وثيقة هبة قسطنطين[٣٠] والتي بقيت سلاحاً قوياً بيدَّ البابوية لمدة سبعة قرون، الأمر الذي مثّل قوة وسلطة للمطالبة بأكثر من السيادة حتى، كمنح التيجان وتنصيب الملوك والأمراء[٣١]، بل واصدار قرارات الحرمان بحق الحكام المتمردين ضد الامبراطورية او الكنيسة! لكن كل هذه المطالبة والامنيات حتى تكون واقع حال تحتاج الكنيسة لتحقيقها إلى دعم الملوك والأمراء والأسر الحاكمة والأباطرة لتثبيت كل مواقعها، في ظل عداء بعض النبلاء في إيطاليا [٣٢].

---

(٢) Robert A. Baker, op.cit, p.49

(٣) ادعت هذه الوثيقة تنازل الإمبراطور قسطنطين الأول عن صلاحياته في القسم الغربي من الإمبراطورية للبابا وحق الأخير في منح التاج الإمبراطوري أو سحبه بوصفه زعيم السلطتين الدينية والدنيوية، كما أقرت زعامة كنيسة روما على كل الكنائس الأخرى. ينظر: جفري برون، المصدر السابق، ص٦٠.

(٤) كمال مظهر احمد، النهضة، بغداد، الشؤون الثقافية، ١٩٧٩، ص١١٩.

(١) عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى الاوربية (٤٧٦- ١٥٠٠)، بيروت، ١٩٨١، ص٩٢.

وهنا لابد من التعرض إلى أهم الحركات أو القبائل والحكّام التي ساندت المسيحية والتي كانت سبباً في سيادة وقوة الكنيسة الكاثوليكية، وهي ما يُعرف بقبائل الفرنجة **(Franks)**، الذين ارتبط تاريخهم بتاريخ غربي اوربا عموماً وتاريخ الكنيسة على نحو خاص، فهذه القبائل هي الوحيدة التي استطاعت البقاء والاستمرار داخل حدود الامبراطورية، بالرغم من كونها من الجرمانيين الذي كانوا يشكلون تهديد للإمبراطورية، فبعد استقرارها في بلاد الغال (Gaul)[٣٣]، وتشكيلها لدولة استمرت بفرعيها الميروفنجي والكارولنجي حتى القرن العاشر الميلادي، حققت الفرنجة بقاءً طويلاً، ونجحوا في مزج مقومات الحضارة الرومانية مع خصائص وتقاليد الفرنجة، بفضل الغزو الجرماني للإمبراطورية؛ حيث أنهم أخفقوا بذلك، وأصبح في موقف الحكمة نظائرهم من القبائل الأخرى كالإفرنجيين[٣٤].

ومن الجدير بالذكر انه عندما خلَف كلوفس Clovis(٤٨١-٥١١م) والده شلدريك في اعتلاء العرش الكارولنجي، قام بتوسيع سيطرته الى انحاء بلاد الغال، بل كان في تحوله إلى المسيحية وإجبار اتباعه على اعتناقها الأثر البالغ والمهم في توسيع مملكة الفرنجة وترسيخ كيانها[٣٥]، وكان هذا الأمر ذو بُعد وأثر تاريخي في تاريخ أوربا عموماً، والفرنجة والكنيسة الكاثوليكية خصوصاً، فأصبح كلوفس كاثوليكي الايدلوجية والدين وليس اريوسياً، زعيماً وليس عدواً لسكان بلاد الغال الكاثوليك واساقفتهم، ومنذ هذا الوقت صار مصطلح **"لم يتلوثوا بالهرطقة"** (Free of Heresy) يستخدم على نحو علني لوصف الفرنجة وحكامهم. وهكذا تحول

---

(٢) Edward James , The Origins of France, press , 1982, P. 13.

(٣) كارلس ديفز، اوربا في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي، الاسكندرية، المعارف، ١٩٥٤، ص٤٠.

(٤) Ferdinand lot ,la Fin du Monde Antique et le debut du Moyen Age,paris,1951 ,P.367.

الفرنجة من حلفاء للرومان وحماة حدود الى سادة لمملكة كبيرة، وحلفاء للكنيسة الكاثوليكية، الأمر الذي أصبحوا من خلاله أصحاب نفوذ وتأثير ولمديد من الزمن في التاريخ الأوربي[٣٦]، وتم ابراز كلوفس بوصفه أول ملك جرماني يعتنق الكاثوليكية، بخلاف باقي قبائل الجرمان في انحاء اوربا الغربية بأنهم آريوسيين. وكل ذلك كان يُعد مصدر قوة للكنيسة المسيحية الكاثوليكية العامة[٣٧].

شارل مارتل وبيبين وأهميتهما في التعضيد الديني المسيحي:

أدرك شارل مارتل Charles Martel(٧١٨-٧٤١) أن إرساء التوافق وتدعيم الأيدولوجيات الفكرية الدينية هو أمر مهم وأساس لتأسيس السلالة الكارولجينية، وبلوغ السيادة بين القبائل الجرمانية غير المسيحية، وبالفعل اتخذ خطوة مهمة تمثّلت بالتبشير للدين والمعتقد المسيحي بين القبائل الجرمانية غير المسيحية[٣٨] وحقق انجازات على الصعيدين الديني والسياسي جعلته بحق المؤسس الحقيقي لحكم السلالة الكارولنجية، وبعد وفاته سنة ٧٤١، استمر التعاون بين الكنيسة والفرنجة في ظل حجابة ابنائه بيبين وكارلومان، فانتشرت في عهدهما المسيحية بين قبائل السكسون على يد المبشر بونيفس، وعندما اعتزل كارلومان شؤون الدولة سنة ٧٤٧م، وانفرد بيبن القصير في منصب حجابة القصر، اتخذت العلاقة بالبابوية في عهده طابعاً جديداً[٣٩].

---

(١) هـ.أ.فشر، تاريخ اوربا العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٤، ص٣٥.

(٢) Davis , A History of Medieval Europe From Constantine to saint Louis, London, 1970, P. 109.

(٣) اجتهد مارتل بالتبشير بين قبائل الفريزيين والثورنجيين الذين استوطنوا جنوب غرب المانيا، والتي عرفت باسم ثورنجيا، نسبة لذلك ظهر الثورنجيون في حدود سنة ٣٥٠م، وخضعوا للهون في الربع الثاني من القرن الخامس الميلادي، الا انهم استطاعوا تأسيس مملكة واسعة في سنة ٥٠٠م، امتدت حتى نهر الدانوب، واستطاع الملك الميروفنجي كلوتر الأول اخضاعهم للمملكة الميروفنجية سنة ٥٣١م، واصبحت ثورنجيا تحكم من قبل الفرنجة. للتفاصيل ينظر:
The New Encyclopaedia Britannica, Vol. 9, P.987.

(١) Warren. Hollister, Medieval Europe, 4 th ed., New York, John Wiley son, 1978, P.68.

فمن جهة اسهم الخلاف حول عبادة الأيقونات والتي أصدر البابا غريغوري الثالث[٤٠] Gregory III (٧٣١-٧٤١م) في سنة ٧٣١م قرار الحرمان الكنسي بحق اللا أيقونيين[٤١](L'inconscient)، إلى تعميق التباعد بين البابوية والبيزنطيين، وادى من جانب اخر الى التقارب بين الفرنجة والبابوية؛ إذ دعمت الفرنجة جهود الكنيسة الكاثوليكية في تشجيع الأيقونية. وهكذا أصبحت علاقة بيبين القصير مع البابوية تختلف عن علاقة والده شارل مارتل ـ إذ بالرغم من مساعداته للبابوية فإنّ الكنيسة لم تكن راضية عن سياسته الزمنية ورفضه الاندفاع لتحقيق مصالح الكنيسة على حساب مصالح الدولة[٤٢]ـ، فقد كان ومنذ توليه الحكم على اتصال وثيق مع كنيسة روما، ودعمه على مواصلة البعثات التبشيرية التي قام بها القديس بونيفيس، بدافع الحماس الديني والمصلحة السياسية، فقد ادرك بيبين ان الوسيلة الاكثر فاعلية لمواجهة بربرية الفريزيين والثورنجيين والبافاريين والسكسون، وجعلهم جيراناً اقل خطراً، هي تحويلهم للمسيحية[٤٣].

لقد كان بيبن القصير ملكاً "**من الناحية العملية**" ويطمح ان يكون "**ملكاً شرعياً**، الا انه تردد في تحقيق هذا الطموح الذي يتعارض مع تقاليد الوصول الى العرش[٤٤]،

---

[٢] ولد في سوريا سنة ٦٩٠م، اصبح بابا للكنيسة خلال (٧٣١-٧٤١)، واجه مشكلة الخلاف حول اللايقونية، والتي بدأت في عهد سلفه البابا غريغوري الثاني عندما شجب تحطيم الامبراطور البيزنطي ليو الثالث للصور الدينية المقدسة في المجمع الروماني سنة ٧٣١، قام بتنصير القبائل الجرمانية بتعيينه القديس بونيفس سنة ٧٣٢م لتنظيم الكنيسة الفرنجية، توفي سنة٧٤١. للتفاصيل ينظر:

The New Encyclopaedia Britannica, Vol. IV, p. 726.

[٣] اشتق المصطلح من الفعل اليوناني إيكو بمعنى اشبه او اماثل والاسم إيكون معناه صورة او صورة مقدسة، ومن المشتقات المعروفة في التاريخ البيزنطي Iconoclater، Icondule بمعنى عابد الصور، اما Iconoclast فتعني محطم الصور والتماثيل. للتفاصيل ينظر:

اسمت غنيم، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ٣٢٤-١٤٥٣، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧، ص٥١.

[٤] Cit, P.70.، Warren, Hollister, Op

[١] Henri Pirenne , A History of Europe, Vol . I,NewYork,1912. P.56.

[٢] P.57. Ibid,

والذي يُشترط ان يرتبط بالأسرة الميروفنجية، ولمّا تعذر عليه هذا الارتباط، كانت كنيسة روما مخرجاً لتحقيق هذا الطموح، وقد استغل الخلافات بين البابوية والامبراطورية البيزنطية، لتولي عرش المملكة، وبالفعل في سنة ٧٥١م، كان للبابا زكريا (Zacharias) (٧٤١-٧٥٢) دورا رئيساً في اسناد عرش المملكة إلى بيبين؛ إذ أمر البابا رئيس اساقفة متز (Metz) بإقامة مراسيم تتويج بيبين في سواسون (Swason)، بعد خلع أخر ملك ميروفنجي شلدريك الثالث، وبذلك يعد بيبين الثالث اول عاهل رسمي للسلالة الكارولنجية (٧٥١-٩٨٧م) [٤٥].

قد تُوّج بيبين للمرة الثانية من خلال البابا ستيفن الثالث (٧٥٢-٧٥٧م) في كنيسة القديس دنيس (Denis) في الثامن والعشرون من تموز سنة ٧٥٤م، ومسحه مع ولديه شارل وكارلومان بالزيت المقدس ومنحه لقب النبيل الروماني[٤٦] (Patricius Romanorum)، الأمر الذي ساعده على الاستئثار بالحكم والتخلص نهائياً من الميروفنجيين[٤٧]، ولم يعد خافيا على بيبين ان غاية البابا هي ان يكون حامياً له من اللومبارد الذين اعتدوا على الاملاك البابوية، فاستجاب الملك الكارولنجي لاستغاثة البابا، وفي سنة٧٥٤م قام بيبين بغارتين ناجحتين على معاقلهم في جبال الالب واستعاد الاراضي التي منحها بيبين للبابوية سنة ٧٥٦م تحت اسم هبة بيبين (Donationofpipen)، والتي تقع في روما ورافينا[٤٨]، وهكذا اظهر بيبين هذا الطابع

---

(٣) Leedom, Medieval Europe A short source book, Warren, Hollister and Joe w. New York، 1982, P.67.

(٤) هو لقب بيزنطي، لم يمنح سابقا الى أي امير جرماني، فقد كان الامبراطور البيزنطي يمنحه الى بطريارك ايطاليا ودوق روما، وقد ادى منح هذا اللقب الى سلسلة من المشكلات مع الامبراطورية البيزنطية ستتضح على نحو واسع في عهد شارلمان.

(٥) Heinrich Fichteneau, Op Cit, P.19.

(١) G. Burr, Op Cit, P.591.

الديني بتأكيده الخضوع لأوامر الرب ورغبته في خدمته ليس بضم الصليب الى شاراته فحسب، بل بإعلان نفسه "**ملكاً بمشيئة الله**"[٤٩].

عهد شارلمان وتغيّر العلاقات الكارولنجية- البابوية:

تغيرت العلاقات الكارولنجية ـ البابوية في عهد ولده شارلمان، فقد اصبحت الاعتبارات السياسية ذات تأثير فاعل في هذه العلاقات، واصبح لشارلمان ارتباط راسخ في ايطاليا بعد ان صار "**ملكاً للفرنجة واللومبارد وحامي روما**"، وسرعان ما بدا واضحاً الاختلاف بين مصالحه ومصالح البابوية على نحو متزايد، ويتضح ذلك من التباطؤ في تنفيذ وعود والده بيبين الى الكنيسة[٥٠]، فقد عمل شارلمان على الحد من طموحات البابوية بالحصول على المزيد من الممتلكات الاقطاعية، حتى اشتكى البابا ادريان الاولAdrian I (٧٧٢–٧٩٥) مراراً من هذا الأمر. من جانبها حاولت البابوية الحفاظ على استقلالها[٥١].

الا ان شارلمان لم يحقق لها ذلك، فقد كان يعد نفسه حامياً للعقيدة واستمر في تجاهل واضح لمكانة البابا، وغاية ما قدمه حكم ذاتي محدود تحت زعامته العليا، وقد ظل وضع دوقية روما غامضاً، ومصدراً للصراع بين البابوية والفرنجة في عهده، ولا سيما انه ظل مصراً على اعتبارها جزءاً من مملكته، ومن أجل ذلك واجه بقوة عدد من التيارات المعارضة لسلطة الكنيسة فكرياً وعسكرياً، فلم يكتفِ بنشر المسيحية ومواجهة الوثنيين والمعارضين لسلطة الكنيسة، بل قام بدور بارز في دعم المسائل اللاهوتية المساندة لها، ودعا الى عقد مجامع كنسية تحت رئاسته[٥٢]. شجب مجمع فرانكفورت (Synod of Frankfort) سنة ٧٩٤م الذي حضره جمع من اساقفة الغرب آراء كنيسة فيلكس ـ وهي الكنيسة الخاضعة للكنيسة الفرنجية في ناربون ـ، المتمثلة باسقف اورجل

---

(٢) Henri Pirenne, Op Cit, P. 58.،

(٣) Geoffrey Barraclough, OP.Cit, P.44.

(٤) Ibid,P.45.

(١) Shailer Mathews,Op,Cit,P.191.

(Urgel) ، وخشية من حدوث انقسام عقائدي بين كنائس فرنسا الخاضعة له، رفع تفسيرات الاسقف الى البابا، وحصل منه على اقرار رسمي بأنكارها وبطلانها، كما انكر المجمع مبادئ عبادة الصور والتماثيل، وبذلك يعد هذا المجمع تأكيداً لسياسة شارلمان المستقلة عن الكنيسة والمخالفة لتوجهاتها في بعض الجوانب، ولاسيما ما يخص العقيدة وعلاقاتها مع بطرياركية القسطنطينية[٥٣].

أما العقيدة الارثوذكسية فقد رفضت على نحو حاد نتائج المجمع المذكور آنفاً، مما أضطر البابا، ـ على الرغم من كونه اقرب الى فكرة الكنيسة الارثوذكسية في متبنياتها ـ الى الانحياز لجانب الفرنجة واصدار قرار التحريم ضد الامبراطور باعتباره مارقاً عن العقيدة، وبالنهاية اثبت مجمع فرانكفورت ان البابا قد اضطر بضغط من شارلمان الى سحب اعترافه السابق بمقررات مجمع نيقية[٥٤]، وسحب ما أشيع آنذاك من ان شارلمان كان ينوي عزل البابا ادريان ويستبدله بآخر فرنجي، في حالة عدم استجابته لطلباته. وعلى اية حال، انهت وفاة ادريان في سنة ٧٩٥م، مرحلة حرجة من العلاقة بين البابوية والفرنجة الكارولنجيين ظهرت فيها الخلافات بين الجانبين علانية، فكل من العاهل الفرنجي والبابا عملا على التمسك بزمام السلطة واظهار الاخر بمظهر التابع في اطار الصراع بين السلطتين الدينية والزمنية طبقاً (لنظرية السيفين)[٥٥].

وتم انتخاب بابا آخر وفق قناعات شارلمان، وتم اختيار الكاردينال ليو رغم اشتهاره بسمعة غير محمودة وشخصية مبهمة، وتم الاحتفال به رسمياً ـ ليو الثالث Leo III (٧٩٥-٨١٦)، بصفته بابا جديد في السادس والعشرين من كانون الاول ٧٩٥م، وكان اول ما قام به هو الاعتراف بشارلمان سيداً اعلى، كما ارسل اليه مفاتيح القديس بطرس، وشارة مدينة روما، طالباً منه ارسال مبعوثيه ليؤدي رجال الكنيسة امامهم يمين الولاء.

---

(٢) ادوار بروي وآخرون، القرون الوسطى، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٦٥، ص ص٢٧.

(٣) William Maehl Harvey, Germany in Western Civilization, Univesity of Alabama, Alabama, 1979,P.23.

(٤) Gregory of Tours,Op,Cit,P:92.

وبذلك اصبح البابا تابعاً لشارلمان بعد ان كان البابا رسمياً سيداً على والده بيبين، وكان هذا التطور اهم حدث في سلسلة الاحداث التي شهدتها العقود الثلاثة الاخيرة من القرن الثامن الميلادي[٥٦].

وهكذا اصبح العالم المسيحي الغربي آنذاك برمته تحت سيطرة شارلمان، واضمحلال علاقة البابا بالإمبراطورية البيزنطية، حتى وفاته سنة ٨١٤م وتولي ابنه لويس Louis ضعيف الشخصية، حكم الامبراطورية حتى عام ٨٤٠م، وبهذه الانتقالة لم تدم الامبراطورية قوية كما كانت بالسابق، وسرعان ما استعاد رجال الدين هيبة الكنيسة التي سلبها شارلمان، إلّا إنّ ذلك هو أيضاً لم يدم طويلاً؛ حيث اصبحت الكنيسة في معرض الاضطراب والتدهور بعد ابنه، وكذلك الحال نفسه للإمبراطورية بسبب الخلافات وما حلّ من اضطرابات انقسمت إلى ثلاثة أقسام تقريباً، بين الولايات الألمانية، والفرنسية، والجزء الفاصل بينهما، لذا تسارعت مكانة الامبراطورية الرومانية المقدسة إلى الانهيار قبل نهاية القرن التاسع الميلادي على اثر الهجمات التي شنتها قبائل الفايكنغ[٥٧]، وحتماً أن يؤدي ذلك إلى انهيار البابوية وتدهور مكانتها نتيجة اعتمادها اللامتناهي على الإمبراطورية في توفير الحماية والدفاع عن مصالحها وممتلكاتها الواسعة داخل وخارج حدود إيطاليا[٥٨].

---

(١) موريس بيشوب، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤، ص١٩٢.

(٢) وهم سكان الشمال (الدنمارك، النرويج، السويد) الذين سكنوا شبه جزيرة اسكندناوة وشبه جزيرة الدنمارك، اغاروا على اوربا خلال القرن التاسع الميلادي وقد عرفوا بهذا الاسم Vikings لكونهم يقطنون الخلجان التي تكثر في شواطئ الجهات الشمالية الغربية من اوربا.

سعيد عبد الفتاح عاشور المصدر السابق، ص ١٧٤.

(١) William Maehl,Op,Cit,P.54.

المبحث الثاني

طبيعة النظام الكنسي ودور الإصلاح الكلوني في تأزم علاقة الدين بالسياسة(٩٠٠-١٢٠٩)

شهد منتصف القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الميلادي تحولات مهمة ومفصلية وعلى كل الأصعدة، الديني، والسياسي، والاداري، والسوسيولوجي، بالنسبة للكنيسة في العصور الوسطى، فأنتجت حياة كنسية منظمة خرجت إلى النور بعد الظلام الذي كان يحيق بالمؤسسة الدينية. لا يخفى إنّ الذي ساعد الكنيسة على النهوض من جديد هو الاعتماد على حطام الماضي الروماني؛ إذ بلا شك بعض التعاليم الدينية ـ وبالأخص الإيجابية إلى الوجدان ـ لا زالت موجودة لدى الناس مكونة عبر الأجيال أعراف وتقاليد دينية، وسيكولوجية؛ إذا فقد كان العرف الكنسي هو السائد، وهو العرف الشعبي بلا تغيير ولا تجديد، استثمرت الكنيسة هذا الأمر وضمنتها بتشريعات اسقفية جديدة تناسب وعادات الجيل الحالي، كما مثَّل المجلس الكهنوتي ـ سياسياً ـ الكينونة الإدارية القائمة عليها الكنيسة، لكنه لا يمكن القول بأنهم هم وحدهم من كانت لهم القوة المطلقة في أخذ القرار وصياغته وعدم مراجعتهم فيه، بل كان هناك تدخل من قبل الأباطرة والملوك ورؤوساء الأبرشيات، لكن هذا التدخل اعتمد على قوة شخصية البابا وطبيعة علاقته بالإمبراطور من جهة ومدى تأثير إيمانه على الشعب المسيحي من جهة أخرى[٥٩]، والتي نستدل منها على قناعة الكنيسة بأكملها في أنها هي الوحيدة المخولة بإدارة نفسهاوتدبير أمور الشعب.

---

[١] في ذات الصدد استنكر البابا نيقولاس Nicholas (٢٧٠-٣٤٣) ادعاء الإمبراطورية البيزنطية في حقها مشاركة الكنيسة في الصلاحيات الممنوحة لها من الله التي كانت تمارسها من خلال الرسالة التي بعث بها إلى

أما الجهاز الإداري للكنيسة، فإنه تمثَّل بالكاهن المسؤول عن الأسقفية ورجال الدين المسؤولين عن الطقوس والاحتفالات والأعياد والخدمات التي تؤديها الكنيسة من الصلوات العامة في الكاتدرائية، والمحافظة على مبناها وإثبات صحة وصايا الموتى[٦٠]، وكان رئيس الشماسة وكبير الكهنة وجماعة رجال الدين الملحقين بالكاتدرائية الذين هم القساوسة من أبناء الأسقفية وخاصة الأغنياء منهم من طبقة النبلاء المتوارثين لمناصبهم[٦١] يشرفون على الشؤون المالية من حيث جباية الأموال وتخصيص مستحقيها، فكانوا يتنافسون على المناصب الكبيرة والصغيرة للحصول على بعض الامتيازات المتحققة، كالإعفاء عن الضرائب، واستغلال أراضي وممتلكات الكنيسة باسم المنصب الكنسي.

اختيار البابا للكرسي الرسولي:

أما منصب البابا وعملية اختياره في مؤسسة الكنيسة، فيتم على أساس تأييده بعون من السماء، بواسطة الكرادلة، وهم أبرز أعضاء الإكليروس في روما من أساقفتها، والمسؤولين عن أكبر كنائسها ورؤساء الشماسة السبعة المكلفين بإدارة شؤون الكنيسة[٦٢]، وهم الذين يشكلون الإدارة البابوية.

إمبراطور القسطنطينية قنسطنس الأول Constantine1 (٣٣٧-٣٥٠) جاء فيها: "**أيــن قرأتم؟، ومن أين علمتم: إن الأباطرة وسابقيهم قد شاركوا في حكم المجلس الكهنوتي؟، اللهم إلا في بعض الأمور التي كان يتم فيها النقاش؛ من أجل الإيمان، الذي هو ليس من خصوصية رجال الدين وحدهم، بل عامة المؤمنين في كل مكان**".

363.:Bratlet and Carlyle, Op, Cit, P

(١) McCabe, Op, Cit, P:39.

(2) كان الكثير من الآباء الأتقياء يكرسون أبناؤهم لخدمة الرب والكنيسة ويدفعون الضريبة التي يفرضها اللورد المحلي من أجل انخراطهم في هذا السلك وحلق رؤوسهم, وكانوا يتلقون تعاليمهم في المدارس على أحد القساوسة. ينظر: موريس بيشوب, المصدر السابق, ص١٧٧.

(3) الكرادلة: أبرز أعضاء الإكليروس في روما من أساقفتها, والمسؤولون عن أكبر كنائسها والشماسة السبعة المكلفين بإدارة شؤون الكنيسة. للتفاصيل ينظر: مفرج ط.يب, موسوعة عالم الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم, ج١, مطبعة نوبلس, بيروت, ٢٠٠٤, ص٤٥.

أما مالياً فهذه من الشؤون التي تدار من قبل غرفة إدارة الممتلكات البابوية، المسّيرة لكثير من شؤون الأعمال والأموال التي تُجبى من الضرائب المفروضة على كل الأسقفيات والرسوم[٦٣]. وعن هذه الحقيقة نذكره ما أرخه مؤرخ العصور الوسطى جون لوريمر: "**هناك جباة خصوصيون من قبل البابا سافروا إلى الأرياف كانوا يطالبون بعشر دخل الكاهن، ويحصلون على كل حصيلة الكاهن عن السنة الأولى من خدمته، وكانت المراكز والوظائف الكنسية لمن يدفع المبلغ الأكبر.... وإذا سافر البابا أو أحتفل بأحد الأعياد حينئذ تُفرض لذلك ضريبة إضافية**"[٦٤].

وهكذا شكّلت الطبقة الارستقراطية والإدارة المالية الركن المهم في الجهاز الكنسي، وأصبح المورد في التمويل لكثير من الأديرة عبر تخصيص العديد من العقارات والأراضي لها؛ ليستفيدوا منها في سدّ احتياجاتها المادية لتأدية واجباتها الخدمية والاجتماعية، إذ امتلكت بذلك الأديرة معظم الثروة في عموم أوربا، وكان ذلك فيما بعد سبباً في نشوب الصراع والمنازعات حول الحدود بين الممتلكات البابوية والحقوق والعائدات المالية، الأمر الذي نتج عنه قتال مرير بين اتباع الطوائف المختلفة[٦٥].

هيمنة رجال الدين على المجتمع المسيحي في العصور الوسطى:

قُسّم العالم المسيحي في العصور الوسطى المبكرة إلى ثلاث طبقات اجتماعية، لخصها أحد الأساقفة الفرنسيين حينما قال: "**إن بيت الرب مُخصص لثلاث فرق: الأولى تصلي فيه، الثانية تحارب فيه، الثالثة تعمل فيه**"، أي طبقة رجال الدين، والنبلاء، وعوام الناس، وكان هذا التصنيف قائم على أساس هرمي محصور جاء من الرب!، فرجال الدين بمثابة الرأس للجسم، والنبلاء بمثابة اليدين، أما العامة فهم بمثابة الرجلين،

---

(١) جفري برون، المصدر السابق، ص٥٤-٥٥.

(٢) جون لوريمر، المصدر السابق،ج٤، ص٣٦.

(٣) 223.Lamonte, Op, Cit, P.

وبما أن الرأس هو المحرك لكل الجسم البشري، فإن الكنيسة زعمت لنفسها الحق في إدارة المجتمع والتحكم به[٦٦].

يُذكر أنّ في العصور الوسطى المبكرة كان غالبية الرهبان ورؤوساء الأديرة من طبقة النبلاء، وجمهور الجماعات الديرية من طبقة العامة، أما كبار الأساقفة فهم من اللوردات والذين تعلموا اللاهوت وكانوا مدركين لأهمية وظيفتهم وعملهم الشاق في المجالات الروحية، السياسية، القضائية والإقطاعية[٦٧]، وبهذا حاز رجال الدين القوة والزعامة الدينية والروحية، والقوة المادية والوجاهة الدنيوية، فتكونت لأجل ذلك حكومة كنسية شملت أغلب الطبقات الدينية ـ من قسيس القرية في الدرجة الأدنى حتى البابا ـ، ثم يأتي مركز البابوية في العاصمة وهي كما يعبرون عنا (إدارة مدينة الله) روما والتي كانت تعج بجيش الموظفين في فروع الكنيسة المختلفة[٦٨] مقسمين على المحاكم والخزينة، ومجلس الكرادلة الذين يعينهم البابا بنفسه، ويعينون بدورهم البابا الجديد بعد أن يغادرهم سلفه إلى العالم الآخر، فضلاً عن الرهبان والراهبات الذين وهبوا أنفسهم لله ودينه[٦٩].

وبذلك كانت روما قد احتلت المكانة العليا والخاصة في تأريخ الكنيسة، وتصدرت الزعامة، وأصبح الأمر وراثياً بالنسبة لرئاسة الأسقفية.

أما على مستوى التأصيل العقدي للدين المسيحي في الكنيسة الكاثوليكية، فقد تزامن مع بناء المؤسسة الكنسية واضفاء صفة القدسية عليها وعلى البابا، وهذا بطبيعة الحال مكّنها من إرساء الكثير من العقائد والممارسات الخاصة بالكنيسة الكاثوليكية،

---

(١) موريس، المصدر السابق، ص١٢٤.

(٢) Durant, Will, The Age of faith; A history of medieval civilizationChristian, Islamic and Judaic- from Constantine to Dante, A. D (325-1300), Simon and Schuster, New York, 1950, P:564.

(٣) Mccabe, Op, Cit, P:40.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص٣٤٧.

أمثال تحول خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه، وتحديد الأسرار المقدسة بسبعة أسرار, كما شاعت في المؤسسة الكنسية عبادة الذخائر الكنسية[٧٠] والتي تمثّلت بالسلع والمقتنيات التي كان البابوات القدماء يقتنونها، خاصة الصالحين منهم، بل زاد الأمر أكثر من الناحية التقديسية؛ إذ أصبح التقديس يشمل حتى جثامين البابوات، أو عظامهم! وكل ما يتعلق بهم. وبهذا أصبحت المقتنيات والذخائر المقدسة فيما بعد مزاراً يقصدها المؤمنون من كل انحاء البلاد، ويؤدى اليمين عليها، لذا فامتلاكها من جهة الكنيسة كان مكسباً دينياً، الأمر الذي أدى إلى تنافس بين الاطراف لامتلاكها [٧١]، حتى تم الغش فيها في الكثير من الأحيان؛ إذ أصبح تجارة نافعة لبعض الرهبان الدجالين الجوالين ببيع عظام الخنازير على أنها عظام القديسين، وبعض قطع صليب الصلبوت، وبعض قطرات من لبن العذراء في الأسواق الريفية، وكما يذكر القديس برناردينو من ساينا: "**إن كل أبقار لمبارديا لم يعد لديها من اللبن ما يكفي لعرضه في كل أنحاء ذلك العالم**"[٧٢].

امام هذا التوسع في تجارة الذخائر والمبالغة في استغلال الولاء الروحي للمسيحيين، تنبه بعض كبار رجال الدين إلى خطورة عبادة الذخائر المقدسة على المستوى الديني والاعتقادي والمستوى الاجتماعي، وحاولوا وضع الكثير من الضوابط لها، لكن سرعان ما ذهبت مساعيهم مهب الريح، والسبب في ذلك يرجع إلى رسوخ هذا الإيمان وبهذه الطريقة في النفوس، سواء كان عن قناعة وإيمان، أو عن اضطرار في تارة أخرى بسبب اضطهاد الكنيسة لبعض الفئات المخالفين لتوجهاتها.

---

[١] الاساس في هذه العبادة طبيعي، فعندما تصعد روح أحد الاشخاص المقدسين، فأنه جسده يبقى كرمز أبدي لوجوده على الأرض، كذلك فإن ملابسه وممتلكاته الشخصية لأنها تعد اشياء ذكرهم به. للتفاصيل ينظر: موريس بيشوب، المصدر السابق، ص١٦٨.

[٢] باع إمبراطور القسطنطينية بلدوين الثاني للقديس لويس واحدة من أهم الذخائر المقدسة بالنسبة للعالم المسيحي وهي إكليل الغاز, نظير مبلغ ضخم من المال, وقام القديس لويس ببناء الكنيسة المقدسة في باريس لوضعه فيها. ينظر: موريس بيشوب، المصدر السابق، ص ١٦٨-١٦٩.

[٣] جفري برون، المصدر السابق، ص٦٧.

إلا أنه، بمرور الوقت تزايدت الريبة والشك حتى بين الأتباع المخلصين لتلك الأماكن، خاصة مع سلوك البابوات أساليب في بيان افضليتهم على عموم الناس وانفرادهم في نيابة الله والسيد المسيح، وأحقيتهم المطلقة في التصرف بإدارة مصير العالم المسيحي، الأمر الذي لم يرق للكثير من المؤمنين، ومن أصحاب الوجاهات كذلك، بل ومَن ملك بعض المناصب[٧٣]. لقد بالغ البابوات كثيراً باستخدامهم لهذه السلطة والمكانة السامية، واستباحوا لأنفسهم أموراً من شأنها أن تسيء سمعتهم وتجعل منهم محل سخرية واستهزاء في قلوب اتباعهم، حتى إن بعضهم كان جائراً استغلالياً مثل الأسقف متى التولى matthew of (Toul) الذي تحدى قرار الحرمان لمدة ثمان سنوات وقتل رجال الدين الذين أُرسلوا لكي يحلّوا مكانه في إدارة الدوقية، وسرق المعدات الكنسية الخاصة بالأسقفية والميرون المقدس[٧٤] وشيدَّ قلعة خاصة بين طبقات المجتمع المختلفة[٧٥]. كان كل ذلك على حساب سلطة الكنيسة الروحية وعدم تطبيق القوانين التي نادت بها.

من جانب آخر ولأجل الإحساس بالريبة والتزعزع الإيماني في قلوب المؤمنين بالدين المسيحي، سلكت الكنيسة مسلكاً روحياً آخراً لتثبيت الإيمان لدى الأتباع ولإعادة الثقة برمزية الكنيسة وعالميتها بين الجميع والمحافظة على هيبة الأماكن المسيحية المقدسة وتأكيد قوة سلطان البابا، شجعت الكنيسة الحج إلى البيت المقدس وأماكن القديسين، لما يحتويه على فوائد روحية يستشعرها الحاج، وللتكفير عن الذنوب والخطايا، الأمر الذي تعده البابوية أحد جوانب إصلاح وسلامة المجتمع، وأهم المناطق التي يقصدها الحجاج المسيحيين هي: مزار القديس يعقوب في شمال غرب إسبانيا، روما

---

(١) Ferdinand lot, la Fin du Monde Antique et le debut du Moyen Age, paris, Editions Albin Michel,1951, p. 367.

(٢) الزيت المقدس الذي يمسح به المسيحي عند التعميد. ينظر: موريس بيشوب، المصدر السابق، ص١٧٧.

(٣) Ruether, Rosemary Radford, the church against itself: An Inquiry into the conditions of historical existence for the eschatological community, Herder, New York, 1967, P.72.

وبيت المقدس، فضلاً عن الشروط الواجب الالتزام بها من قبل الحجيج وفي مقدمتها، الحصول على موافقة ومباركة الكنيسة[٧٦].

لا يخفى أنّ سلطة الكنيسة على عوام الناس لم تأتي من فراغ، وإنما بفعل أدائها المستبد الصارم تارة، وأُخرى من خلال المحبة والإيمان وتقديم بعض الخدمات البسيطة ـ كونها المسئولة روحياً عن المجتمع ـ التي لم يكن فيما سبق للطبقة الفقيرة الحصول عليها، والخدمات من قبيل:

- كان من حق الفقراء والمرضى والمسنين أن يحصلوا على احتياجاتهم من الملكية العامة والتي تُجمع في خزينة الكنيسة.
- تشييد العديد من المستشفيات وأمدادها بالخدمات اللازمة، وانشاء أماكن خاصة لمعالجة مرضى الجذام.
- انشاء بيوت جمع الصدقات وإيواء الأيتام.
- انشاء منازل خاصة لاستضافة المسافرين من التجار والحجاج على امتداد ممرات جبال الألب[٧٧].
- قيامها بالكثير من وظائف الدولة الرسمية؛ إذ شهدت المحاكم الكنسية الكثير من القضايا المدنية والجنائية، بما فيها القضايا الخاصة برجال الدين كحالات الزواج والطلاق والميراث.

---

[١] على الحاج أن يرتدي ثوباً من الصوف الخشن وقبعة مستديرة مصنوعة من اللباد وأحياناً كان يخرج حافي القدمين ويقسم على ألا يحلق شعر رأسه ولحيته إلا عند عودته ويحمل عصا في يده يبلغ طولها ستة أقدام لها خطاف يعلق عليه قربة الماء وبعض اشياءه الضرورية في رحلته، إذا كان متجهاً إلى بيت المقدس يضع صليباً من قماش على ثوبه والبعض يرسمه بطريقة الوشم على جسده. ينظر: موريس بيشوب، المصدر السابق، ص ١٧١.

[٢] ادوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ترجمة: يوسف داغر، مج٣، عويدات للطباعة، بيروت، ٢٠٠٣، ص٣١٦.

- محاربة الرق والعبودية التي عمت الغرب الأوربي، وإصدار قرارات بتحريم تجارة الرقيق وافتداء الأسرى واستعادة من كان منهم في بعض البلدان الإسلامية.
- قيام بعض الراهبات من جماعة القديسة مريم المجدلية بإصلاح أخلاقيات الكثير من النساء, فضلاً عن تكريسهم أنفسهم لخدمة الحجاج المسيحيين[٧٨].
- الاشراف على التعليم والمواد الدراسية؛ إذ أصدرت الكتب والمناهج التعليمية وجعلت ذلك حكراً على مؤسستها الدينية، فلها سلطة مطلقة على طلاب العلم جنباً إلى جنب سلطتها على رجال الدين والرهبان وجماعات الكتَّبة والنسَّاخ داخل الطوائف الدينية والمنتمين إليها[٧٩].

كل هذه قدمتها الكنيسة للمجتمع لكن كان المقابل وخيماً وهو الدين والمعتقد! والسيطرة على الأيدولوجيات البشرية، بل والسيطرة على الأرض وما عليها وكما مر، ومن غرائب الامور إنها سيطرت حتى على خصوصية الانسان الجنسية وتكوين الأسرة والعائلة؛ إذ أجبرت رجال الدين على العزوبية[٨٠] بداعي الزهد وتكريس النفس كلياً للكنيسة، وعليه أن يعطي حبه الأبوي لأتباع كنيسته، فهم يقدسون العذرية لأنها الكفيلة بأن تجعل الإنسان مساوياً للملائكة، وقد دفعهم هذا الأمر إلى التطرف تجاه أنفسهم والمبالغة في تطبيق رؤية البابوية في الحياة العذرية، فمنهم من بتر الأعضاء التناسلية والبعض الآخر ختن نفسه من أجل نعيم الفردوس الذي وعدته به الكنيسة في الآخرة[٨١].

توسع الكنيسة السياسي والسيادي في أوربا وتدهور روحيتها الدينية:

استمرت الكنيسة تمارس سلطاتها وتتوسع على حساب الإمبراطورية، حتى مثّلت في القرن الخامس الميلادي القوة الحضارية الرئيسة في أوروبا الغربية؛ إذ تصدت لقيادة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص٣٤٣.

(٢) Rops, The church, Op, Cit, P: ١٢٤ .

(٣) موريس، المصدر السابق, ص١٧٨.

(١) Ferdinand lot, Op, Cit, P.369.

الشعب، وكادت أن تقوم مقام الدولة في كل كبيرة وصغيرة، حتى أن الملوك في بعض الأحيان لا يقطعون أمراً إلا بمشورتها وإرادتها، وفق قانونها الخاص والمعُروف بـ (القانون الكنسي)، يتبع ذلك القانون نُظم إدارية لتعزيزه، والتي تُمارس بشكل مباشر على الكثير من الجوانب الحياتية عند المجتمعات المسيحية الأوربية لا سيما فرنسا المعروفة بتعصبها الديني للمذهب الكاثوليكي[٨٢].

وبطبيعة الحال ولأجل إهمال الباباوات مسؤوليتهم الدينية بسبب انغماسهم في ملذات الحياة، وسلب ممتلكات الناس، بداعي صكوك الغفران، فقدت الكنيسة شيئاً فشيئاً مكانتها المعنوية، إذ وصلت إلى مرحلة أصبحت فيها سلطة البابا ضعيفة ورمزية فقط، مما أعطى الفرصة للحكام المحليين لتولي امر الكنائس الموجودة في ممتلكاتهم، الأمر الذي أضاع وحدة الكنيسة أمام هذا التدخل العلماني في شؤونها العامة[٨٣]. ومما لا شك فيه أن تسلّط الحكام المحليين على أمور الكنيسة أدى إلى تعيين رجال الدين الذين يعملون لمصلحة الدولة أكثر مما يعملون لمصلحة الكنيسة، فاختاروا رجالاً غير مؤهلين لمناصب الكنيسة والأديرة والأبرشيات، وخرج رجال الدين من سلطان البابا ليصبحوا اقطاعيين في أماكنهم، بل أصبح أمر الكنيسة أضعف حينما تغيرت الموازين التي على أساسها كان يُنتخب البابا؛ فقد تدخل الحكّام والنبلاء ورجال الدين والعامة في اختيار البابا، كما نظر نبلاء روما وشعبها على أن الانتخاب من حقهم دون سواهم، فوصل الأمر إلى أن أصبح تعيين البابا بعيداً كل البعد عن الأصول الدينية وغير الدينية المتعارف عليها سابقاً[٨٤].

---

(٢) Chadwick, Henry, The church in Ancient society: from Galilee to Gregory the 33..Great, Oxford University press, Oxford, 2001, P

(٣) موريس كين, حضارة أوربا في العصور الوسطى, ترجمة: قاسم عبده قاسم, عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية, القاهرة, ١٩٩٤, ص٨٢.

(١) محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، د.ت، ص٦٧-٦٩.

ومن وجهة نظر المسيحيين زاد أمر الكنيسة آنذاك انحطاطاً في انتشار الرشاوى، وزواج رجال الدين، والتقليد العلماني، لاسيما فيما يتعلق بالوجود السيموني[٨٥]، الذي انتشر بشكل كبير للحصول على المناصب الدينية، في الأديرة والكنائس, فقد مثّل مصدراً مهماً لثروات هائلة تطلع اليها رجال الدين عند خلو مناصب شاغليها وتنافس رجال الدين الإكليروس على تقديم الاموال للحكام او كبار رجال الدين لشغل هذه المناصب[٨٦].

فأما زواج رجال الدين فتم اعتبار العزوبة عادة ديرية حاولت الكنيسة أن تعممها على كافة رجال الدين بهدف تطهير النفس والانصراف الى الشؤون الدينية، وحتى لا تصبح ممتلكات الكنيسة وراثية لأبناء رجال الدين، وأما مشكلة التقليد العلماني (l ay investure) فهي في قيام الحكام الزمنيين بتعيين رجال الدين في مناصبهم، على عكس ما يقضي به قانون الكنيسة والذي يحتم تعيين رجال الدين عن طريق كبار البابوات والقساوسة المسؤولين فيها، ولكن مع ضعف نفوذ الكنيسة تدخل الحكام العلمانيين وقاموا بتعيين رجال الدين على اساس انهم يشغلون مناصب دنيوية إلى جانب مراكزهم الدينية[٨٧]، وأمام ذلك تحتم على رجال الدين تقديم ولاءهم للحاكم العلماني عند تولي مناصبهم, فوجدوا العلمانيون الحكّام في تعيين رجال الدين في المناصب الاقطاعية ضربا

---

(٢) وتسمى أيضاً الشرطونية: نيل أي درجة كهنوتية عن غير استحقاق عن طريق الرشوة، وهي نسبة إلى سيمون الساحر الذي لما رأى أنه بوضع أيدي الرسل يعطى الروح القدس قدم لهما (لبطرس ويوحنا الرسولين) دراهم قائلاً (أعطياني أنا أيضا هذا السلطان حتى أي من وضعت عليه يدي يقبل الروح القدس) فقال له بطرس (لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتني موهبة الله بدراهم ليس لك نصيب ولا قرعة في هذا الأمر لأن قلبك ليس مستقيماً أمام الله) (أعمال الرسل8:18-21)

(٣) Chadwick, Henry, Op, Cit, P:42.

(١) Sellery, Op, Cit, P. 191.

للنفوذ الاقطاعي المعادي للسلطة المركزية، لهذا لم يروا بُداً إلا بأقصائهم قدر الإمكان، مما أدى إلى تدهور أوضاع الكنيسة[٨٨].

المحاولات الفرنسية لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية(دير كلوني):

بناءً على ما تقدم، ظهرت في القرن العاشر جماعة جديدة من النبلاء دعت إلى الإصلاح الشامل للكنيسة الكاثوليكية في روما، كان جوهرها إحياء المثَّل الأعلى النموذجي للرهبنة، فأسسوا أديرة جديدة لمراعاة أصول القانون البندكتي، وكان أشهرها (دير كلوني) في بورغندي، الذي تأسس عام٩١٠ على يدَّ وليام الأول (WilliamI) دوق مدينة آكيتاين (Aquitaine) في الجنوب الفرنسي[٨٩]، ببناء دير ضخم بشكل يوحي بظهور حركة جديدة، وهي حركة إصلاح الأديرة، التي يقصد بها السير على نهج قوانين بندكت[٩٠]، وأصدر ميثاقاً يقضي بتوظيف رئيس للدير يعمل تحت يديه أثنا عشر راهباً يقوم بانتخاب رئيس الرهبان وأن يتولى البابا رعايته كونه ديراً ضخماً له تأثير على الوسط المسيحي[٩١].

حافظ الدير على نشاطه في إصلاح الكنيسة، طوال قرنين ونصف القرن، اتبع رهبانه نسخة معدلة من قانون بندكت، وأعلن وليام في ميثاقه:" **إن مؤسستنا تلك سوف تخدم الوسط المسيحي إلى الأبد وسوف تكون ملجأ للذين عزفوا عن الدنيا وللفقراء الذين لم يقدروا على شيء سوى تقديم نواياهم الطيبة**"[٩٢]، فقد نص ميثاق الإصلاح لرهبان دير كلوني على عدة بنود, تمثلت بـ: إعلان الحرب على السيمونية التي دهورت الكنيسة، وإجبار الرهبان على الالتزام بحياة العزوبية، التي كانت هي

---

[٢] محمود سعيد عمران، المصدر السابق، ص٧٢.

[٣] H.J.Cowdrey. Popes and Church Reform in the 11th Century,NewYork, 2000, P.15

[٤] ينظر ملحق(١) يوضح تعاليم القديس بندكت الدينية.

[٥] Schafer Williams,The Gregorian Epoch: Reformation, Revolution, Reaction, Boston: D.C.P,2.187.

[١] Ibid,P.2.

الأصل في الكنيسة الكاثوليكية على أساس قول عيسى(عليه السلام): **"بأن المتزوج يعمل ما يرضي زوجته، أما المتبتل فيعمل ما يرضي الله"**، وتطهير حياة رجال الدين الشخصية من الخطايا التي كانوا مستعبدين لها فطالبوا بإعطاء البابا سلطان أوسع لإصدار أحكام رادعة على كل من يخرج على تعاليم الكنيسة وقوانينها(٩٣).

تولى الراهب أودو Udo منصب رئيس دير كلوني عام٩٢٦، ركز جهوده لجعل ذلك الدير مركزاً للإصلاح الديني تنطلق منه حركات إصلاح دينية للأديرة المسيحية الأخرى، ومع حلول منتصف القرن العاشر كانت خمسة أديرة تخضع لسلطة دير كلوني الكبير، وهم: دير جورز (Great Goures) الكبير في (اللورين)، فليري (Fleury) الملكي الفرنسي الواقع على نهر اللوار، فقامت بإصلاحه والسيطرة عليه، ديجون (Dijon) في نورماندیا لتنمية الكنيسة النورماندية، ولم يلبث النظام الكلوني أن انتشر بفضل رؤوساء الدير المتعاقبين، فنشأت أديرة عديدة واعتمدت أديرة كبيرة في ألمانيا وفرنسا قاعدة كلوني بقانونه النظامي، بذلك تجاوز التأثير الكلوني حدود الأديرة الكلونية إلى سائر الأديرة الأخرى(٩٤).

نتيجة لذلك، فقد تمثلت الخطوة الأولى لحركة الدير في طريق تحرير العقل الأوربي من سطوة الكنيسة وسيطرتها، في شجاعة بعض المفكرين وجرأتهم في توجيه النقد للبابوية ورجال الدين المسيحي بوجه عام واظهروا استنكارهم لما تقوم به الكنيسة من أعمال وأنشطة، وتقف وراءها عدة عوامل منها، تدهور المستويات الأخلاقية وتفشي حالات الفساد والانحطاط بين رجال الدين المسيحي، كما يذكر ذلك الكاتب المسيحي – جاد المنفلوطي في كتابه تاريخ المسيحية– بقوله: **"لسنا مغالين إن قلنا إن غالبية رجال الدين في تلك الأيام كانوا من مدمني الخمر، مستعبدين للعديد من الخطايا كالزنى،**

---

(٢) Olin, John, The Catholic reformation, Fordham University press, New York, 1992, P.98

(1) كانتور نورمان, العصور الوسطى الباكرة, ترجمة: قاسم عبده قاسم, عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية, القاهرة, ١٩٩٣, ص٣٦٩.

يعيشون في بحبوحة من العيش يسعون وراء المتع الزائلة مهملين القيام بواجبات الخدمة الموكلة إليهم....يشترون المناصب بالمال وظاهرة السيمونية متفشية جدا"[٩٥]، ولم يكن الرؤوساء أفضل من مرؤوسيهم ولا البابوية بمنأى من هذه المساوئ التي مثلت الطابع المميز لحياة الكنيسة عامة بارتكاب شتى أنواع الجرائم وابشعها[٩٦].

وعندما وجد ملك فرنسا روبرت التقي Robert Taqi (٩٩٦-١٠٣١) في هذه الحركة القوة الدامغة لطغيان الكنيسة، قرر مساندة مهمة دير كلوني في الإصلاح، حتى يكون له سيطرة على البابا ونفوذ داخل الكنيسة، ولم يقتصر هذا الإجراء على فرنسا بل نجح ملك المانيا هنري الرابعHenry IV (١٠٥٠-١١٠٦) في جلب عملية الإصلاح الديني إلى أديرة فلوردا (Florda) وريتشينو (Richino)، كما تزوج حفيده الملك هنري الثالث (Henry III) بامرأة فرنسية من نساء النبلاء تجمع أسرتها علاقة وطيدة مع دير كلوني، فاتبعوا سياسة إصلاح، نمت عن سياسة ملكية مسيحية متسامحة مع عدم التدخل في شؤون الكنيسة، فكانوا يقومون بواجباتهم نحو الكنيسة كـ ملوكاً ملتزمين متحمسين للإصلاح الديني الكنسي[٩٧].

الانقسام الديني الكبير وتأزم العلاقات الدينية الزمنية:

شهدت الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٠٥٤ أبرز حدث في تاريخ الديانة المسيحية، تمخض عنه انقسام كبير في المعتقد الديني بين الكنيستين انذر بدخول المسيحية في مرحلة جديدة حرجة للغاية، عندما دار الجدل الاخير بين الكنيستين حين ادان رئيس اساقفة القسطنطينية مايكل سبرولاريوس (MichaelSprolarious)(١٠٤٣- ١٠٥٩م)

---

(٢) جاد المنفلوطي, المسيحية في العصور في الوسطى, دار الكنيسة الأسقفية, القاهرة, ١٩٧٨, ص٤٠. نقلاً عن: أحمد علي عجيبة, أثر الكنيسة على الفكر الأوربي, دار الآفاق العربية, القاهرة, ٢٠٠٤, ص١٥.

(٣) Edmund Maurice,Op,Cit,P:73.

(١) Pirenne Henri,Op, Cit, P:110.

كنيسة الغرب لاستخدامها الخبز الفطير في الافخارستيا[٩٨]، فارسل البابا ليو التاسع وفداً برئاسة الكردينال همبرت (Humbert) واثنين من القانونيين، وبعد مناقشات ومداولات لم يتم حسم الخلاف فيها، اصدر الوفد الكاثوليكي في السادس عشر من تموز سنة ١٠٥٤م مرسوماً بحرمان سبرولاريوس وتابعيه، وفي مقابل ذلك عقد سبرولاريوس مجمعاً محلياً حيث اعلن فيه خروج البابا وتابعيه عن الايمان القويم ومن ثم قطعه عن الكنيسة[٩٩]، كان هذا اول انقسام عقائدي عُرف بـ الانشقاق الكبير (Great Schism)، والذي حطم وحدة الكنيسة، ومن ذلك التاريخ مضت كل كنيسة من الكنيستين في طريقها الخاص بعيداً عن الاخرى.

ساهم ذلك وبشكل أساسي، بظهور زعيم إصلاحي كلوني داخل الكنيسة، وهو هيلدبراند، الذي احتل موقعا قياديا في المجلس البابوي، ثم أصبح بابا لكنيسة روما باسم غريغوري السابع Gregory VII (١٠٧٣ م – ١٠٨٥م)، شأنه شأن أنصاره الكلونيين يؤمن بسيادة البابوية، وضرورة خضوع السلطة الدنيوية لها، فقد أعاد للكنيسة بعضا من هيبتها[١٠٠]، وحرص على استقلال نفوذ الكنيسة ورصانتها، وسعى إلى تحريرها من مشاكلها الداخلية من تنافس وصراع البابوات ورجال الدين فيما بينهم من جهة وبين النبلاء والاقطاعيين من جهة أخرى، إذ استندت الباباوية في قيام حركتها الإصلاحية على احترام الناس لها، من خلال هيمنتها العالمية بإصدار العقوبات التي تُعد من أشد العقوبات التي يخشاها العالم المسيحي، فقد بدأ البابا إصلاحه بعقد مجمعاً دينياً خاصاً

---

(٢) ويسمى سر التناول، وهو أحد اركان الاسرار السبعة للعقيدة الكاثوليكية (التثبيت، التوبة، مسحة المرضى، الكهنوت، الزواج والمعمودية).

(٣) Earle E. Cairns, op.cit, p. 236

(١) G. Meyer von Knonau, Jahrbücher des deutschen Reiches unter Heinrich IV. und Heinrich Vol, 2, Leipzig, 1984, P.375

في روما سنة١٠٧٤م من أجل القضاء على الرشوة المتفشية بين رجال الدين من قبيل بيع المناصب وصكوك الغفران[١٠١].

تمخض عن ذلك المجمع وضع الأسس الكفيلة بالقضاء على مشكال الكنيسة، وهي: فصل أي رجل دين وصل إلى منصبه عن طريق دفع المال، وكذلك تحريم بيع مناصب رجال الدين بعد تاريخ انعقاد هذا المجلس١٠٧٤، وأيضاً حرمت رجال الدين المتزوجين من القاء القداس والمواعظ وحرم على الناس الاستماع إليهم، كما رفض بشكل قاطع أي تدخل من المؤسسة السياسية في شؤون الكنيسة، ومحاول استغلال الصراع الدائر بين الكنيسة والإمبراطورية، لمد نفوذه على الأراضي الإيطالية، لزيادة الممتلكات الكنسية وهيمنتها[١٠٢].

وفي سياق جهود البابا غريغوري في إصلاح الكنيسة، اصدر القاعدة القانونية التي اشتملت على بنود عديدة تتعلق بمعظم المسائل الروحية والدينية للكنيسة، التي عُرفت باسم مجموعة الإرادة البابوية[١٠٣]، والتي نصت على سمو سلطة البابا على أية سلطة أخرى، ولا بد أن يذكر اسم البابا دون سواه في جميع الكنائس، فهو بحق يمثل السلطة العالمية، فـ البابا وحده له الحق في عزل الأباطرة، وقراراته ملزمة للتنفيذ، والبابا بمكانته وسلطته لا يستطيع أحد محاكمته أو حتى التجرؤ على شخص احتمى بالبابا[١٠٤]، وهو الوحيد الذي يصدر قرار الحرمان من رحمة الكنيسة(Excommunication) وما ان يصدر ذلك سيحرم من وقع عليه هذا القرار من الاشتراك في قداس الكنيسة وجميع امتيازاتها، بل واعتبار الشخص المحروم مطرودا من

---

(٢) (magazine),J.P.Whitney,"GregoryVII", English Historical Review,vol.34, no.134.(April 1919),P.132.

(٣) R. Schieffer, "Spirituales latrones. Zu den Hintergründen der Simonieprozeße in Deutschland zwischen 1069 und 1075," Historisches Jahrbuch 92 (1972), P.4.

(١) ينظر الملحق (١) للاطلاع على مجموعة قوانين الإرادة البابوية.

(٢) Robert Wilken,(magazine), First "Gregory VII and the Politics of the Spirit" thing; A Monthly Journal of Religion and Public Life. Vol. 89,1993,P.3.

رحمة الكنيسة ومن مجتمعه، والبابا الوحيد له الحق بإصدار قرار القطع الجماعي (Interdict)، والذي بموجبه تقفل الكنائس ويدفن الموتى دون صلاة، ولا يتم تعميد الأطفال، وتوقف عقود الزواج، وبمعنى آخر شل حركة الكنيسة في المنطقة التي يفرض عليها هذا القرار[١٠٥].

وبعد إن عالجت البابوية مشاكلها الداخلية وأصبحت قوة روحية كبيرة معتمدة على رجال الدين المؤيدين من القساوسة، ولاسيما رؤساء أديرة كلوني، كان من الطبيعي أن يحدث الصراع بين الامبراطورية والباباوية، وقد قدر لهذا النزاع أن يستمر لمدة طويلة وأن يكون له نتائج كبيرة على المجتمع الأوربي الغربي في العصور الوسطى، وليس ذلك فحسب بل امتد أثره إلى ما بعد العصر الوسيط، ويعود السبب الحقيقي لهذا النزاع إلى محاولة كل من الامبراطور والبابا، بفرض أحدهما سلطته على الآخر، وإن كانت البابوية قد نظرت إلى هذا الموضوع من الناحية الروحية، فإن الإمبراطور كان يرى عدم تدخل البابا في تعيين رجال الدين الذين كانوا عماد الادارة في الامبراطورية، وإن ولاءهم كان في الدرجة الأولى للإمبراطور[١٠٦].

لذا تدهورت العلاقة بشكل كبير بين البابوية والإمبراطورية وبلغ صراع الطرفين أوجه في عهد الإمبراطور هنري الرابعHenry IV (١٠٥٦-١١٠٥) والبابا غريغوري السابع[١٠٧]، وبدا الصراع عام (١٠٧٥)عند ما قام هنري الرابع بتعيين رئيس أساقفة مدينة ميلانو وأسقف مدينة فيرمو (Fermo) وأسقف مدينة سبوليتو (Spoleto)، ورد البابا على هذا الاجراء بالتهديد بقرار الحرمان ضد هنري وعزله من منصبه إذا لم يرجع عن قراراته[١٠٨]، جاء جواب الإمبراطور بعقد مجلس حضره جميع الأساقفة الألمان

---

[٣] موريس كين, المصدر السابق, ص٨٤.

[١] إدوارد بروي, مج٣, المصدر السابق, ص٣١٨.

[٢] PirenneOp, Cit, P:166 .

[٣] سعيد عبد الفتاح عاشور, المصدر السابق, ص٣٤٩.

تقريبا، في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٠٧٦ في مدينة ورمز، اتهم فيه الاساقفة الحاضرون البابا بالتدخل في شؤونهم المحلية، وأرسلوا إلى البابا رسالة بدأت بعبارة **الأخ هيلدبراند**، ولم يخاطبه باسم البابا، كما أرسل الإمبراطور هنري الرابع رسالة أخرى في الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة ١٠٧٦ إلى البابا مطلعها: "**من هنري الملك الشرعي الذي اختاره الله إلى هيلدبراند الذي لا يعتبر البابا بل راهباً مزيفاً**"، وذيل الرسالة بقرارات مجمع ورمز التي تقضي بعزل البابا[١٠٩].

وكرد فعل على ما اقدم عليه الإمبراطور هنري الرابع، عقد البابا مجمعاً دينياً خاصاً في روما في الثاني والعشرين من شباط عام ١٠٧٦ للرد على خطاب الامبراطور هنري الرابع، واصدر المجمع قراراً بعزل الامبراطور لتمرده على الكنيسة[١١٠]، واعتبار رعاياه في حلّ من القسم الذي ادوه له، وحرّم على الجميع أن يتعاملوا معه كملك[١١١]، وقد أدى ذلك إلى تصّدع الامبراطورية، وارتد رجال الدين الالمان واتجه بعضهم إلى البابا يعلن ولاءه، واعلنوا انه في حالة عدم تمكن هنري من رفع قرار حرمانه قبل الثاني والعشرين من شباط سنة١٠٧٧ فإنهم في حل منه كملك وعليهم أن يختاروا ملكا آخر، وقد اسّرت هذه المواقف البابا بشكل كبير[١١٢].

اهتز عرش هنري الرابع بعدما انقض من حوله الأساقفة وعاداه النبلاء، وكان عليه تدارك الأمر قبل فوات الأوان[١١٣]، لذا قرر التوجه للبابا لطلب العفو والغفران[١١٤]،

---

(٤) Carl Stephenson, Mediaeval History,New York ,Harper Brothers–publishers,1951 ,P.62.

(١) ينظر ملحق (٢) للاطلاع على نص قرار البابا بحق الملك وحرمانه من رحمة الكنيسة مباركتها.

(٢) 136.. Young, Op, Cit, P

(٣) محمود سعيد عمران, المصدر السابق, ص٢٩٧–٢٩٨.

(٤) .72: Strayer, Op, Cit, P

(٥) المعلومات الواردة هنا مستمدة من الخطاب الذي أرسله البابا غريغوري السابع إلى الأمراء الألمان في نهاية فبراير عام (١٠٧٧)، ورد فيه, أن الامبراطور وصل أمام أبواب قلعة كانوسا(Canossa) التي احتمى بها البابا في مقاطعة توسكانيا التابعة للأميرة ماتيلدا، وذلك في الخامس والعشرين من يناير عام (١٠٧٧) وطلب الاذن لمقابلة البابا, ولكن البابا لم يجبه إلى طلبه إلا بعد ثلاثة أيام قضاها الامبراطور أمام أبواب القلعة في

واحتكم الجانب الديني على الجانب الدنيوي وعفا البابا عنه بعدما سار إليه حافي القدمين باكياً وسجد أمامه مقبّلاً الأرض طالبا الغفران، غير إن الإمبراطور لم يكن جادا في توبته فعاد إلى ألمانيا لينكل بالنبلاء ويعمل على زيادة نفوذه، وضج النبلاء بأعماله واتجه بعضهم إلى البابا وحصلوا منه على قرار الحرمان ضده، وقرار آخر بعزله وتعيين رودلف دوق سوابيا

(Rudolph Duke of Swabia) في آذار ١٠٧٧، ولكن هذان القراران لم ينالا من هنري الذي زاد نفوذه بشكل كبير، بالإضافة إلى أن رودولف لم يتمكن من الوقوف بوجه هنري، وظلت الفتنة في ألمانيا ثلاث سنوات[١١٥].

أعاد البابا قراري عزل هنري وحرمانه سنة ١٠٨٠، وحرم على الأهالي طاعته، ولكن صدور القرارات وسحبها قد أضاع قوتها وعلى ذلك لم يكن لقرارات البابا قوة فعالة[١١٦]، فضلاً عن وفاة رودولف أمير نافار والمنافس الأقوى لعرش الإمبراطورية، في العام نفسه، وقد أعطى ذلك الفرصة للإمبراطور ليمسك بزمام الأمور من جديد، كما اجتمع رجال الدين الألمان فى مينز Mains وقرروا عزل البابا غريغوري مرة أخرى وساندهم في هذا القرار بعض رجال الدين في ايطاليا، فقام بتعيين البابا كلمنت الثالث Clement III (١٠٨٠-١١٠٠) والذي توج هنري الخامس إمبراطوراً[١١٧]، ورغم نجاح

برد يناير القارص, وقد أوقع حضور هنري البابا في حرج شديد, فالبابا كرجل دين على رأس الكنيسة لا يستطيع أن يرد تائبا عن بابه، كما أن العفو عن هنري يجعله أقوى مما كان ويعطي له الفرصة لضرب النبلاء الذين ساندوا الباباوية. للتفاصيل، ينظر: موريس بيشوب, المصدر السابق, ص١٧٣.

(١) Heinrich Fichtenau , The Carolingian Empire , Trans . by peter Munz , Oxford , Basil Blackwall , 1968,P:61.

(٢) موريس كين, المصدر السابق, ص٨٣.

(٣) وليام, تاريخ الحروب الصليبية, ترجمة: سهيل زكار, دار الفكر العربي, دمشق, ١٩٩٠, ص١٦.

هنري في عزل البابا غرغوري، فانه يمكن القول أن الصراع بين الباباوية والامبراطورية لم ينته عند هذه المرحلة[١١٨].

غير أن العلاقات الإمبراطورية البابوية شهدت مرحلة هدوء وسلام نسبي في عهد الإمبراطور هنري الخامس Henry V (١١٠٦-١١٢٥) والبابا الفرنسي كاليستوس الثاني Calistos II (١١١٩-١١٢٤)، الذي أدرك خطورة الصراع القائم بين اسلافه وضرورة المصالحة في الوقت الحالي لأنه أولى اهتماماً بالغاً لمسألة الحروب الصليبية حتى تكون لفرنسا الريادة الأولى في حماية العالم الكاثوليكي وهو بحاجة إلى مساندة الإمبراطور بالدعم العسكري والمالي، لذا لم يتردد في تسوية الأمور مع الامبراطور هنري الخامس، وبهذه الروح التي أبداها البابا عقدت تسوية وُرمز (Worms) عام ١١٢٢، بموجب هذه الاتفاقية أصبح للبابا حق تعيين رجال الدين في مناصبهم باعتبارهم رؤساء في الكنيسة، وفي ذات الوقت اعتبار رجال الدين هؤلاء متولون لمناصب علمانية باعتبارهم من الاقطاعيين، فعليهم أن يقدموا ولاءهم للإمبراطور على هذا الأساس، غير ان هذه الاتفاقية لم تستمر في عهد البابا اينوسنت الثاني Innocent II (١١٣٠-١١٤٣) الذي رفضها في مجمع اللاتران الثاني المنعقد سنة ١١٣٩م حين اعلن: "**يجب ان يكون الكرسي البابوي مصدراً للسلطان الديني، وكل رئيس ديني يجب ان يتسلم سلطانه من بابا روما**"[١١٩].

الكنيسة تساند التاج الفرنسي في اضطهاد الرعايا المسيحيين:

عندما أعتلى البابا إينوسنت الثالث Innocent III(١١٩٨ - ١٢١٦م) الكرسي الرسولي، لم يكتف بتطبيق ادعاءات البابا غريغوري السابع بل قدسها جاعلاً من نفسه ممثل الله ذا السلطان على الارض وسعى إلى بث روح الحملات الصليبية المستمرة التي أثارت الانفعال الديني والولاء المتعصب، حتى استطاع اينوسنت ان يسود العالم بأسره

---

(٤) . Strayer, Op,Cit, P:73

(١) Carl Stephenson, Op,Cit, P:67.

زمنياً وكنسياً[١٢٠]، فتمكن من بسط نفوذه واجبار ملك اسبانيا وفرنسا على الخضوع لسلطانه، وفرض على الدول الكاثوليكية دفع جزية عالية سنوياً، واضعاً ادعاءه بانه وسيلة الله المباشرة لحكم العالم موضع التنفيذ، من هذا المنطلق حاول ملك فرنسا فيليب الثاني Philip II (١١٨٠-١٢٢٣) أن يستعين بالبابا ويوحد الجهود في خلاص المملكة الفرنسية من الافكار الهدامة لعرشه، فطلب في سنة١٢٠٨ من البابا بصفته الحامي الشرعي للديانة الكاثوليكية، الاستعداد العسكري والتعبئة المعنوية لشن الحملة الصليبية ضد الالبيجنسيين[١٢١] في الجنوب الفرنسي[١٢٢].

إذ ألف رجال الدين والإقطاعيين الأغلبية في هذه الحملة التي انطلقت بداية سنة ١٢٠٩ وقاوم سكان مدينة لانجويدك رجال الحملة التي كانت حرب اهلية بكل تفاصيلها، إذ اتجهت من الشمال ضد الجنوب ورأى أهل لانجويدك أن اهل الشمال يريدون الاستيلاء على أراضيهم تحت ستار الحماس الديني وكانت المقاومة العسكرية من الطرفين عنيفة جدا، ولم تقتصر الحرب على مدينة لانجويدك فحسب، فعندما تفاقم أمر الصراع بين الاهالي ورجال الحملة، عرض قادة الحملة على مدينة بيزييه (Bezier) المجاورة تسليم الملحدين لأنهاء القتال وحقن للدماء، لكن أهالي المدينة رفضوا ذلك وأعلنوا المقاومة حتى الموت لذلك هاجم قادة الحملة المدينة بكل عنف وتمكنوا في النهاية من تسلق أسوارها واستولوا عليها وقتلوا من اهلها حوالي عشرين الفاً[١٢٣].

---

[٢] اسحاق عبيد, محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها, مصر, دار المعارف, ١٩٧٨, ص٢٧.

[١] ظهرت فى جنوب اوربا وغربها جماعات كثيره ملحدة، اجتمعت هذه الحركات فى جنوب فرنسا تحت لواء جمعية جديدة تعرف بالألبيين (Albigenses) نسبة إلى البى احدى مدن كونتية تولوز التى كانت تلك الجمعية بها مركزا كبيرا، وكان الالبيون نصارى فى الظاهر غير انهم كانوا فى الواقع جمعية ثورية تعتنق فى الخفاء تعاليم المانويه، وتنقسم طبقا لنظم الجمعية الى مراتب مختلفة تضم الاولى جماعة المنتهين وكانوا فئة قليلة يتظاهرون بالزهد والتقشف لا يأكلون اللحم ويمقتون الحلف والكذب وكانوا موضع الاجلال والخضوع التام من ابناء المرتبة الثانية وهم المؤمنون. للتفاصيل ينظر: موريس بيشوب، المصدر السابق، ص٢٩٣.

[٢] هـ. و. ديفز، المصدر السابق، ص١٧٩.

[٣] James Bryce, D.C.L, Op, Cit, P:36.

تميزت الحملة بوجود قادة كبار بحنكتهم القيادية، يأتي في مقدمتهم سيمون دي مونتفرت (Simon de Montfort) الذي واصل حروبه في جنوب فرنسا ضد اعداءه الهراطقة لسنوات، حرر فيها الكثير من الاراضي عدا مدينة تولوز التي أصرت على المقاومة، ولم تستسلم له إلا بعد أن عقد مندوبوا البابا المجمع اللاتران في روما سنة ١٢١٥ وفيه تقرر خلع ريموند وتولى أبنه سيمون امر المدينة، وأن الكنيسة البابوية هي من يملك الغفران وتمنحه لمن تشاء، إذ مثل هذا المجمع قمة التسلط الكاثوليكي الروماني رسمياً، مجسداً الصورة الكاملة لخضوع كل سلطة كنسية وزمنية خضوعاً شاملاً للبابا، بضمنها حضور اسقف القسطنطينية (الذي كان سابقاً منافساً قوياً) ليحني ركبته، وكان مظهر هذا الاحتفال الهائل اكثر اهمية مما تم فيه من اعمال، ودار البحث فيه عن حملة صليبية جديدة، ونظر في مسألة الاتحاد مع الكنيسة الشرقية، ووضع ترتيب معاقبة الهراطقة من قبل الحكومة، وسنَّ عدة قوانين غايتها النظر في التأديب الكنسي، وحددت رسمياً عقيدة الاستحالة التي تؤكد ان الخبز والخمر في القداس يفقدان صفتهما ويتحولان عملياً الى جسد ودم السيد المسيح[١٢٤].

من النتائج التي اسفرت عنها الحرب الالبيجنسية، هو سير فرنسا نحو المركزية ونجاح محاكم التفتيش في المناطق التي عملت فيها، ونجاحها في إقصاء الهرطقة المناهضين لها لبعض الوقت، كما أثارت قريحة الشعراء الملهمين من التروبادور في بروفانس، إلا أنها سببت الكثير من الضرر إلى سمعة الكنيسة، فقد أثبتت إنها على خطأ، لأن الأفكار لا يمكن إخمادها بالتخلص نهائيا من معتنقيها، فضلاً عن ذلك إن الفئات الاجتماعية ذات الفوارق الطبقية لم تكن على صراع دائم فيما بينه، إلا أن أدوار الانقسامات الكبيرة بين البابوية والأباطرة والثورات التي قامت بها الطبقات المسحوقة من

---

(١) Heinrich Fichtenau, Op,Cit, P:74.

الفلاحين وعمال الحِرف البسيطة في فرنسا وإنكلترا، هي التي كانت سبباً مباشراً في تأجيج المنازعات الداخلية في المجتمع المسيحي الأوربي[١٢٥].

ويمكن لنا أن نلاحظ مما مرَّ ذكره من أحداث وما تضمنته من صراعات وعلاقات غير مستقرة بين الدين والسياسة، أن كل ما دار من حروب وصراعات كانت دينية بحتة بل انطلت تحتها الكثير من الأهداف والمصالح، مما يؤكد ذلك قول سيدني بانتر: "**بأن رجال الدين مثل غريغوري السابع ورؤوساء دير كلوني الأوائل، كانوا من الكهنوت السياسيين، يسعون أساساً إلى السلطة والنظام والكفاية المالية، بل إن النظام الرئيس للأديرة في تلك الحقبة، لا سيما نظام دير كلوني، كان بمثابة إصلاح إداري وليس إصلاحاً روحياً**"[١٢٦].

لقد تميزت هذه المرحلة من تاريخ الكنيسة بتغيير جذري في مكانتها، فبعد ان كانت اسيرة للإمبراطور في المرحلة السابقة، نجدها الآن قد جعلت الامبراطور اسيراً خاضعاً لها، واصبحت كوكباً كبيراً يدور في فضاءه كل دولة زمنية، غير ان هذا الانجاز الكبير جاء نتيجة احتدام الصراع ما بين البابوية والامبراطورية حول الزعامة، وقد تحول ذلك الصراع الى اقتتال دموي ما بين مؤيد ومعارض لاحد الطرفين، الامر الذي اغرق الامبراطورية والبابوية برمتها في سلسلة من الصراعات على مدى قرنين من الزمن، حصدت خلالها الاف من البشر سواء على الصعيد الداخلي في اوربا او الخارجي المتمثل بالحملات الصليبية التي تزعمتها الكنيسة في هذه المرحلة من تاريخها، مما اثر سلباً على نفوس الناس واثار شكوكهم حول الكنيسة وتعاليمها والبابوية وتصرفاتها بسبب خروجها على رسالتها الروحية. وهكذا كان النصر الكبير الذي حققته

---

[٢] موريس بيشوب, المصدر السابق, ص٢١٢.

[١] سيدني بانتر, تاريخ الحروب الصليبية, ترجمة: سعيد عبد المحسن, ج١, منشورات بيت المقدس, ٢٠٠٤, ص٩.

الكنيسة في هذه المرحلة، يحمل بذور الضعف والخذلان باستمرار الانقسامات الكنسية والتي سينتج عنها حروب أهلية مذهبية في بعض دور أوربا وخاصة فرنسا، بسبب سياستها الخاطئة الناجمة عن انشغالها في بسط سيادتها الزمنية على حساب الحكام والملوك والاباطرة الذين اذلتهم بأسلحتها المختلفة كالقطع والحرمان الجماعي بغير حساب، فضلاً عن الانقسام الكبير الذي شهدته الكنيسة سنة ١٠٥٤، الأمر الذي تسبب بشكل مباشر في تمزيق الوحدة المسيحية وفقدان الكنيسة الأم لمكانتها الدينية والدنيوية والكثير من الامتيازات، تمثل ذلك في نقل مركز البابوية إلى مدية أفينيون الفرنسية وهذا ما عُرف بالأسر البابلي.

المبحث الثالث

العلاقات الكنسية-الملكية ودورها في الاضطهاد الديني-محاكم التفتيش الفرنسية- (١٢٠٩-١٣٠٩)

نتيجة لحالة الفوضى والانقسامات التي تعيشها البابوية والصراع القائم بين الكنيستين في الشرق والغرب حول المعتقدات الكنسية والامتيازات السلطوية، ومن جهة أخرى كثرة نشوب الثورات الشعبية الناقمة على سياسة رجال الدين، كل تلك الظروف ساعدت المناهضين للكنيسة الكاثوليكية والذين تم تسميتهم بالهراطقة على الازدياد والتوسع، لذلك زاد اهتمام الكنيسة فى ملاحقتهم، فقد طلبت البابوية من الاساقفة زيارة اسقفياتهم مرة على الأقل كل سنة وملاحقة الضالين والقبض عليهم وعلى من تدور حوله الشبهات، وإجبارهم على أداء يمين الولاء للكنيسة الكاثوليكية واتباع أوامرها وتعاليمها وإلا أصبحوا فى تعداد الضالين الواجب معاقبتهم، كما أن البابا إينوسنت الثالث طلب من جميع الحكام أن يقسموا على إبادة جميع الملاحدة القاطنين في أراضيهم، وإن لم يفعلوا ذلك أصبحوا من الهراطقة أيضاً, ويخلع الحاكم من منصبه ويصبح رعاياه في حل من الولاء له[١٢٧]، ورغم هذه القرارات والمحاكمات فقد كان هناك جانباً من أوروبا مرتعاً للهراطقة مثل بعض الأراضي الفرنسية خاصة الجنوبية ومعظم إيطاليا رغم وجود البابوية في أراضيها بالإضافة إلى جميع بلاد البلقان، فتهددت وحدة الكنيسة وزاد من تهديدها، أن أحد الأساقفة ويدعى فيليو باترونون FilippoPaternon وكان ذو نفوذ واسع امتدت

---

(١) Elizabeth Aubrey, The Dialectic between Occitania and France in the Thirteenth Century Author, University Press,1977, P: 52.

سلطته من مدينة بيزا Pisa حتى مدينة أرزو[١٢٨]Arezz، قد أعتنق مذهب الكاثاريين[١٢٩].

اضطهاد البلاط الفرنسي للمسيحيين بأسم الكنيسة وتأسيس محاكم التفتيش:

استدعى نشاط الهراطقة وانتشارهم بشكل كبير في الجنوب الفرنسي إلى استئناف الحروب الأهلية مرة اخرى في عهد الملك الفرنسي لويس الثامن Louis VIII (١٢٢٣-١٢٢٦) الذي اعتلى عرش باريس بعد وفاة أبيه فيليب أغسطس سنة ١٢٢٣، في الوقت الذي شغل هونريوس الثالثHonerius III (١٢١٦-١٢٢٧) الكرسي البابوي والذي كان مسانداً لآراء ملك فرنسا، لذا أخذ لويس الثامن على عاتقه مهمة البابوية في تثبيت دعائم محاكم التفتيش في الجنوب الفرنسي لقمع الألبجنسيين[١٣٠]، وقد بالغ في إرضاء بابوية روما عندما قرر إقامة محاكم التفتيش في الشمال الفرنسي وكانت هذه المرة الأولى التي يصادق فيها القانون الفرنسي على عقاب الهراطقة بالحديد والنار، غير أن وفاته في تشرين الثاني سنة ١٢٢٦ حالت دون تطبيق ذلك إلا في عهد خليفته الملك لويس التاسع

---

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور, المصدر السابق, ص٣٢٤.

(١) تقسم فلسفة الكاثاري الكون إلى الخير والشر، وتعد المادة كلها شراً بما فيها الصليب الذي مات عليه المسيح والقربان المقدس، وبينهم رجال دين يرتدون ثياباً سوداء ومطارنة يسمون(الكمل)، يُقسمون وقت ترقيتهم لهذا المنصب، أن يتخلوا عن آبائهم وأزواجهم وذريتهم وأن يهبوا أنفسهم لله والإنجيل، وألا يقربوا امرأة قط ولا يقتلوا حيواناً ولا يأكلوا اللحم ومنتجات الحيوان، كما يقسم أتباعهم على الإيمان بهذا أيضاً، وقد وجه الكاثاريون نقداً لاذعاً لكنيسة روما التي يعدوها رمزاً للفساد، وهي بذلك تبتعد عن كنيسة المسيح الذي ليس له مُلكٌ ولا مال، وأن البابوات خلفاء الأباطرة وأموال الكنيسة جاءت من ثراء رجال الدين المسيحيين الذين هم زمرة الشيطان، وإن الأساقفة ورؤساؤهم من ذوي الأملاك الواسعة والقساوسة الدنيويين، هم الزنادقة الأقدمون عادوا إلى الحياة من جديد، والبابا هو المسيح الدجال لأنه يدعو للحروب الصليبية ويسرق الأموال باسم الدين ببيع صكوك الغفران وغيرها من القيود المفروضة.

للتفاصيل ينظر: أحمد علي عجيبة، المصدر السابق، ص١٩-٢٠؛ ول ديورانت، مج٥، المصدر السابق، ص٧٦.

(٢) Jeremiah Sullivan , Op. Cit, P.173.

Louis IX (١٢٢٦-١٢٧٠)، الذي يعود لعهد تنفيذ محاكم التفتيش وتثبيت قواعدها في فرنسا، إذ شمل مع والدته بلانكا القشتالية، مفتشي تلك المحاكم بالعطف والحماية، إرضاءً لكنيسة روما والبابا جريجوري التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١)، جاء ذلك ضمن سياسته الدبلوماسية في الحصول على تأييد ومباركة البابوية في سياسته الخارجية لتحقيق السيادة الروحية والرمزية للعالم المسيحي في قيادة الحروب الصليبية ضد المسلمين في الشرق[١٣١].

ولاستغلال هذه الفرصة، بدأ لويس التاسع بتجهيز حملة عسكرية في كانون الأول سنة ١٢٢٦، وجهت بالدرجة الأولى ضد كونت مقاطعة تولوز Toulouse رايموند السابع[١٣٢] Raymond VII والاستيلاء على مدينة أفينيون لرفضها، السماح للصليبيين بالعبور على أراضيها نحو الجنوب، لأن أهالي المدينة كانوا معارضين لسياسة الملك لويس في اضطهاد إخوانهم في الجنوب والذين يوجد لهم الكثير من المؤيدين لتلك الأفكار والآراء التي شكلت الأساس في عقيدة الالبيجنسيين، لذا لم يضمن الملك لويس سلامة حملته العسكرية حتى يثبت قواته في أفينيون، لذلك عين فيها مندوبين عنه للإشراف على أراضي الهراطقة المصادرة في الجنوب الفرنسي، وعندما حظيت الحملة بتأييد كنيسة روما وخروج أهالي الشمال الفرنسي لمحاربة الجنوب، قام فرسانه باستغلال خيرات الجنوب تحت شعار الصليب ومحاكم التفتيش، كما عبرت هذه الحملة عن العداء القديم للشمال الفرنسي نحو الجنوب، فضلاً عن الحصول على صكوك الغفران الكنسي[١٣٣].

---

(١) 62.. Elizabeth Aubrey, Op, Cit, P

(٢) لأنه لم يوافق على طلب ملك فرنسا فيليب اغسطس والبابا اينوسنت الثالث في محاربة الالبيجنسيين، والذي ازدهرت حركة المتطهرين تحت رعايته، وقاموا بالدعوة لمذهبهم علانية، بل إنهم وصلوا إلى المناصب العليا في الكنيسة، فاصدر البابا ضده قرار الحرمان الكنسي وأمر أهالي تولوز بعدم الامتثال لحكمه لأنه غير شرعي لخروجه على تعاليم الكنيسة الأم.

(٣) 83.. Samuel B. Parsons, Op, Cit, P

ونتيجة المواجهة المباشرة بين زعيم الهراطقة رايموند والقوات الكنسية الملكية الفرنسية، لمقاومة هؤلاء الهراطقة، شكل البابا لجنة تحقيق لمحاكمة رايموند وأتباعه، وعقدت اللجنة أولى جلساتها في فلورانسا سنة ١٢٢٧م، وشكلت أعمالها بداية فعلية لمحاكم التفتيش البابوية في الجنوب الفرنسي(١٣٤)، وفي سنة ١٢٢٩عقد مجلس كنسي في مدينة تولوز وأصدر عدة قرارات بحقهم، منها: إنزال اللعنة على رايموند السابع وحرمانه من رحمة الكنيسة بوصفه خارجاً عن الدين، وكذلك عدم امتلاك أي شخص غير رجال الدين للكتب المقدسة وفي مقدمتها الإنجيل، حُرم أيضاً قراءة ترجمات الإنجيل, ووجوب استعمال الأناشيد المكتوبة باللغة اللاتينية، لذلك أحرق العديد من أتباع بطرس والدو – الذي هرب إلى بوهيميا حيث مات عام ١٢١٧– عقاباً لهم، كما اجتمع مجلس مدينة نربونة Narbonne وأكد ذات القرارات، غير أن رايموند السابع بقيَّ يقاوم ضد البابوية والتاج الفرنسي حتى استنفذ امكانياته العسكرية واضطر إلى إبرام معاهدة باريس مع البابوية والملكية الفرنسية سنة ١٢٢٩ والتي أقرت سيادة التسامح الديني ونصت على(١٣٥):

١–منح الملك لويس التاسع ووالدته بلانش القشتالية–الوصية على العرش– لرايموند السابع مقاطعات كونتيه، تولوز، لاجينيه، لي روريج(Le Rouergue)، كيرسي(Quercy) وشمال منطقة ألبجوا (Albigeois).

٢–حصلت البابوية على مقاطعة ماركيزية وبروفانس(Provence) في برغنديا.

٣–حصل التاج الفرنسي على المقاطعات بين الرون والبحر الأبيض المتوسط.

٤– زواج أبنة ووريثة رايموند السابع من الأمير الفرنسي شقيق لويس التسع، ليرث بهذا الزواج الكونتية كلها.

---

(١) C.W.Post, The hour and man Abiography with Genealogical supplement, Nettie Leitch cillustr a tor), Judd and Detweiler press, Washington,1963,P:213.

(٢) جلال يحيى, تاريخ أوربا في العصور الحديثة, الاسكندرية, الهيئة المصرية العامة, ١٩٨١, ص٣٢٤.

٥-تعهد رايموند السابع بمحاربة الألبجنسيين وتطهير البلاد منهم.

٦-لتنفيذ النقطة الآنفة الذكر، نشر الكونت رايموند السابع سنة ١٢٣٣ قرارات تدين الألبجنسيين وتسمح لمحاكم التفتيش الفرنسية بممارسة نشاطها في قلب أراضيه.

فأوكل مهمة التفتيش والمحاكمة والبحث عن الهراطقة ومعاقبتهم إلى رهبان الدومنيكان الذين أرهبوا بسطاء الناس فأرسلوا إلى المحرقة أعداداً لا تحصى بتهمة الهرطقة، ولم يسلم أحد من ذلك، فمجرد أن يقوم أحد الأشخاص بتحية واحد من الهراطقة كان ذلك مدعاة للشك فيه، كما لم يقم أحد بتعريف الشخص المتهم بالهرطقة باسم من ابلغ عنه حتى ولو كان احد خصومه لأنه سيعدم حتماً، وكان على ذلك المتهم أن يدافع عن نفسه وليس معه أى شاهد نفى، وأن يخمن ما هى التهم الموجهة إليه[١٣٦]، فإذا كان المتهم عنيداً فيتم تعذيبه بشكل قاس، أما الأطفال الذين لم يصلوا سن البلوغ أو الحلم، والمسنين من الرجال والنساء فكانوا يعذبون بطريقة أقل قسوة من الشباب الأقوياء, فقد خول الملك لويس التاسع روبرت لي بتي (Robert le Petit)[١٣٧] أحد أبرز أعضاء الدومينيكان، صلاحيات واسعة بصفته مفتش عام، فأرهب أصقاع فرنسا بين عامي(١٢٣٣-١٢٣٩)، فشنق ١٨٣ شخص دفعةً واحدة في بلدة شامونيChamonix[١٣٨].

وفي حقيقة الأمر، إن رايموند السابع كان يظهر خلاف ما يضمر بخصوص تطبيق بنود معاهدة باريس، لأنه في ذات الوقت سعى إلى التحالف مع ملك إنجلترا هنري الثالث ضد الملك لويس التاسع، غير إن الأخير انتصر على الإنجليز في موقعة سانتSaintes سنة١٢٤١، عندها سعى رايموند مضطراً للصلح من جديد مع التاج الفرنسي سنة ١٢٤٢، تعهد فيه بأن يساهم في قمع الهرطقة من بلاده بطريقة

---

(١) Elizabeth Aubrey, Op, Cit, P: 67.

(٢) كان في الأصل عضوا في جماعة الألبجنسيين ثم أنقلب عليهم, لهذا أطلق عليه المعاصرون كنية لي بوجر(Le Bou gre) أي البلغاري بمعنى المانوي أو الألبجنزي.

(٣) ادوار بروي، المصدر السابق، ص٤١٢.

سلمية[١٣٩]، وبعد وفاته أوكل أمر كونتية تولوز إلى الأمير الفرنسي دي بواتييه شقيق الملك الفرنسي الذي تزوج أبنة رايموند السابع وفق ما نصت عليه معاهدة باريس[١٤٠].

وخير ما يوضح الغرض من انشاء محاكم التفتيش الفرنسية واختصاصاتها، المرسوم الذي أصدره البابا نقولا الثالثNicola III (١٢٧٧- ١٢٨٠م) سنة ١٢٨٠م، فقد ورد فيه[١٤١]:

١-حرمان جميع الهراطقة من رحمة الكنيسة، من الكاثاريين وغيرهم.

٢-إذا أدانت الكنيسة أحدهم وجب تسليمه إلى قاضي الكنيسة لمعاقبته.

٣-إذا أظهر الملحد ندمه بعد القبض عليه واراد أن يكفر عن ذنبه، تخف عقوبته إلى السجن مدى الحياة.

٤-يحرم من رحمة الكنيسة أيضاً من يخفي أحد الهراطقة أو يقدم لهم المساعدة.

٥-يحرم من حماية القانون الوضعي من بقي محروماً لمدة عام أو يوم.

٦-لا يسمح بدفن الهراطقة دفنة مسيحية، وكل من يفعل ذلك يحرم من رحمة الكنيسة ويظل تحت الحرمان حتى يتوب، ولا يغفر ذنبه إلا إذا أخرج جثة المهرطق وألقاها في الهواء.

٧-حُرم على غير رجال الدين الكاثوليكي مناقشة امور العقيدة ومن يفعل ذلك يحرم من رحمة الكنيسة.

٨-أوجب المرسوم ضرورة الإبلاغ عن الهراطقة وأماكنهم واجتماعاتهم السرية، ومن يعرف ولا يبلغ يحرم من رحمة الكنيسة ويحرم أبناؤه أيضاً حتى الجيل الثاني من رحمة الكنيسة، ويحظر على هؤلاء الأبناء تولي المناصب الكنسية طيلة حياتهم.

---

[٤] أمر رايموند في عام وفاته ١٢٤٩ بإحراق ثمانين من اللأبجنزيين بتهمة الهرطقة عند بلدة آجين(Agen).

[١] س . ورن هستلر، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة : محمد فتحي الشاعر، القاهرة، ١٩٨٨، ١٧٢.

[٢] اسحاق عبيد, المصدر السابق, ص٢٢٣.

ففي الوقت الذى انتصر فيه النظام الملكى الفرنسي على السادة الاقطاعين في غرب أوربا، وأكد فيه سيطرته الفعلية، الاقتصادية والعسكرية على الأقاليم المجاورة، أفادت فرنسا، منذ السنوات الأولى من عهد الملك فيليب الرابع – الجميلPhilippe IV (١٢٨٥-١٣١٤)، من تقدمها العسكري على الممالك المسيحية الأخرى لترأس ملوكها أغلب الحملات الصليبية ضد المشرق الإسلامي، فاستند الملك إلى الهدوء الذي ساد من جانب اسبانيا، والسلم المؤقت مع انجلترا، فعمل مع مستشاريه على تنظيم وتدعيم السلطة الملكية ونظم سياسة فرنسا وتشريعاتها، ووضع أسس المملكة المستبدة، مستغلاً حالة الضعف والفوضى التي وصلت إليها الكنيسة فلم يعد العالم المسيحي يحترم البابوية كما كان من قبل، وتقلص نفوذها في إيطاليا نفسها، وأخذت الكنائس الوطنية تتحدث بحرية أكثر[١٤٢].

ضياع هيبة الكنيسة وبداية الصراع البابوي الملكي الفرنسي:

وصل التاج الفرنسي بالانتصارات العسكرية التي حققها في قيادة الحملات الصليبية إلى مرحلة تفوق مكانة الكنيسة وزعامتها، حتى اخذ الملك الفرنسي لا يرجع في قراراته التشريعية للبابا سعياً منه للاستقلال عن سيادة كنيسة روما الكاثوليكية، ولم يقتصر الأمر على البلاط الملكي الفرنسي فحسب، بل في سنة ١٢٨٣ رفض الفرنسيون الخضوع التام لكرسي البابوية في باريس، وطالبوا كنيسة روما بإعطاء الأساقفة سلطة عقد المجالس الكنسية وحلها، وبذلك ضعفت سلطة رجال الدين، وانغمسوا في المؤامرات ضد بعضهم البعض، وعندما أدرك العالم المسيحي بكل فئاته أن سياسة البابوية في فرنسا وصقلية، وفي ألمانيا، والمجر، تهدف إلى السيطرة على العالم والملوك الأمراء

---

[١] هنري بيرين، المصدر السابق، ص٩٢.

والحكام، حينها تحكم الملوك في الكنيسة في كل مكان وأمسكوا بزمام السلطتين الدينية والدنيوية، إذ تولوا مسؤولية التصدي لحماية هيبة الديانة المسيحية[١٤٣].

فأقدم الملك الفرنسي فيليب الرابع على إخضاع مملكة أراغون Aragon سنة ١٢٨٧ وتخليص البابا من تأثيرهم[١٤٤] وإجبارهم على دفع الضرائب للكنيسة والامتثال لأوامر البابا ونتيجة لهذا لانتصار، صمم الملك بعد نهاية هذه الحرب، على الاستمرار في جمع الضرائب التي فرضها البابا على رجال الدين الفرنسيين، وحصل من البابا سنة ١٢٨٨ على تصريح بالاستمرار فى جمعها لمدة ثلاث سنوات الأمر الذي دعم خزانة الملك، في الوقت الذي زادت فيه قوة كبار الاقطاعيين[١٤٥]، فقد ظلت الاقطاعية نشطة، وأكدت حقوقها في ممارسة القضاء، واحتجت على الانتهاكات التي مارسها الملك وضباطه في جباية الضرائب والرسوم المالية داخل مناطق نفوذهم الإقطاعية؛ كما أن رجال الدين حاولوا الاحتفاظ بامتيازتهم المستقلة، وبحقهم في جمع الضرائب، وتمكنوا في سنة ١٢٩٠من الحصول على ميثاق يؤكد هذه الامتيازات والحقوق، لكن البلاط الملكي عمل على إلغاء الوعود التي قطعت رسمياً بذلك، وجاءت الظروف والضرورات الاقتصادية لكي تؤكد نتائج التغييرات السياسية، ودفعت المملكة إلى أن تأخذ شيئا فشيئاً وضعاً أكثر وضوحاً في مواجهة التقاليد الاقطاعية التي كانت لا تزال قوية[١٤٦].

---

(٢) Denton, J, Taxation and the conflict between Philip the Fair and Boniface VIII. Oxford University Press, Oxford, 1997,P 169..

(١) كانت ضمن سياسة فيليب الرابع العسكرية في توسيع سلطته الإقليمية، بدأ عهده بتصفية ثورة أراغونا التي كانوا قد أوقعوا والده فيها، وساعده على ذلك ملك إنجلترا إدوارد الأول الذي كان قد حافظ على حياده في هذه الحرب، وبالتالي أصبح له دور الحكم، كما فرض البابا ضريبة العشور على رجال الدين الفرنسيين، وجعلها في صالح ملك فرنسا أثناء الحرب.

Don Louis Tosti, History Of Pope Boniface VIII, New York, 1911, P: 43.

(٢) جلال يحيى, المصدر السابق, ص٧٣.

(٣) C.W.Post,Op,Cit,P:219.

أمـا فيمـا يتعلـق بالبابويـة، فإنهـا كانـت قـد خرجـت منهمكـة القـوى بعـد حـرب صقلية[١٤٧]، فضلاً عن فقدانهم عكا سنة ١٢٩١ بها فقد المسيحيون موطئ قدم مهم في الأراضـي المقدسـة، دون أن تـتمكن البابويـة مـن الحيلولـة دون ذلـك، كمـا ظهـر ضـعف البابوية في الحصول على عرش المجر لمرشحيها أمام خصومهم، ولاجتياز تلك المرحلة, كان الأمر يحتاج إلى شخصية قوية لأحد البابوات، يمكنها أن تعيد النفوذ البابوي الى ما كان عليه، وتمثل ذلك بوصول شخص البابا بونيفانس الثامنBoniface VIII (١٢٩٤-١٣٠٣)، إلـى كرسـى البابويـة والـذي حـاول أن يسـتعيد سـلطة الكنيسـة الثيوقراطيـة علـى الملوك, فكان هذا سبباً أساسياً لوقوع صدام بينها، باعتبارها صاحبة الكرسي الرسولي، ووارثـة القـديس بـولس، وبـين ملـك فرنسـا, الأمـر الـذي أدى إلـى طـرح الخـلاف علنـاً والمواجهـة بـين الطـرفين[١٤٨]، فلـم يتـردد بونيفـانس فـي بـذل أقصـى جهـوده لتأكيـد تفـوق سلطة البابوية على أمراء العالم، إذ أعطى لنفسه حق التدخل ضد ملكي إنجلترا وفرنسا لوقف الصراع القائم بينها حول أراغون وفرض عليهما السلم على أساس إن الحرب بين

---

[٤] بعـد وفـاة فريـدريك، حكـم المملكـة هنـري السـابع مـن ألمانيـا وكـونراد الرابـع مـن ألمانيـا, وكـان الوريـث الشرعي كونراد الثاني الذي كان صغيرًا جدًا, تولى مانفريد من صقلية الابن غير الشرعي لفريدريك السلطة وحكم المملكة خمسة عشر عاماً بينما حكم ورثة هوهنشتاوفن الآخرون أقاليم مختلفة في ألمانيا، بعد حروب طويلة ضد الولايات البابوية نجحت المملكة في الدفاع عن ممتلكاتها، إلا أن البابوية أعلنت حرمان المملكة بسبب عدم ولاء الهوهنشتاوفن, انطلاقًا من تلك الذريعة جاء اتفاق البابا مع ملك فرنسا لويس التاسع, بأن يصبح شقيق لويس شارل أنجو ملكاً على صقلية مقابل اعتراف شارل بسيادة البابا في المملكة ودفع جزء من الديون البابوية ووافق على دفع جزية سنوية للدولة البابوية في صقلية, انتهى حكم هوهنشتاوفن في صقلية بعد الغزو الأنجوفي في سنة ١٢٦٦ ووفاة كونرادين آخر وريث ذكر لعرش هوهنشتاوفن في ١٢٦٨ وأدى الصراع بين هوهنشتاوفن والبابوية إلى احتلال شارل أنجو لصقلية, والذي اعترض على سلطة فرنسا الرسمية والضرائب إلـى جانـب التحـريض علـى التمـرد مـن قبـل تـاج أراغـون والإمبراطوريـة البيزنطيـة ممـا أدى إلـى إعـلان مملكـة صقلية الحرب ونجح قادة الملك بيدرو الثالث من أراغون في ١٢٨٢ وانتصر على البابوية. للتفاصيل ينظر:
Andrewpettegree,Reformationeutope1517-1559,SecondEdition,London,1932,P.14-18.

[١] هـ, و, ديفز, المصدر السابق, ص١٤٣.

المسيحيين أنفسهم خطيئة، الأمر الذي أدى إلى ردة فعل سلبية من جانب ملك فرنسا الذي كان قد حصل سنة ١٢٩٤ على مساعدة من رجال الدين الفرنسيين في حربه ضد إنجلترا تمثلت بدفع ضريبة العشور لمدة عامين[١٤٩].

وعندما حاول الملك فيليب الرابع سنة ١٢٩٦ أن يجدد فرض الرسوم، اشتكى بعض رجال الدين الفرنسيين هذا الامر للبابا، ولم يتأخر بونيفانس الثامن في استغلال هذه الفرصة لفرض سيادته على التاج الفرنسي، فتدخل بشكل قاطع وحرم عليهم دفع أية معونة للملك دون تصريح من الكرسى البابوي, واستهدف بهذا القرار ملكي فرنسا وانجلترا، فجاء رد فعل الدولتان عنيفاً جداً ففي إنجلترا رفض رجال الدين دفع الرسوم، أما في فرنسا فقام الملك بمنع تصدير الفضة والذهب وحرم البابوية من الموارد الطائلة الى كانت تصلها من رجال الدين الفرنسيين وهي بأمس الحاجة إليها[١٥٠].

في ذات الوقت ظهرت آراء من بعض النبلاء ورجال الدين المعتدلين تناقش علاقة البابا بالتاج الفرنسي وتهاجم الامتيازات الكنسية وتنتقد تفوق المجتمع العلماني على مجمتع رجال الدين، وتؤكد على أن الواجب الوطني يلزمهم مساعدة الملك عند تعرض المملكة للخطر, وأمام هذا الموقف اضطر بونيفانس إلى التراجع عن قراراته والاعتراف بحق الملك في أن يقوم وقت الضرورة، بفرض ضرائب على الكنيسة ورجال الدين دون إستئذان الكرسي البابوي، وفي ذات الوقت منح الملك لويس التاسع لقب القديس، استرضاءً للأسرة الحاكمة الفرنسية، ولعل ذلك يرجع إلى الخلاف الشديد القائم بينه وبين الكرادلة من بيت كولونا(Colonna)[١٥١].

---

(٢) 76.. Don Louis Tosti, Op, Cit, P

(١) Fisher,Sydney Nettieton, The Middie A History,London,1966, P: 96.

(٢) تمرد آل كولونا على سياسة بونيفاس المحابية لأقربائه وتورطه بالسيمونية, فتصدى له الكاردينالان بترو وجياسبو من آل كولونا واتهماه بالفساد والطغيان والتآمر على البابا الأسبق سلستين. للتفاصيل ينظر: جلال يحيى, المصدر السابق, ص٧٥.

هنا لجأ البابا إلى التقليد الذي ابتدعه البابا إينوسنت الثالث، فدعى سنة ١٢٩٨ إلى شنَّ حملة صليبية ضد بيت كولون، وبالفعل هجم الجيش البابوي الصليبي عليها حتى سويت كبرى قلاعها في بالسترينا(Palestrina) بالأرض وأصبح أبناؤها أذلاء بين يديَّ البابا المنتصر ثم أخذوا يجولون في مناطق فرنسا ويتكلمون بفساد البابا واضطهاده لهم, الأمر الذي انعكس سلباً على الدول الأوربية الأخرى وساهم في نشوب صراعات داخلية وحروب دينية بين ابناء المجتمع الواحد، ومن ذلك الصراع الذي نشب بين حزب السود وحزب البيض في مدينة فلورنسا، فكان السود اتباعاً للبابا في حين البيض كانوا انصاراً للإمبراطور الألماني المنافس للبابا، عندها انتهز البابا وصول حملة الأمير الفرنسي شارل دي فالوا سنة ١٣٠١ إلى شمال إيطاليا في طريقه لمحاربة صقلية، فطلب منه البابا محاربة البيض في فلورنسا وبالفعل هجم عليهم الأمير وأنقض السود على البيض ونهبوا أموالهم وأملاكهم وكان من بين ضحاياه الشاعر دانتي الذي أُرسل إلى المنفى سنة١٣٠٢[١٥٢].

تأزم العلاقات الملكية-البابوية ودورها في الصراعات المذهبية:

بعد أن تمكن البابا من القضاء على مناوئيه وتثبيت دعائم سلطته، أخذ يسعى إلى مد نفوذه على السلطة الزمنية وحكم الملوك، من المناسب هنا أن نذكر العامل المباشر الذي يقف وراء قوة ساعد البابا وتثبيت مركزه وتعزيز العقيدة المسيحية في نفوس الاتباع، هو استغلاله فرصة قدوم مائتى ألف حاج من جميع أنحاء أوربا الى روما سنة ١٣٠١، عندها شعر البابا وسط هذه الجموع بأنه يحكم العالم أجمع، فأعلن في السابع عشر من تشرين الأول من نفس العام بيانه التاريخي: "**ان الله قد رسم البابا فوق كل الملوك والممالك، لكي ينزع ويحطم ويعين ويغرس**" ذاكراً إن الله وضع البابا فوق كل الأمراء

---

(١) Fisher,Sydney Nettieton, Op, Cit, P: 98.

وعليهم جميعاً أن يطيعوا راعي المسيحية، وبدى واضحاً فى خطابه اتجاه سياسته في جعل الكنيسة مركزاً للعقيدة والدين، وأن يصبح قرار البابا أحد أسس العقيدة نفسها[١٥٣].

وفي جانب عدم رضاه على سياسية التاج الفرنسي، أعلن بأنه لم يغفر لحكومة فرنسا اعتداءها على حريات رجال الدين، وبذلك لاحت في الأفق بوادر القطيعة مع فرنسا, في الوقت الذي كان يتم فيه التحقيق مع أحد الاساقفة أمام الملك في باريس، بتهمة إهانة ملك فرنسا والتفاوض سراً مع إنجلترا، وعندما ثبتت خيانته، عهد به الملك إلى مسؤوله المباشر رئيس الاساقفة، ليقدمه إلى البابا للاطلاع على ملف التحقيق، الأمر الذي ثار غضب البابا، لا سيما وأن الأسقف كان من المقربين إليه، إذ عد البابا تصرف الملك هذا ومحاكمته الاسقف تدخل غير مرخوص في صلاحيات الكنيسة وتجاوز صريح على النظام الكنسي[١٥٤]، لذا سارع البابا إلى إلغاء كل الميزات التي منحها سابقاً لملك فرنسا وأرسل إليه مرسوماً مليئاً بالاتهامات ولكل ملوك الأسرة، ولم تقتصر احتجاجات البابا على نقض الامتيازات الممنوحة لرجال الدين، بل ابدى استياءه من الأخطاء التي ارتكبتها الحكومة الملكية من استغلال الرعايا، وتغيير قيمة العملة مما تسبب في انهيار اقتصاد الدولة، وأبلغ الملك أن مجلساً مسكونياً سينعقد في روما في العام التالي ويمكنه أن يحضر أو يرسل له مندوبين يمثلون المملكة الفرنسية، في ذات الوقت أرسل إلى رؤساء الكنيسة الفرنسية وكبار الأساقفة دعوة للاشتراك في هذا المجلس للتشاور مع البابا في كيفية المحافظة على صلاحيات الكنيسة واصلاح المملكة الفرنسية وتقييد صلاحيات الملك والحكومة الفرنسية[١٥٥].

لم ينتظر الملك الفرنسي انعقاد المجمع او صدور الحرمان الكنسي بحقه، بل بادر إلى دعوة أساتذة جامعة باريس وجمع ممثلي الطبقات الثلاث: النبلاء ورجال الدين

---

(٢) جلال يحيى, المصدر السابق, ص٧٧.

(١) Brian Tierney, The Crisis of Church and State 1050-1300, (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1964, P. 175.

(٢) Don Louis Tosti, Op, Cit, P: 69.

وأبناء العامة، في باريس يوم التاسع عشر من نيسان سنة ١٣٠٢، وابلغهم بقرار البابا بونيفانس بتقييد الملك وسحب جميع صلاحياته والغاء امتيازات رجال الدين الفرنسيين وخضوع التاج الفرنسي اقتصاديا وإداريا لسلطة كنيسة روما، بهذا الحوار استطاع ان يحظى بتأييد الشعب والدفاع عنه ضد البابا، بل ذهب بعضهم إلى أن موقف البابا كان يمثل نوعاً من الهرطقة، ودافع الحاضرون عن الملك في جو ساد فيه الحماس الوطني، بعد ذلك كتب زعماء المدن وكبار النبلاء ورجال الدين إلى البابا خطابات تميزت بالجرأة وطالبته بالتراجع عما قرره تجاه الملك[١٥٦]، ولم يلبث الأخير من استخدام سياسته الدبلوماسية، إذ منع رجال الدين من الاشتراك في مجلس روما المقرر انعقاده بزعامة البابا واحال الخلاف القائم بينه وبين البابا إلى التحكيم أمام دوق برجنديا، وكونت بريتانى، فأدت هذه الخصومة مع الحجج التي ذكرت إلى اضعاف مركز الكنيسة، لكن ذلك لم يؤثر على موقف البابا ولم يزيده إلا إصراراً، كما أخذ مؤيدون البابا ينددون بسلطة الحكومة الفرنسية وسياسة الملك وتجاوزه على سلطة البابا[١٥٧].

في حين ذهب البعض الآخر، إلى ضرورة عزل الملك فيليب، مؤكدين على خضوع العالم اجمع لسلطة البابا فهي ضماناً للسلام، وأن الكنسية ليس لها سوى رئيس واحد هو السيد المسيح وخلفه المرسل، وهناك صولجانين: الأول روحي للبابا، أما الزمني فيستخدمه الملوك وفقاً لرغبة البابا، لأن السلطة الروحية التي لايحكمها سوى الله هي التى تحكم السلطة الزمنية، رافضين فكرة استقلال السلطتين الزمنية والروحية أو انفصالها عن بعضها البعض، وهكذا تعدى بونيفانس الثامن كل الحدود التي لم يصل لها أي بابا آخر من قبل، بوضعه سيادة روما كأساس من أسس العقيدة[١٥٨].

---

(٣) جلال يحيى, المصدر السابق, ص٧٩.

(١) Brian Tierney, Op,Cit,P.177.

(٢) Elizabeth Aubrey,Op,Cit,P.142.

ومن جانب آخر، تسبب الصراع البابوي – الملكي الفرنسي في انشقاق المجتمع المسيحي وانقسامه إلى طوائف متعددة وكذلك زعزعة العقيدة في نفوسهم بإدخال بعض القوانين الوضعية والمراسيم الكنسية على الديانة وفقاً لتوجهات ومصالح كل منهما، ذلك أن فرنسا لم يكن فيها سوى اليهود والمسيحيين الكاثوليك المعتقدين بتعاليم كنيسة روما، ولكن بعد أن تضاءلت مكانة الكنيسة الروحية بابتعاد بعض البابوات في سلوكهم عن تطبيق التعاليم المسيحية الحقة من قبيل اضافة قوانين دينية تزيد من مكانتهم وسلطتهم على رقاب الناس وكذلك دخول البابوية في مجال التنافس السياسي والاقتصادي مع السلطة الزمنية وهذا ما حدث مع ملك فرنسا فيليب الرابع، كل ذلك أدى إلى توسع دائرة الطوائف (الكاثاريين والالبنجنسيين) المنشقة عن المسيحية الأم والمطالبة بتغيير سياسة الكنيسة تجاه الرعية والالتزام بما جاء به الكتاب المقدس.

لم تلبث الأمور أن تطورت وعجلت من الصدام بين التاج الفرنسي والبابا بونيفاس، عندما أراد فيليب الرابع التخلص من أسقف كنيسة ليون المدعو برنارد سيسيه Bernard Cisse، لأنه رفض الخضوع لجبروت الملك فيليب وإدارته لكنائس فرنسا دينيا وإدارياً، بل أراد الاستمرار بتبعيته لكنيسة روما، فكتب إلى البابا يستأذنه في خلعه وتجريده من رتبته الكهنوتية حتى ينفذ فيه حكم الإعدام، لكن بونيفاس رفض ذلك وعده رغبة شخصية لفيليب وقرر أن يقف بوجهه لذا أصدر مرسوماً بابوياً سنة ١٣٠١ بعنوان "**سلام العالم**" (Paix du monde)، ألغى بموجبه جميع الامتيازات التي كان قد منحها من قبل للتاج الفرنسي، وأتبعه بقرار آخر بعنوان "**طاعة الأبن**" (Obéissance au Fils) أبرز فيه أخطاء الملك فيليب في مملكته متهماً إياه بالتمرد على رأس الكنيسة العالمية ومحذراً له بأنه قد يضطر إلى وضعه في عداد "**المارقين**"، ثم وجه البابا دعوة إلى كبار رجال الدين في فرنسا للحضور إلى روما لتدبير شؤون فرنسا بعيداً عن سلطات الملك[١٥٩].

---

[١] هـ, و, ديفز, المصدر السابق, ص١٤٧.

ردَّ الملك فيليب الرابع على تلك الإجراءات بعقد مجلس سنة ١٣٠٢ في باريس ضم النبلاء والأساقفة ترأسه الملك بنفسه، وتحت تأثير مباشر من قبله، أعلن رجال الدين الفرنسيون استقلال الملك عن كل وصاية بابوية ونـدد المؤتمرون بأطماع بونيفانس وجشعه، مقابل ذلك عقد البابا في الثامن عشر من تشرين الثاني سنة ١٣٠٢ مجمعاً بابوياً بحضور أساقفة الجنوب الفرنسي، وأصدر قراراً بعنوان "**الواحدة الوحيدة المقدسة**"[١٦٠] (Le seul Saint)، أكد فيه على ما يأتي:

١- حق البابا في السيفين، سيف السلطان الروحي وسيف السلطة الزمنية.

٢- يعهد البابا بالسيف الزمني كأمانة تحت وصايته إلى أمراء الدنيا وهم الملوك.

٣- لا خلاص للملوك والأمراء إلا بهذه التبعية الروحية.

علق الفرنسيون على هذا القرار بقولهم: "**إن سيف صاحب الجلالة من الصلب، وأما سيف البابا فهو من الكلام فحسب**"[١٦١]، فقد أحدثت هذه الاتهامات انقسام الكرادلة إلى قسمين: إحداهما يناصر الملك الفرنسي والآخر متمسك بسياسة البابا بونيفانس الثامن، لذا اتجه الملك فيليب الرابع بسياسته نحو توحيد فرنسا تحت سلطته وتحقيق زعامته على غرب أوربا، فدخل في صراع ومنافسة شديدة مع إنجلترا من أجل السيطرة على الممتلكات الإنجليزية في فرنسا كمقاطعة جوين وغسكونيا واقليم الفلاندرز ومصايد الأسماك في بحر الشمال، ولم يقم بتحسين علاقته السيئة بالكنيسة والبابوية نتيجة سياسته تجاه رجال الدين الفرنسيين، أما من الناحية الإدارية والتشريعية[١٦٢]، فقد زادت

---

(٢) Southern, Western Society and The Church in the Middle Ages, Grand Rapids,Mich, Erdmans, 1970,P 81..

(١) ترجم هذا القول إلى الواقع عندما بعث فيليب حملة بقيادة وزيره وليم دي نوجارت(de Nogaret) إلى موطن البابا في آنجني(Anegni) واقتحموه بعد أن فتح لهم كبير الحراس البوابة ووجوده يستعد لإصدار قرار الحرمان ضد الملك فيليب واصطحبوه معهم إلى روما لكنه مات في الطريق سنة ١٣٠٣. للتفاصيل ينظر: جلال يحيى, المصدر السابق, ص٨١.

(٢) Felix Rocquain, Two Hostile Sovereigns at the Brink, In Philip the Fair and Boniface VIII: state v. papacy, ed. Charles T. Wood, (Huntington, NY: Robert E. Krieger Publishing Co., 1976, P. 42.

الأمور تعقيداً عندما قام بفصل الإقطاعيين من الهيئة القضائية الموجودة ضمن مجلس برلمان باريس واحل محلهم مجموعة من القانونيين الذين درسوا القانون الروماني واستوعبوا ما فيه من حب وإجلال للملكية، ليعيدوا قراءة الدستور الفرنسي بما يخدم توجهات الملك والتأكد على وجوب طاعته الدينية والسياسية، ولتعزيز هذه الاجراءات واضفاء السّمة الدينية الشرعية عليها, دعا فيليب الرابع مجلس الطبقات الفرنسي وطلب من النبلاء المجتمعون الاقرار باستقلال السلطة الزمنية للتاج الفرنسي عن السلطة البابوية في روما وخضوع كنيسة فرنسا للملك فيليب الرابع، بناءً على ذلك اتهمت الكنيسة الملك فيليب بالغطرسة والتفرد بالحكم دون الالتفات إلى قدسية الكنيسة ورمزية البابا[١٦٣].

حيال هذه الظروف توقع رجال الدين الكاثوليك في كنيسة روم، بأنه الاتهامات التي سبق ذكرها كفيلة بإنهاء دور الملك الفرنسي وإزالته عن العرش أو خضوعه لقوانين كنيسة روما وإطاعة البابوية على اقل تقدير، غير أن فيليب الرابع لم يترك لهم الفرصة لتحقيق ذلك، بل على العكس استفاد من هذا الموقف في تحقيق مآربه[١٦٤]، فقد عهد إلى أحد فقهاء القانون في جامعة تولوز بالدفاع عنه والذي أشار عليه بمهاجمة البابا نفسه على أساس أنه قد اغتصب البابوية، وارتكب الكثير من الجرائم ومهد بذلك للقول بأن السلطة البابوية الحقيقية أصبحت مهددة، وعلى ملك فرنسا أن يدافع عن مصالح الكنيسة والمسيحيين[١٦٥]، وذلك عن طريق عقد مجمع ديني من اجل إعادة السلام إلى العالم المسيحي، راقت هذه الخطة لملك فرنسا ووافق عليها، ولتنفيذ ذلك دعا في الثاني عشر من آذار سنة ١٣٠٣، كبار رجال الدين والبارونات في عموم فرنسا والأساقفة وكبار النبلاء للاجتماع في قصر اوفر برئاسته، وعرض عليهم سوء تصرفات البابا وابتعاده عن تعاليم السيد المسيح واستغلاله لمكانته الدينية في تحقيق مكاسب شخصية وبالتالي فهو

---

(١٦٣) T.S.R. Boase, Boniface VIII, London, Constable, 1933,P:73.

(٢) Felix Rocquain, Op,Cit,P.44.

(٣) Brian Tierney,Op,Cit,P.179.

غير مؤهل لأشغال الكرسي البابوي، فقرر المجتمعون المطالبة بنقل البابا إلى أحد السجون الملكية ومحاكمته أمام ممثلي الكنيسة العالمية، الأمر الذي يتطلب الدعوة لعقد مجمع مسكوني عالمي[١٦٦].

مقابل ذلك، حاول البابا بونيفانس أن يجمع حوله عدداً من الأصدقاء والمؤديين وأصرَّ فيليب من جانبه على عقد المجلس الديني مرة أخرى وذهب المندوبون إلى البلاد المسيحية لجمع موافقة القساوسة وكبار رجال الدين على ذلك، كما نجح فيليب في إثارة ثورة مصغرة في إيطاليا ضد البابا قام بها بعض النبلاء الذين اشترى فيليب تأييدهم بالمال، وفي السابع من أيلول سنة ١٣٠٣ هاجم بعض الرجال المسلحين هؤلاء النبلاء، القصر البابوي ونهبوه ووصلوا للبابا نفسه وأهانوه وأعلن قادتهم له أنهم سيقدمونه أمام المجلس الديني لمزمع عقده بزعامة الملك فيليب[١٦٧]، وبالفعل قبضوا عليه ووضعوه تحت الحراسة المشددة، ولما كان من الصعب نقل البابا عبر إيطاليا والذهاب به إلى ليون، أثر ذلك بشكل مباشر على صحة البابا الكبير في السن وأدى إلى وفاته[١٦٨] في الحادي عشر من تشرين الأول سنة ١٣٠٣.

وبطبيعة الحال أن تثير هذه الإجراءات المتهورة الامتعاض وعدم الرضى في نفوس العالم المسيحي لعدم احترام حامي الكاثوليكية(الملك فيليب) لكل القيم الأخلاقية والدينية المألوفة في تلك الحقبة، فهو حدث هام في تاريخ الكنيسة أدى إلى قلة ثقة الناس فيها وساعد على هزيمتها أمام السلطة الزمنية، تطلب ذلك من الملك فيليب الرابع اتباع سياسة أكثر حزماً من سابقيه على المستوى الداخلي والخارجي، في حين التجأت الكنيسة إلى أسلحتها الروحية المعروفة، كل هذه الظروف وغيرها من العوامل قد ساهمت في استمرار الصراع الديني السياسي والانقسامات العقدّية والتي عادةً ما تكون نتيجتها

---

[٤] س. ورن هستلر، المصدر السابق، ص٢١٠.

[١] Sophia Menache, Clement V, Cambridge University Press, Cambridge United Kingdom, 1998,P:249.

[٢] س. ورن هستلر, المصدر السابق, ص٢١٣.

الحتمية هي الصراعات التي تؤدي إلى الانقسامات الكنسية والحروب المذهبية بين ابناء الدين الواحد، والتي سنتحدث عن تطبيقها في الفصل الثاني من الأطروحة.

الفصل الثاني

الصراع البابوي- الفرنسي وأزمة الأسر البابلي(١٣٠٩-١٤١٧)

المبحث الأول

فشل الدبلوماسية البابوية ودورها في الانقسامات الكنسية(١٣٠٩-١٣٣٧)

المبحث الثاني

تأزم العلاقات الفرنسية- الإنجليزية وأثرها على البابوية في أفينيون(١٣٣٧-١٣٧٧)

المبحث الثالث

موقف الدول الاوربية من كنيسة أفينيون ونهاية الأسر البابلي (١٣٧٨-١٤١٧)

المبحث الأول

تتويج الجهود الفرنسية بنقل مركز المسيحية إلى أفينيون.

تحدثنا في الفصل الأول عن بدايات تأسيس الكنيسة الكاثوليكية ومراحل تطورها الديني وتم تسليط الضوء على الظروف التي فرضت عليها الدخول في فلك السياسية الإمبراطورية والملكية والتي ادت في الكثير من الاحيان إلى المواجهات الغير سلمية وخسارة الاطراف بعضها لبعض والذي ينعكس بالتالي سلباً على مكانة هذه الجهات في المجتمع، لا سيما الكنيسة ورمزيتها العالمية كونها تمثل العقيدة الدينية للمسيحيين، بل تسببت في حدوث حروب أهلية في بعض مناطق اوربا الغربية لا سيما فرنسا، إذ وقفت وراء هذا الانحدار اسباباً عديدة كانت الكنيسة ورجال الدين العامل المباشر فيها من حيث يقصدون أو لا يقصدون الوصول إلى هذا المستوى المتدني من المكانة في نفوس العالم المسيحي، كما مثَّل طمع الملوك والأباطرة في الزعامتين الدينية والزمنية والنزاع المستمر بينهما من أجل ذلك، سبباً آخر، إذ أدعى ملوك فرنسا على مر التاريخ بأحقيتهم في حماية الديانة المسيحية الكاثوليكية ولهم الحق الإلهي في إدارة كنيستها الرمزية انطلاقا من أرثهم لسلالة المملكة الكارلونجية والميروفنجية التي ساندت الكنيسة وقدمت لها الدعم الكامل في سبيل تثبيت سلطاتها وحماية حملاتها التبشيرية، مقابل ذلك حصول ملوك الأسر الآنفة الذكر على حماية البابوية للحملات التوسعية التي يقوم بها هؤلاء الملوك ومساندتها لهم داخل وخارج حدود مملكتهم، وغيرها من المبررات التي اتاحت لهم فرصة السيطرة على الممتلكات البابوية وخضوع رجال الكنيسة، الأمر الذي كان مدعاة لاستمرار التنافس والانقسامات الدينية والصراعات الطائفية بين حماة المذهب الواحد، وهذا ما سنحاول معالجته في هذا الفصل.

دور الملك فيليب الرابع في تصعيد الانقسام الديني:

نستطيع ان نفسّر من خلال المقدمة الآنفة الذكر، التدخل المباشر والمستمر لملوك فرنسا في شؤون الكنيسة ووصلت في عهد بعض الملوك إلى تعيين رجال والاكليروس وصرف مرتباتهم من المملكة الفرنسية حيث توقف ذلك على قوة شخصية البابا وضعفها، وعلى كل حال استمرت ابصار ملوك فرنسا ترنوا للحصول على الكرسي الرسولي او مسك زمام امور الكنيسة، ومن اجل تحقيق ذلك اخذوا يسعون لاستغلال الظروف التي تمر بها الكنيسة من انحطاط سمعتها الدينية وعدم ثقة العالم المسيحي بما تقوله وتفعله او تطالب به من فروض الطاعة والولاء وغير ذلك من الامور التي اعتادت عليها في التعامل مع رعاياها(١٦٩)، وهذا ما مرَّ بنا في الصراع الذي دار بين الملك الفرنسي فيليب والبابا بونيفانس الثامن وكيف كانت ردة فعل النبلاء ورجال الدين حيال ذلك الموقف والذي استمرت تبعاته مع خليفة بونيفانس، البابا كليمنت الخامس الذي سيفشل في اعادة المكانة العالمية لكنيسة روما، بل على العكس سينتقل بمركز البابوية إلى مدينة افينيون الفرنسية لأنه لم يتمكن من الصمود امام ميوله الشخصية كفرد فرنسي وكذلك امام ضغوطات الملك الفرنسي ومجلس الكرادلة الذي يتكون من الاغلبية الفرنسية، وهذا ما عُرف "**بالأسر البابلي**" الذي يستمر اكثر من سبعون عاماً مليئة بالأحداث، من انقسامات دينية وصراعات مذهبية، وبالتالي فإنها انعكست سلباً على مكانة روما لكنها بالمقابل كانت ايجابية بالنسبة لملك فرنسا(١٧٠).

وهنا لابدَّ من القول، أن هذه الأحداث قد شكلت نقطة تحول مهمة في الصراع والتنافس المستمر بين السلطة البابوية وملوك فرنسا والإمبراطورية من جهة، ومن جانب

---

(١) Davis ,Op,Cit, p. 109 ; Eleanor shipley Ducket , The Gateway to the Middle Ages , New York , The Mac Millan Co., 1938 , P. 216.

(٢) عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى الاوربية، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٦٧، ص٧٩.

آخر التنافس السياسي والتوسعي بين الأباطرة والملوك على الممتلكات الأوربية، لا سيما في إيطاليا، إذ كانت فرنسا في تسابق مستمر مع إنجلترا للسيطرة والتوسع إحداهما على حساب الأخرى والتحكم بمصير العالم المسيحي والفوز بزعامته، لذا استدعى تطور الاحداث الدينية السياسية، أن تكون المواجهة مباشرة بين التاج الفرنسي وبابا الكنيسة الغربية، وبالتأكيد لم يكن فيليب الرابع بعيدا عن هذا الاتجاه, فقد سعى بكل الوسائل للتدخل في اختيار البابا الجديد وان يكون آذاناً صاغية لمطالب فرنسا(١٧١).

أما موقف الكرادلة الإيطاليين من تطلعات الملك الفرنسي، فقد سعوا من جانبهم إلى تحجيم دور فرنسا في كنيسة روما وابعاد نفوذها عن الكرسي البابوي، فسارعوا إلى اختيار أحدهم ليشغل منصب البابوية وهو الراهب الايطالي نيقولا بوكاسيني Nicola Boccasiniمن طائفة الدومنيكان معلنين حبريته باسم بندكت الحادي عشر Benedict XI (١٣٠٣-١٣٠٤)، والذي أظهر رغبته في مصالحة فرنسا(١٧٢)، وعندما وجد البابا الجديد إن المشكلة لا زالت قائمة بين بونيفانس وفيليب الرابع، سعى جاهداً في انهاء الخلاف وتحقيق مطالب التاج الفرنسي لإزالة التهم الموجهة من قبل الاخير بحق البابا السابق لأنه بالتالي تنعكس على سمعة المؤسسة الدينية الكاثوليكية، لا سيما وان الملك فيليب قد جدد تلك التهم وشكل لجنة رباعية برئاسة مستشاره دي نوجاريه De Nogarde وعضوية اثنين كبار رجال الدين الفرنسيين، في ظل هذه الضغوطات لم يرى البابا بندكت بداً من إصدار مرسوم كنسي في التاسع من آذار سنة ١٣٠٣ ألغى فيه كل ما كان البابا السابق قد أصدره ضد الملك فيليب الرابع، بل جعل حق فرض ضريبة العشر للملك الفرنسي حصراً، كما حفظ له حق تعيين رجال الدين لمدة ثلاثة سنوات في وظائف الكنسية التي تكون شاغرة(١٧٣).

---

(١) Jeremiah O' sullivan , Op, Cit, P.170.

(٢) R.H. C. Davis,Op,Cit,P.217.

(٣) Sir Samuel Dill, Op,Cit,P.75.

وبهذا عُدت هذه الاجراءات تنازل كبير من قبل السلطة الدينية لسلطة الملك، لكن في واقع الأمر كان البابا بندكت يفكر في الانتقام من الملك فيليب واخضاعه لسلطة الكنيسة بعد ان يجمع حوله نبلاء روما وكرادلتها والتخلص من تبعات الازمة الدينية السياسية التي سببها صراع فيليب وبونيفانس, ولكنه سرعان ما توفي في السابع من تموز سنة ١٣٠٤ وترك مشكلة الكرسي البابوي قائمة لمدة من الزمن، إذ تميزت هذه الفترة بحدة المشاعر الدينية وانقسام الكرادلة على بعضهم لأكثر من عام بين مؤيدين لذكرى بونيفانس الثامن ومؤيدين لملك فرنسا، لكنهم كانوا أداة طيعة في أيدي الدبلوماسية الفرنسية التي نجحت في إيصال رئيس أساقفة بوردو في حزيران سنة ١٣٠٥ الى الكرسي البابوي باسم كلمنت الخامس(١٣٠٥-١٣١٤)Clément V والتابع لكل من ملك إنجلترا وفرنسا، الأمر الذي يُعدّ انتصاراً للدبلوماسية الفرنسية، لأن البابا الجديد فرنسياً لحماً ودماً، بالإضافة إلى ذلك، تم تنصيبه في مدينة ليون الفرنسية[١٧٤].

سياسة فرنسا تجاه كنيسة روما:

بعد أن سيطر الملك فيليب بشكل تام على الوضع الداخلي وضمن جانب البابوية بانتخاب صنيعته كليمنت الخامس، لم تبقى أمامه سوى مشكلة الخزينة التي وصلت إلى حد العجز المالي وتصفية مشاكله الخارجية مع إنجلترا، إذ أفرغت الصراعات والحروب ضد إنكلترا والفلاندرز خزينة فرنسا، فاضطر الملك فيليب إلى اصدار عملة نقدية جديدة منخفضة القّيمة عن سابقتها، ثم عمد إلى مصادرة أموال اليهود ثم نفيهم خارج فرنسا ومصادر أموال الصيارفة اللومبارديين وكذلك نفهم من فرنسا، وفرض ضرائب باهظة على عموم الشعب الفرنسي, غير إنها لم تسد نفقاته المتزايدة وكانت خزينته في عجز دائم واستهلاك مستمر، فتوجه بعد ذلك نحو فرسان الهيكل (الهيكليين) جماعة

---

(١) Tout Thomas Frederick, The History of England From the Accession of Henry III to the Death of Edward III 1216 – 1377, London, 2005, P.10٦.

الداوية[١٧٥] الذين كانوا يشكلون دولة شبه مستقلة داخل المملكة الفرنسية وعقبّة أمام السلطة الملكية المطلقة[١٧٦]، نتيجة المركز الاقتصادي الكبير والطاعة المطلقة لتعاليم للسيد المسيح والسمعة العالية التي يتحلون بها، بهذه الاثناء لاح لهم رغبة الملك في التقرب اكثر منهم ومحاولة السيطرة عليهم واخضاعهم لرهن اشارته، إذ تبين لهم ذلك عندما طلب فيليب الرابع الانضمام الرسمي إلى الهيئة الخاصة بهم وان تكون برئاسته لكنهم رفضوا ذلك، لانهم يعلمون بنوايا الملك الغير سليمة[١٧٧]، وانما لحاجته الماسة لقوة عسكرية مالية اكبر، لأنه يدرك تماما، في حال انضمامه الى الهيئة سيتمكن بذلك من الحصول الى مصدر منتظم من المال غير محدود، فضلا عن هيمنته على اراضي جميع اجزاء اوربا الغربية وما وراءها، مما يضيف ملكاً جديداً لآل كابيه، بالإضافة إلى ان جميع موارد الكنيسة يجب تثبيت نسبة منها للكنيسة حسب حاجتها، وان يعود الفائض الى الملك المحارب لمساعدته في اعادة الاراضي المقدسة، والأهم من ذلك وان يكون صوت الملك المحارب بأربعة اصوات في الانتخابات البابوية القادمة، ونتيجة لخيبة أمل

---

(١) وهي من الهيئات العسكرية الرهبانية, تأسست سنة ١١١٩, التي أدت دوراً كبيراً خلال الحروب الصليبية، وفقدت هذه الهيئة اهميتها العسكرية بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ بيد المسلمين فاضطروا للعودة إلى فرنسا، واهتم افرادها بالنشاطات الاقتصادية والمصرفية وجمع المال, فتكونت لديهم ثروة طائلة, وبعد عوتهم إلى فرنسا اصبحت علاقتهم وثيقة بالملك فيليب, إذ جعل مقرهم الحصين في باريس التي اتخذت مستودعا لموارد الملك المالية قبل أن يأسس الخزانة الملكية في اللوفر, وكان له سلطة على أموالهم, فكانوا يقرضونهم الاموال بالفائدة, فضلاً عن تأييدهم له في صراعه مع البابا بونيفانس الثامن, حتى أصبحوا بمثابة الجيش الخاص للملك واليد الضاربة له, ومن جانبه ثبت لهم في سنة ١٣٠٤ جميع الحقوق المدنية, مع الوعد القاطع بان القضاء الملكي الفرنسي لم يحتجز ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة. موريس بيشوب, المصدر السابق, ص٢١٥.

(٢) Margaret Deanesly , A History of Early Medieval Europe , London , Mattuen & CO. LTD , 1960 , P 65.

(٣) Jean Riviere, Bonifaces Theological Conservatism, In Philip the Fair and Boniface VIII: state v. papacy, ed. By C.T. Wood, (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1967), P.61.

الملك في الحصول على كل هذه الامتيازات بسبب رفضهم قبوله في الهيئة، لم يكن أمامه إلا القضاء عليهم ومصادرة ممتلكاتهم[١٧٨].

بعدما أدرك الملك الفرنسي حساسية الموقف وصعوبة القضاء عليهم بسلطته الزمنية دون مبرر شرعي يسمح لهم بتصفيتهم، بالرغم من تكوينهم جيش خاص يتألف من ألفان فارس غير خاضعين للسلطة الملكية، فوجد الملك ضرورة اللجوء إلى البابا لضمان نجاح هذه المهمة، واضفاء الشرعية على التهم التي ستوجه إلى هيئة الفرسان، إذ كلف وزيره نوجارديه بتلفيق الاتهامات ضدهم كي يستصدر قرار من البابا للقضاء عليهم تماما ومصادرة أموالهم وأملاكهم الذي هو بحاجة ماسة إليها[١٧٩]، فأتخذ من مشروع أعادة الحروب الصليبية ذريعة للتباحث مع البابا، ولما كانت هذه القضية تتطلب التحدث مع الهيئات العسكرية ومنها هيئة الداوية، استدعى البابا في حزيران سنة ١٣٠٦ قائد هيئة الداوية جاك دي مولي Jacq de Molly لعقد مؤتمر في بواتييه لمناقشة مسألة استئناف الحروب الصليبية[١٨٠].

تزامن ذلك دعوة الملك فيليب الرابع مجلس الطبقات الفرنسي لعقد جلسة طارئة، حينها وضع جميع الاتهامات الموجهة ضد فرسان الهيكل امام أعضاء المجلس لنيل تأييدهم في حملته ضد الهيئة مع تظاهره بالاستمرار في بحث مشروع الحملة الصليبية مع البابا كليمنت القائد ودي مولي الذي استقبله فيليب الرابع بكل حفاوة واهتمام، في ذات الوقت لم تتوقف محاولاته في احكام سيطرته عليهم، من هذه المحاولات سعيه في تعيين أحد ابناءه مديراً عليهم لكنهم رفضوا ذلك[١٨١]، لذا قرر بعد استشارات مستفيضة بينه وبين مستشاريه اتهام الهيكليين بالهرطقة والحصول على اعترافاتهم بذلك بواسطة وسائل محاكم التفتيش، حتى يتمكن حسب قانون ديوان التحقيق اللاهوتي مصادرة أموالهم

---

(١) 108.. Bartlet,J. Vernon and Carlyle,Op,Cit,P

(٢) اسحاق عبيد, المصدر السابق ص٣٩.

(٣) R.W. Southern, Op,Cit,P:198.

(٤) Jean Riviere,Op,Cit,P.67.

والقضاء عليهم، وكلف لتنفيذ هذه المؤامرة وزيره نوجارديه وكبير مفتشي محكمة التفتيش الفرنسية فرانتسي إيمبرت Frantsey Imbert بجمع المعلومات التي تدين جماعة هيئة الداوية، وسرعان ما حصل الاثنان على المصادر التي تسيء الى سمعة هؤلاء وتدينهم بالهرطقة[١٨٢] لقد أكد أعدائهم، أنه عند الانتساب إلى الأخوة، يتم ممارسة أنواع مختلفة من الفواحش، لذلك لم يجد رجال محكمة التفتيش صعوبة كبيرة في العثور على شهود يدينون الهيكلية بجميع هذه التهم التي وجهت إليهم وأن يقسموا الأيمان على صحتها والتي كانت الأساس الذي بالاستناد إليه تم اتهامهم ومحاكمتهم وهي كالتالي[١٨٣]:

١-عند الانتساب إلى الأخوية كان المريد الجديد يؤخذ خلف المذبح ويفرض عليه ان يتبرأ ثلاث مرات من المخلّص وان يبصق على الصليب.

٢-كان المرشد يعري المنتسب الجديد من ثيابه ويقبله ثلاث مرات في مؤخرته وسرَّته وفمه حسب بعض الإفادات وفي الفتحات الثمان في جسم المريد في إفادات أخرى.

٣-أفاد بعض المريدين أنهم كانوا يتعرضون للواط بهم مرات عديدة.

٤-السلسلة التي كان يحملها الهيكليون آناء الليل وأطراف النهار فوق قمصانهم كرمز للعفة، تبين انها كانت تلّف حول وثن له شكل رأس رجل ذو لحية طويلة كان يعبده رؤساء الهيكليين.

٥-فقدوا إيمانهم بالدين المسيحي لطول اختلاطهم بالمسلمين وهم ما زالوا يحالفون المسلمين سراً.

وهنا واضح جدا أن يضطر الملك إلى الحصول على موافقة البابا لجعل هذه العملية قانونية على اعتبار أن فرسان المعبد تابعين للبابا مباشرة، واستطاع فيليب تخطي هذه العقبة دون صعوبة، إذ سلط على رأس البابا كليمنت سيف التهديد بأن يكشف للعالم

---

(١) J.M. Maclnnis, The Historical Order of the Books of the Old Testament, London Press,1965,P: 71.

(٢) جان بيرنجيه وآخرون, أوربا من بداية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر, ترجمة: وجيه البعيني, مراجعة: انطوان الهاشم, بيروت, منشورات عويدات, ١٩٩٥, ص٣٩.

سلوك بونيفاس الثامن ومعتقداته الدينية والذي ينعكس سلباً على علاقة الكنيسة برعاياها، كما إنه من الوارد جداً ان يخسر كليمنت مساندة فرسان المعبد بعد أن يفقدوا الثقة بالمؤسسة البابوية[١٨٤]، فأصبح موقف البابا حرج للغاية ولم يرى بداً من الموافقة للملك في الثالث عشر من أيلول سنة ١٣٠٧ في إلقاء القبض على فرسان الهيكل الذين يعيشون في فرنسا ومصادرة اموالهم العينية وغير العينية، إذ تضمن مطلع قراره ما يلي: **"أحداث مؤسفة، تستحق الاحتقار والازدراء والاستنكار حتى ان التفكير فيها مريع ويستدعي الفزع وظاهرة خسيسة، تتطلب الإدانة التامة لما فيها من شناعة ودناءة مرعبة غير إنسانية وأسوء ما يرتكب ضد الإنسانية، تمكنا من وضع أيدينا عليه بفضل شهادات المؤمنين الصادقين، التي أثارت دهشتنا العميقة وجعلتنا نرتجف من الرعب المريع"**[١٨٥].

وفق ما جاء به قرار الملك فيليب، تم توقيف فرسان الهيكل جميعهم في فرنسا بأوامر محكمة التفتيش وفي مقدمتهم الأستاذ الأكبر جاك دي موليه Jacques de Mollet (١٢٤٤-١٣١٤) ونائبه هوغر دوبيرو Hoger Dubero، ووجه الملك بأن يودع الموقوفون في زنزانات انفرادية مع استخدام أساليب شديدة ضدهم وأن يتم التحقيق معهم من قبل رجال محكمة التفتيش، في ذات الوقت كان على الملك بذل جهود كبيرة لإقناع الرأي العام المسيحي بصحة الاتهامات الموجهة إليهم[١٨٦]، لذا دعت المحكمة بتوجيه من الملك، عمداء جامعة باريس للاجتماع في كنيسة نوتردام Notre Dame في باريس بالإضافة إلى أعضاء مجلس الكنائس والأديرة الفرنسية، وقدمت المحكمة الاتهامات التي وجهت إلى أخوية فرسان الهيكل، بالإضافة إلى ذلك، بدأ الخطباء الدومينيكان ورجال الملك في الخامس عشر من أيلول سنة ١٣٠٧ بإلقاء الخطب على

---

(١) Anne Curry, The Hundred Year's War 1337 – 1453, Oxford, 2002, P.20.

(١٨٥) جلال يحيى, المصدر السابق, ص٨٠.

(٣) J.M. Maclnnis,Op,Cit,P.252.

أهالي باريس التي توضح لهم المؤامرة الكبيرة التي كان يدبرها هؤلاء الهراطقة ضد الكنيسة الكاثوليكية وضد الإيمان والعقيدة المسيحية بأكملها[١٨٧].

في نفس الوقت أرسل الملك فيليب رسائل إلى ملوك العالم المسيحي بينَّ فيها هرطقتهم وطالبهم باتخاذ تدابير مماثلة لفرسان المعبد في أراضيهم، كما عمل وزير الملك نوجارديه على تحريض شعراء التروبادور ضد الهيكليين في التحدث عن جرائمهم في الاشعار والأغاني، كما طلب من القاص الشهير فرانسوا دو ريو François de Río تأليف رواية طويلة لهذه الغاية[١٨٨]، من جانبه وافق البابا كليمنت الخامس على أعمال محاكم التفتيش الفرنسية وطالب المحكمة بتسليم بعض الأموال المصادرة بإشراف الأسقف كودينالين Codenalin وتحويلها خزينة الكنيسة، وبما أن املك ضمن تحقيق جميع طموحاته، فمن جانبه لم يعترض على مطالب البابا، بل أعطاه ضمان بمشاركته في توزيع ثروة هيئة الفرسان الطائلة، وبدوره لم يتأخر في اصدار مرسوماً بابوياً دافع فيه عن الأعمال التي قام بها الملك فيليب ضد فرسان المعبد وذلك في الثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٣٠٧ وبذات المرسوم أكد صحة الاتهامات الموجهة إليهم، كما بين أن رؤساء الأخوية قد اعترفوا بجرائمهم بصورة كاملة، وختم البابا مرسومه بدعوة ملوك أوربا لاقتفاء أثر الملك الفرنسي والبدء بملاحقة هيئة الفرسان في ممالكهم محذراً إياهم من شدة خطر وجودهم على الجانب الديني والسياسي لدول أوربا الكاثوليكية[١٨٩].

دور الملك فيليب في استمرار الصراع البابوي الملكي:

لاحظنا في الصفحات السابقة الحنكة السياسية والدبلوماسية العالية التي تحلى بها الملك فيليب الرابع والتي اثبتت وجودها من خلال النجاح الكبير الذي حققه على الصعيد الديني السياسي في داخل وخارج فرنسا، ولأن التاج الفرنسي تمادى في اخضاع

---

(١) Anne Curry,Op,Cit,P.108.

(٢) Willlam Henry Brown, The bi Babylonian Oaptiyity, London: Haerison and sons, 24..st. maetins lane,1874, P

(١٨٩) ادوار بروي، المصدر السابق، ص٤٥٨.

الكرسي الرسولي وبالغه في مطالبه المالية, فكان طبيعياً ألا يدوم ذلك الوئام الذي ساد المصالح البابوية– الفرنسية، بسبب مبالغة الملك فيليب في استخدام ابشع الاساليب بحق فرسان الداوية والتي تفاجئ بها البابا والانكى من ذلك هو استمراره بنفس الوتيرة القاسية تجاه رجال الكنيسة(فرسان المعبد)[١٩٠]، ومن جانب آخر لم يلتزم الملك الفرنسي بوعوده التي اشترطها لمساندته في اضطهاد فرسان الداوية، فلم يسلمه الأموال المخصصة له من مصادرات هؤلاء(الهراطقة) وجعل حق ملاحقتهم محصوراً به شخصياً بناءً على ذلك تراجع البابا بعد عدة شهور عن بعض ما جاء في مرسومه عندما منع محكمة التفتيش الفرنسية والأساقفة من متابعة محاكمة فرسان الهيكل في فرنسا، بل طالب بأن تكون محاكمتهم من حق الكنيسة والبابا حصراً، حتى يمنع بقية الملوك من التصرف بطريقة ملك فرنسا، وأمر محاكم التفتيش اللاهوتية التابعة للكنيسة بالتحقيق مع فرسان المعبد من جديد لأثبات صحة ممارسة التعذيب ضدهم من قبل جنود الملك من عدمها، الأمر الذي أثار غضب الملك الفرنسي وجعله يتهم رأس الكنيسة الكاثوليكي بالتغاضي عن الهرطقة والتسامح مع الهراطقة وهو اتهام مبطن للبابا بالهرطقة وعدم الالتزام بتعاليم السيد المسيح[١٩١].

وكثيراً ما نجد إن اختلاف وجهات النظر يؤثر بشكل مباشر على المصالح المشتركة وبالتالي يؤدي إلى خلاف كبير، تختلف تبعاته من منطق لآخر، وهذا ما حصل عندما اختلف البابا مع فيليب الرابع الذي استمر في إثارة الشائعات التي تحط من مكانة الكنيسة والبابا في نفوس اتباعه المسيحيين، مما اثار بعض رجال الكنيسة المتذمرين والاقطاعيين المناوئين للملك، فضغطوا على البابا في سبيل سحب زمام

---

(١) Mark Lowry, Boniface VIII and Philip IV: Conflict Between Church and State, Senior Seminar (HST 499W), History Department Western Oregon University, June 115..6, 2008,P

[١٩١]جان بيرنجيه وآخرون, المصدر السابق, ص٤٢.

الأمور من فيليب الرابع واثبات تجاوزاته الدينية بحق فئة مهمة من رجال الكنيسة[١٩٢]، لم يكن أمام البابا إلا ان يمتثل لآراء هؤلاء ووجه بتشكيل البابا لجُنة لكبار الأساقفة في كنيسة ناربون في الثاني عشر من آب سنة ١٣٠٩ سمح لها الاستماع الى تظلمات فرسان المعبد والدفاع عن التهم الموجهة لهم، فتراجع الكثيرون منهم عن اعترافاته السابقة، على اعتبار إنهم أدلوا بها نتيجة ما تعرضوا له من تعذيب مريع[١٩٣].

غير ان الملك الفرنسي لم يعر أية اهتمام لهذه اللجنة واعتمد على نتائج محاكم التفتيش وقراراتها الخاصة بالملكية الفرنسية، وبناءً عليها أحال الملك الأستاذ الأكبر لجماعة الأخوية، دي موليه وأربعة من كبار معاونيه للمثول أمام المجلس الأعلى للكنيسة الفرنسية الخاضع لسلطته، والذي سرعان ما اتهمهم بالهرطقة وأكد موليه ورفاقه صحة ما نُسب إليهم من هرطقة، واعترف بأنه يجحد المسيح وبصق على الصليب، حتى أن أحدهم وهو أيمري دو يلمر صرخ قائلاً: "**بما أنه كان يجب عليَّ أن أسلم الروح على المحرقة، فلم أتماسك ورضخت لخوفي من الموت، لقد اعترفت أمامكم تحت القسم وسأعترف أمام أي كان بجميع الجرائم والتهم التي وجهت إلى الأخوية، إنني مستعد للاعتراف بأنني قتلت الله نفسه، إذا طلب مني ذلك، شريطة أن تكفوا عن تعذيبي وترحموني من الإحراق بالنار**"[١٩٤]، كما أذعن موليه لما طلبه منه المجلس الكاثوليكي الأعلى للكنيسة الفرنسية، بتوجيه رسالة إلى فرسان الهيكل الآخرين، يبين لهم فيها إعفاءهم من المحافظة على أسرار الأخوية ويطالبهم باعتراف نابع من القلب لمفتشي محاكم التفتيش الملكية بارتكابهم لجرائم الهرطقة[١٩٥].

---

(١) Mark Lowry,Op,Cit,P.116.

(٢) Willlam Henry Brown,Op,Cit,P.143.

(٣) بسام سخيطة، المصدر السابق، ١٥١.

(195) Juan de Mariana, A Treatise on the Alteration of Money, Sources in Early Modern Economics,Ethics, and Law,2 ed Christian Library Press, Action Institute, 2011,P.277.

وعند تتبع الأسباب التي دفعت هؤلاء إلى الإقرار كرهاً بما وجه لهم، نجدهم محقين في اتخاذ هذا الموقف نظراً لقسوة وبشاعة جنود الملك معهم، وهنا لابدَّ من الحديث عن آليات وأساليب محاكم التفتيش الفرنسية المعززة بالمطارنة والرهبان الموالين للملك في تعذيب فرسان الهيكل والتي تتجسد بوصف ول ديورانت بقوله: "**حوكم السجناء فأنكروا التهم الموجهة إليهم وعُذبوا لكي يعترفوا، فمنهم من عُلق من معاصمهم، وكانوا يُرفعون وينزلون فجأة، ومنهم من وضعت أقدامهم عارية فوق النيران، ومنهم من دُقت شظايا حادة بين أظافر أيديهم، ومنهم من تُقتلع لهم سن كل يوم، ومنهم من عُلقت أوزان ثقيلة في أعضائهم التناسلية، ومنهم من ماتوا موتاً بطيئاً من الجوع، وكانت جميع وسائل التعذيب الكثيرة المذكورة تستخدم مع الفرسان في كثير من الحالات، فكانت النتيجة أن الكثيرين منهم حين جيء بهم ليعاد استجوابهم(حسب الاتفاق الأخير بين الملك والبابا) كانوا ضعافاً موشكين على الموت، وأظهر واحد منهم العظام التي سقطت من قدميه المحروقتين، واعترف الكثيرون منهم بالتهم التي وجهها إليهم الملك، وقال بعضهم أنهم تلقوا وعداً مختوماً بخاتم الملك أن يؤمنّوا على حياتهم وتُرد لهم املاكهم إذا أقروا بارتكاب التهم التي وجهت إليهم، ومات بعضهم في السجون، في حين انتحر البعض الآخر**"[١٩٦].

وبالنتيجة لم يكتف الملك الفرنسي بمقاطعة البابوية علناً ومخالفة قراراتها كما حدث سلفاً، بل عاد ليمارس فنونه الدبلوماسية بغية الوصول إلى حل ودَّي مع البابا كليمنت الخامس، خشية تطور الأمور إلى حرب أهلية مباشرة داخل فرنسا، فبادر إلى فتح باب التفاوض مع كليمنت الخامس الذي كان مسلوب الإرادة أمام ملك فرنسا، واتفقا على تقاسم أموال الأخوية وحفظها لديهم حتى صدور الحكم على أصحابها، مقابل ذلك اشترط البابا أن يبقى فرسان المعبد تحت تصرف الكنيسة، على أن تتم احالتهم إلى محاكم

---

[١٩٦] ول ديورانت, مج٤, المصدر السابق, ١٤٣.

التفتيش اللاهوتية لمحاكمتهم بمشاركة الأساقفة، كما تضمن الاتفاق أن تبقى ملفات أستاذ الأخوية الأكبر وكبار رؤسائها الذين عددهم اثنان وسبعون (٧٢) فارس بيدَّ البابا حصراً، وتطبيقاً لهذا الاتفاق[١٩٧]، قام الملك بأرسال جماعة الداوية(فرسان الهيكل) من باريس إلى بواتييه، تحت حراسة مشددة، وعندما تراجع بعضهم عن اعترافاته أمام المحكمة الكنسية التي عقدت في اسقفية ناربون[١٩٨]، على أنها أخذت منهم تحت التعذيب، سارع الأساقفة الموالين للملك إلى تهديدهم بالمحاكمة أمام المحكمة الكاثوليكية الفرنسية العليا الخاضعة لنفوذ البلاط الملكي، باعتبارهم هراطقة نقضوا توبتهم من الهرطقة وعادوا اليها، ونظراً لاضطراب آرائهم هذه، اوعز الملك إلى مجلس الكرادلة الفرنسي بإصدار قرار يؤكد صحة ما نُسب الى جماعة الأخوية من اتهامات واتمام المصادقة عليه من قبل المؤسسة الدينية، وفي مقدمتهم البابا الذي أصدر بدوره مرسوم كنسي يصادق على هذه الاتهامات وأرسال نسخة منه إلى الملوك الذين يعتنقون المسيحية الكاثوليكية مطالبهم القيام بمثل ما قامت به المحاكم المقدسة في فرنسا[١٩٩].

وبعد معرفة المراحل التي تمكن بها الملك من الوصول إلى مبتغاه على الصعيد الديني والاقتصادي، لا يمكننا أغفال جانب مهم استند عليه الملك في سعيه لذلك، وهو موقف الشعب الفرنسي الذي كان مؤيداً لقرارات محاكم التفتيش وإجراءات الملك بحق فرسان المعبد، إذ كان الفرنسيون يحسدون هؤلاء الفرسان على ما يتمتعون به من غنى وثروة وينزعجون من عجرفتهم وتكبرهم وقوة مركزهم الديني والاقتصادي في باريس، ويتخوفون من الأسرار التي كانوا يحيطون بها أعمالهم واجتماعات مجالسهم الكهنوتية وصعوبة مراسيم الانتساب إلى جماعة الأخوية، لذلك كان تأييدهم كبير لما قام به الملك

---

(١) Juan de Mariana, Op, Cit, P:279.
(٢) Mark Lowry,Op,Cit,P.147.
(١٩٩) J.M. Maclnnis,Op, Cit, P: 67.

والبابا ضد هؤلاء، حتى شاعت على ألسنتهم أوصاف تكهّمية بالفرسان، من قبيل الاستشهاد بكذبهم فيقولون(يحلف مثل الهيكليين ويشرب مثل الهيكليين)[٢٠٠].

يتضح مما تقدم، إن مؤسسة محاكم التفتيش قدمت للسلطات الحاكمة خدمات كبيرة, ليس في ملاحقة الهراطقة والملاحدة فحسب، بل أيضاً في القضاء على أعداء السلطات الكنسية أو الذين لا يخضعون لسلطاتها ويتجاهلونها ووصمهم بالهرطقة تحت ذرائع مختلفة وتهم ملفقة تحقيقاً لغاياتها وأهدافها، هكذا فقد استخدمت محاكم التفتيش بكافة أجهزتها الاتهامية والتعذيبية لاتهام غير الهراطقة بالهرطقة، فكشفوا بذلك عن مواهبهم في استخدام التشريعات التفتيشية وتلفيق الذرائع والحجج القانونية لاتهام الأبرياء والتنكيل بهم والحكم عليهم ومصادرة أملاكهم واستغلال أموالهم، فضلاً عن استخدام التهمة الشهيرة وهي ممارسة السحر وعبادة الشيطان وممارسة طقوسه، وغير ذلك لتوطيد دعائم حكم النظام البابوي الملكي في الداخل والخارج[٢٠١].

نجاح الدبلوماسية الفرنسية في تعميق الانقسام البابوي(كنيسة أفينيون):

لم يترك فيليب الرابع سبيلا أمام البابا كليمنت الخامس بعدما أصبح الأخير مسلوب الإرادة وعديم الكلمة والتأثير على رجاله وكذلك رعاياه، الأمر الذي شجع البلاط الفرنسي إلى المبالغة في ضمور دور البابوية وإبعاد تأثير كاثوليكية روما عليها، من هذا المنطلق استمرت انتصارات الدبلوماسية الفرنسية عندما قرر الملك فيليب استغلال سيطرته على الكنيسة والبابوية، لا سيما عندما اشتكى إليه البابا كليمنت من عدم شعوره بالأمان على حياته في روما التي كانت تحتفظ لنفسها دون غيرها بحق الثأر للبابا السابق من الإساءة التي وجهت إليه[٢٠٢]، إذ اغتاظ رجال الدين والقساوسة في روما من

---

[٢٠٠] جلال يحيى, المصدر السابق, ص٨٧.

[٢] Mark Lowry,Op,Cit,P:127.

[٣] Juan de Mariana, Op,Cit,P:279.

جرأة الملك على الكنيسة وعدم احترامه إياها، يضاف إلى ذلك أن الكرادلة الفرنسيين كانوا يؤلفون وقتئذ أغلبية المجمع الكاثوليكي المقدس، ويأبوا أن يضعوا أنفسهم تحت سلطان كرادلة إيطاليا، فكانت فرصة ذهبية بالنسبة لفيليب الرابع في إجبار البابا كليمنت الخامس على نقل مركز البابوية من روما والإقامة الدائمة في فرنسا، وبالفعل امتثل البابا لذلك ونقل مقر البابوية إلى بلدة أفنيون Avignon في الجنوب الفرنسي على ضفاف نهر الرون سنة ١٣٠٩، بذلك انعدم دور الكرادلة الإيطاليين وحرموا من جميع الامتيازات السابقة، كما ضعف تأثير وهيبة الكنيسة في أعين العالم المسيحى، وبدأت بذلك الحقبة الحرجة في تاريخ الكنيسة الغربية الكاثوليكية والمعروفة بـ "**الأسر البابلي**"، وبطبيعة الحال أن يكون أغلب كرادلة البابوية في أفنيون من الفرنسيين وكانوا جميعاً وسيدهم البابا تحت وصاية الملك فيليب المباشرة [٢٠٣].

لم تروق هذه التطورات إلى طبقة النبلاء ورجال الدين في روما بل وعموم سكان إيطاليا، الذين لم يتحملوا سوء تعامل النبلاء الفرنسيين وقسوتهم في فرض الضرائب على تجارة المدن الإيطالية، فضلاً عن خسارة العديد من الامتيازات التي كان يتمتع بها سكان روما على مر العصور، فأخذوا يطالبون البابا بالعودة إلى مدينة القديس بطرس، بل احتجوا عليه بالخروج من رعايته وانتخاب بابا جديد يكون رومانيا لحما ودما، لذا حاول أمام هذه الضغوط أن يكسب الوقت ليتمكن من ردع فيليب الرابع[٢٠٤]، فأصدر قرارا بمصادرة أملاك جماعة الداوية في كل أنحاء العالم المسيحي ووضعها في حماية الكنيسة إرضاءً لملك فرنسا، أما الداوية فقد أنكروا ما وجه إليهم من اتهامات أمام مندوبي البابا من محاكم التفتيش، وسحبوا كل اعترافاتهم السابقة لأنها تمت تحت ضغط الإرهاب والتعذيب، وكاد البابا أن يصدق مظالمهم، إلا أن الملك الفرنسي قام بزيارة

---

[٢٠٣] اسحاق عبيد، المصدر السابق، ص٧٠.

[٢] Denton, J. Taxation and the conflict between Philip the Fair and Boniface VIII. Oxford University Press, 1997,P.190.

مفاجئة إلى بواتييه حيث يقيم البابا واضطر الأخير إلى موافقة التاج الفرنسي ضد الداوية إلى أبعد حد[٢٠٥]، فأصدرت البابوية مرسوماً إلى مجلس أسقفية باريس بالاجتماع يوم العاشر من آيار سنة ١٣١٠ على هيئة مجمع ديني في كنيسة باريس التي يرأسها فيليب دو ماريني أخ أنجيران دو ماريني وزير العدل الذي يثق به فيليب كل الثقة، وبذلك خيم النفوذ الملكي على المجمع الذي اتخذ قراراً بأن جميع المتهمين اعترفوا بأنهم مذنبون، ثم تراجعوا عن اعترافاتهم بالهرطقة المطلقة[٢٠٦].

ولضمان تنفيذ قرار المجمع سارع فيليب بتوجيه لجنة ناربون بتسليم المتهمين الى نيران المحرقة الملكية واحراقهم احياء حتى الموت، واحرق في نفس اليوم أربع وخمسون من جماعة الهيكلية وهم احياء، بتهمة ارتدادهم ثانية الى الهرطقة في الساحة القريبة من باب سان انطونيو San Antonio في باريس ولم يرض اي منهم انقاذ نفسه من الموت حرقاً بعدم اعترافه ثانية بالهرطقة، وبعد عدة ايام احرق العديد من الهيكليين في مدينة ريمس Reims لإصرارهم على براءتهم وكذلك في مدينة بون دي برينس Bon de Prince وشنق العديد منهم في مدينة كاركاسونCarcassonne وأطلق سراح بعض الذين اعترفوا بالهرطقة بقرار من بعض المجالس المحلية الكنسية المختلفة لتبرئتهم من الهرطقة وارتدادهم عنها[٢٠٧]، لم يكن هذا مصير فرسان المعبد فقط, بل استمر فيليب في جهوده لإقصاء مناوئيه, فطلب من البابا إقامة مجمع كنسي يُعقد في بلدة فين Vienne للتحقيق مع جماعة الداوية وإدانتهم، وبالفعل صدر عنه حكم في الثالث عشر من آيار سنة ١٣١٠ بإحراق ثلاث وستون راهبا من كبار جماعة الداوية بتهمة الهرطقة وحينها لم يجرؤ أحد بعد ذلك بالدفاع عنهم[٢٠٨].

---

(١) Mark Lowry,Op,Cit,P:179.

(٢) موريس بيشوب، المصدر السابق, ص٢٠٢.

(٣) James Given, Power and Fear in Philip IV's France,Vol.6,University of California, Irvine, 2006,P 193..

(٢٠٨) B.A. William Henry Brown,Op,Cit, P: 63.

لم يكتف الملك الفرنسي باضطهاد الهيكليين وملاحقتهم في فرنسا، بل حتى في الأراضي الإنكليزية مستغلاً طيب علاقته بملك انجلترا إدوارد الثاني(١٢٨٤-١٣٢٧) الذي كان يريد الزواج من أخت الملك فيليب الرابع، فطلب من إدوارد اضطهاد هيئة الهيكليين، مسارعاً بتقديم الأدلة التي تدينهم بالهرطقة، فوافق إدوارد على ذلك رغبة منه في التقرب من التاج الفرنسي، من جانبه لم يتأخر في مصادرة أملاكهم ليسد بها حاجته إلى المال وأعطى لفيليب بعض هذه الأموال نضير مساعدته في ملاحقة الهراطقة ومحاكمتهم، ووهب بعضها الآخر لأنصاره فأنشأوا بها ضياعاً واسعة لمنافسة الإقطاعيين القدماء والإشراف على الاقطاع من جديد[٢٠٩].

لم تقتصر هذه الإجراءات على إنجلترا وفرنسا، بل طبقت في أغلب دول أوربا الكاثوليكية، حتى خشي فيليب الرابع من انقلاب الأمور ضده في روما ووصولها إلى أراضيه، فقرر بسط نفوذه على النبلاء ورجال الدين الإيطاليين، فذهب بصحبة جيش كبير الى فيينا، ومن أجل تعزز سيطرته على قرارات البابوية ومنع أي إجراء قد يقوم به البابا في التساهل مع جماعة الهيكلية، أثار من جديد قضية البابا بونيفانس الثامن من خلال إيعازه إلى كبار الوزراء والنبلاء الفرنسيين لمطالبة البابا كليمنت بالحكم على بونيفاس بالهرطقة, كوسيلة ضغط على كليمنت الخامس[٢١٠]، ليضعف ويتردد في التأثير على مجمع فيينا الخامس عشر المزمع عقده بين (شهر تشرين الأول سنة١٣١١حتى آيار سنة١٣١٢)، لذا اضطر البابا كليمنت إلى التخلي عن جماعة فرسان المعبد بشكل نهائي وألغى كل المراسيم البابوية التي صدرت منذ شهر تشرين الثاني سنة ١٣٠٠, وأذعن لمطالب فيليب والمجمع مقابل سحب الاتهامات بالهرطقة الموجهة ضد سلفه من قبل نوجارديه كما اصدر مرسوماً بتحريم أخوية فرسان المعبد[٢١١].

---

[٢٠٩] محمود سعيد عمران, المصدر السابق, ص٢٢٨.

[٢] Denton, J,Op,Cit,P.203.

[٣] Par M. devllette, Eloge Historiy de Charles V,parees,1932, P: 91.

ونتيجة لاستمرار ضغط فيليب على البابا كليمنت، لم ينهي الأخير مجمع فينا إلا بالمصادقة على قرار إلغاء هيئة فرسان الهيكل في الثاني والعشرون من آذار سنة ١٣١٢، وأمر بتحويل أموالهم إلى خزانة الكنيسة، للإعداد لحملة صليبية جديدة ضد الهراطقة في عموم أوربا الكاثوليكية، وإذا كان التاج الفرنسي لم يتمكن من الاستيلاء على هذه الممتلكات بالكامل، إلا أنه حصل على إيراداتها لعدة سنوات، في ذات الوقت طلب فيليب محاكمة قادة الهيئة وأبرز زعمائها بطريقة خاصة، وتشمل هذه المحاكمة كل من قائد الهيئة دي موليه وقائد مقر اكيتان جيفري دي جونفيل وقائد مقر نورماندي جيفري دي شارني وامين خزانة وزراء هيئة الهيكل في فرنسا هيودي بيرو، لأنه أمر بموافقة البابا تشكيل لجنة كنسية– ملكية لتقرير مصيرهم، فأقيمت المحكمة في مساء الثامن عشر من آذار سنة ١٣١٤[٢١٢]، أمام كنيسة نوتردام في باريس واقتيد إليها المتهمون، فأوصت اللجنة بالحكم عليهم بالسجن مدى الحياة، القرار الذي وافق عليه كل من دي بيرو ودي جونفيل، الا ان دي موليه ودي شارني رفضاه بشدة واعلنا براءتهما وان اعترافاتهما السابقة قد انتزعت منهم بوسائل الترهيب والتعذيب، وعندما استشعر الملك بأن اللجنة بدأت تتعاطف معهم ومن الممكن دراسة ملفاتهم من جديد للبحث عن براءتهم، فأمر بالإسراع في تنفيذ حكم الإعدام حرقاً بهم، لذلك تم تسليمهم إلى نيران المحرقة، وأخذ فيليب يشرف من نافذة قصره على عملية الحرق الحي لهم، ونظراً لقسوة البابوية والتاج الفرنسي تجاه هؤلاء، فقد أُشيع بعد موت دي موليه حرقا انه انذر بموت فيليب والبابا كليمنت في نفس العام، وأكدت هذه الإشاعات عندما توفي الملك فيليب اثناء الصيد حيث هاجم خنزير بري حصان الملك وأوقعه في التاسع من تشرين الثاني في نفس العام اي بعد ثمان اشهر من موت دي موليه وستة شهور من وفاة البابا كليمنت الخامس ليحاكما امام محكمة الله في السماء[٢١٣].

---

(١) James Given,Op,Cit,P:197.

(٢١٣) بسام سخيطة, المصدر السابق, ص٥٣.

وهكذا كان نمو سلطة الأسرة الحاكمة في فرنسا على حساب رمز العالم المسيحي سبباً مباشر في ضعف الكرسي البابوي واضعاف الحكم الكنسي، ومن جانب آخر لا بدَّ من الملاحظة، أن عنف الملك فيليب ضد البابوية وقسوته تجاه الشعب في حرقه جماعة الفرسان وملاحقة المتهمين بالهرطقة، جعله ملكاً غير محبوب في بلاده والعالم المسيحي الكاثوليكي، وبهذا يعد فيليب الرابع رمزا مهما في العوامل المباشرة لحدوث الانقسامات الكنسية لإجباره المؤسسة الدينية تطبيق ما يخالف تعاليم المسيح وبالتالي تؤثر سلبا على عقيدة رعاياها، فضلاً عن فقدان الكنيسة لقدسيتها بسبب نقل مركزها العالمي إلى فرنسا، ونتيجة طبيعية لوصول المؤسسة البابوية إلى هذه المرحلة أن تظهر جماعات تنادي بالإصلاح وتسعى لإعادة الهيبة الدينية للكنيسة والبابا، ومن هؤلاء جماعة الفرنسيسكان الفرنسيين الذين وجدوا ضرورة إصلاح صرح العالم المسيحي عن طريق اتباع الزهد والابتعاد عن جمع الثروة[٢١٤]، ولتطبيق ذلك عملت الجماعة على تقوية نظام مجموعتها وزيادة مركز رئيس الجماعة، الأمر الذي أدى إلى صدام بينها وبين المتعصبين للسلطة البابوية وبهذا استمر الانقسام الديني العقدّي بين اتباع الكنيسة الواحدة، وضمن محاولة الملك فيليب السيطرة على الأوضاع الداخلية، كلف أثنين من الأساقفة بمراجعة المحاكمات الموجهة ضد من كانوا يطالبون بإصلاح الكنيسة، كما أصدر اوامره إلى رجال الدين الفرنسيين بعدم إلقاء القبض على الأهالي، وهكذا شُلَّت حركة محاكم التفتيش الفرنسية وزادت سلطة الدولة على حساب ضعف سلطات الكنيسة[٢١٥]، أمام هذا التشتت والمشاكل الداخلية، أصدر البابا كليمنت مرسوم الحرمان الكنسي بحق جماعة الفرنسيسكان، فقام البعض منهم بالدفاع عن نفسه بالقوة بمساندة بعض الأهالي مما يعني حدوث حرب أهلية دينية بين رجال الكنيسة وجماعة الفرنسيسكان ومؤيدوهم، في حين أعلن البعض منهم في منطقة بروفانس عدم اعترافه بسلطة الكنيسة المستبدة، لأنهم

---

(١) devllette,Op,Cit,P:141. Par M.

[٢١٥] جان بيرنجيه وآخرون, المصدر السابق, ص٤٥.

أدركوا أن المؤسسة الدينية قد تحولت إلى ملك زمني وأصبحت خاضعة له تماما، لذا من الضروري عودتها إلى الزهد والفقر والمحبة بين اتباعها ليكون واجب اطاعتها[٢١٦].

وبذلك يكون فيليب الرابع بسياسته التعسفية وطموحاته اللامتناهية، قد ركز دعائم التفكك الديني والسياسي داخل المؤسسة البابوية، ومن الوارد جداً إن يستمر ضعف البابوية حتى بعد بابوية كليمنت الخامس، والأكثر خطورة من ذلك هو تفكك الكنيسة نفسها وفقدانها السلطة على رجال الدين أنفسهم، فلم تعد الكنيسة تمثل في نظر الكثير من المسيحين حامية للعقيدة المسيحية[٢١٧]، كما ظهرت بعض الاتهامات للبابوات بخيانة الإنجيل، تزامن ذلك مع الوقت الذي كان فيه الفرنسيسكان في بافاريا لا يغتفرون للبابا أمر تركه روما وكانوا يرغبون في الانتقام منه لسلوكه نهج سابقيه في يبيع المناصب الكهنوتية دون حياء او تردد حتى أنه جمع ثمانية عشر مليون فلورين ذهبي أي ما يعادل ٤٥٠ مليون دولار وسبعة ملايين من صفائح الذهب والمجوهرات وجدت في خزائن الباباوية، كما أُتهم بالخروج عن الدين، لصده معتقدات جماعة الفرنسيسكان الذين هم من أدوات البابوية أصلا[٢١٨].

بناءً على ما تقدم، فقد نادي فريق من الفرنسيسكان بضرورة الرجوع بالعقيدة إلى حياة البساطة الأولى، فضلاً عن جماعة فريق فراتيشيللي (Fraticelli) في نابلى، الذين بشروا بقرب حلول عهد الروح القدس حيث يعيش الكل في محبة وبساطة واحتقار لمتاع هذا العالم، وأدعوا رؤية الله، قائلاً: "**إنه حتى السيدة العذراء أم الله لا تستطيع رؤية الله إلا يوم الدينونة**"[٢١٩]، بهذا فهو أدان هذه الأفكار ودمغها بالهرطقة وقرر تقديم هذه الفئة إلى محاكم التفتيش فثارت عليه جامعة باريس، واعلن مجمع فانسين المقدس ان آراءه مخالفة للدين وأمره ملك فرنسا أن يعود عن هذه الآراء إلى الصراط المستقيم. في حين ظل الفرنسيسكان منقسمين على أنفسهم وزاد ظهور الحركات الدينية المنشقة

---

[٢١٦] William Grimehaw, Op, Cit, P: 102.
[٢] devllette,Op,Cit,P.134. Par M.
[٣] James Given,Op,Cit,P.199.
[٢١٩] جان بيرنجيه وآخرون، المصدر السابق، ص٥٨.

من جماعة الفرنسيسكان في الجنوب الفرنسي إلى الحد الذي عجزت فيه السلطات الكنسية عن مواجهة هذه الجماعات التى لم تجرؤ محاكم التفتيش على اتهامها بالهرطقة وإدانتها[٢٢٠].

وبالرغم مما تقدم ذكره، ألا إن الكنيسة لم تنهي ملاحقتها لأصحاب الآراء المطالبة بضرورة إصلاح الكنيسة وتغيير رجال الدين وتقييد صلاحياتهم، على اعتبار إنها تقوم بواجبها الرسمي في حماية الكتاب المقدس من الافكار الدخيلة- أما في الحقيقة فهي تسعى إلى المحافظة على مصالح رجالها الزمنية- وبناءً على ذلك تابع البابوات من أفنيون إرهابهم للفكر بواسطة محاكم التفتيش، والواقع أن سياسة فيليب تجاه فرسان الهيكل وما ارتكب بحقهم أدت إلى انقسام بين الكنيسة وفيليب ونتج عن هذا الانقسام ردود فعل طالبت بالإصلاح، ابرزهم الفرنسيسكان وحركة الأطهار من أتباع والدو والجماعات المتبنية لأفكاره، لم تنته تماما من الجنوب الفرنسي رغم المذابح الرهيبة التي لحقت بهم، كما انتشرت آراؤهم في بوهيميا وجنوب شرق ألمانيا، ولا يخفى أن هناك عدة ظروف ساهمت في انتعاش هذه الحركات في أوربا الغربية، تمثلت بتصعيد الموقف السياسي بين فرنسا وإنجلترا، إذ أصبحت الحرب تطرق أبواب كليهما، أما في الجانب الديني، فقد أضعف انتقال البابوية إلى أفنيون تأثير الكنيسة والبابوية الروحي والديني وأصبحت محل انتقاد العديد من المسيحيين الممتعضين من كبار رجال الدين والأساقفة لفقدانهم العديد من امتيازاتهم السابقة مقابل الصلاحيات الواسعة التي مُنحت لكرادلة أفينيون والذي تسبب في قيام العديد من الثورات الداخلية ونشوب الصراعات الأهلية بين سكان دول أوربا الغربية والتي شكل الملوك الفرنسيين سبباً رئيسياً في قيامها، وهذا ما سنلاحظه في المبحث الثاني من هذا الفصل.

---

[٢٢٠] بسام سخيطة، المصدر السابق, ٤٧.

المبحث الثاني

دور التاج الفرنسي في تثبيت دعائم الانقسام الديني الكاثوليكي.

اختلفت ادوار ومواقف البلاط الفرنسي في شؤون الكنيسة الكاثوليكية تسببت بشكل أو بآخر في تعميق هوَّة الخلافات الدينية وعدم احترام المكانة الرمزية للكنيسة، ضمن هذا المعنى سنحاول معالجة إشكاليات هذا العنوان وفق فقرات متعددة.

أثر التدخل الفرنسي المباشر في اختيار ممثل المسيحية واستمرار لانقسام المذهبي.

شهدت الحقبة التي أعقبت وفاة الملك فيليب الرابع والبابا كليمنت الخامس انقساماً دينياً كبير وضعف واضح في علاقة المؤسسة الدينية برعاياها المسيحيين، نتيجة تضارب المصالح والتنافس على السلطة، إذ كانت بابوية أفينيون تدعى لنفسها حق ممارسة السلطة زمنية على الشعوب والملوك، لكنها اصطدمت برغبة القوى الملكية المعارضة, الذين لم يعودوا يعترفوا بتفوقها عليهم على اعتبار الشرعية الدينية يجب ان تكون لكنيسة روما، بالإضافة إلى معارضة الأمراء الألمان والأحقاد الإيطالية، فعندما خلا كرسي البابوية من شاغل له بعد وفاة البابا كليمنت الخامس، ونظراً لما كان يدور من صراع بين أفينيون وروما على الفوز بالكرسي الرسولي، ضربت الفوضى أطنابها، كما عجزت البابوية أمام الخصومات التى واجهتها رغم مجهوداتها من إنشاء إدارة كنسية تفوق سلطة الأمراء وتنمي المصالح المادية للكنيسة، لذا زادت من الضرائب المفروضة على رعاياها، بذلك سرعان ما وجدت الآراء الناقمة على تفوق الكنيسة مادياً[٢٢١].

---

[221] B.A. William Henry Brown, Op, Cit, P: 49.

في ضوء ذلك كتب الشاعر دانتي إلى الكرادلة الطليان يطالبهم باختيار بابا إيطالي لإعادة البابوية إلى روما، لكن الملك فيليب السادسPhilip VI (١٣٢٨-١٣٥٠) لم يمهلهم هذه الفرصة بل سارع إلى دعوة مجلس الكرادلة لعقد المجمع المقدس في أفينيون واختيار بابا جديد، في ذات الوقت أوعز إلى عامة الفرنسيون الذين أحاطوا بمكان الاجتماع أن يهتفوا بعبارة: "**الموت للكرادلة الإيطاليين**" وهاجموا مبنى المجمع المقدس وبيوت الكرادلة الإيطاليين وأشعلوا فيها النيران، عندها اضطر الكرادلة إلى كسر الجدار الخلفي للمبنى والهروب فراراً من النيران المشتعلة والغوغاء القائمة[٢٢٢].

بعد تلك الاضطرابات لم تبذل أية محاولة من قبل مجلس كرادلة روما والألمان لانتخاب بابا جديد واستمر هذا الحال لمدة سنتان، حتى اجتمع المجمع مرة أخرى في مدينة ليون الفرنسية مع حراسة مشددة للجنود الفرنسيين أيضاً لانتخاب البابا الجديد، فضلاً عن ذلك تقديم روبرت الفرنسي(Robert A French) ملك نابولي المبالغ المالية التي أسكت فيها وطنية الكرادلة الطليان لينتخبوا من وقع عليه الاختيار وهو الكردينال العجوز جاك ديويهJack Dewey الذي يبلغ من العمر خمسة وسبعون(٧٥)عاما وهو ثاني بابا أفينيوني، ولقب نفسه البابا يوحنا الثاني والعشرينJean XXII (١٣١٦-١٣٣٤)، فمن الطبيعي أن تكون النتيجة لتلك الاجراءات، هي ازدياد المعارضة الشعبية لأهالي روما، وتأكيد الأفكار القائلة بأن المؤسسة الكنسية قد خانت الانجيل بتركها روما والاستقرار في أفينيون[٢٢٣].

فوجد البابا يوحنا الثاني عشر أن الأمر خطيراً وعده بمثابة التهديد المباشر لمركز الكنيسة وعالميتها، فلم يرى بداً من اتباع أساليب اسلافه البابوات في احكام سيطرتهم على البلاد والعباد، فلجئ إلى أساليب القمع والقسوة ضد معارضيه، وعملت محاكم

---

(١) ادوار بروي, المصدر السابق, ص٤٥٩.

(٢) Maureen C. Miller, The Formation of a medieval church,Cornell University press, Ithaca, 1993,P.86.

التفتيش البابوية على مطاردة أصحاب هذه الأفكار وتحطيم مراكزهم، ناغمت هذه الإجراءات ساسة التاج الفرنسي، إذ سمحت فرنسا لمحاكم التفتيش بالعمل في الجنوب الفرنسي وملاحقة الهراطقة فتوسع نشاط هذه المحاكم بشكل كبير وتمادت بقسوتها وتفنن أصحابها باتباع أبشع الأساليب والتنكيل حتى بالمشتبه بهم، إذ لم يكتفي فيليب السادس بهذه الإجراءات، بل سعى إلى تأسيس مراكز ثابتة لرجال محاكم التفتيش وقضاتها وتعميم نشاطاها في كل دول أوربا المسيحية، لا يخفى أن هذه الإجراءات قد اخضعت الكرسي البابوي أمام ملك فرنسا وأصبحت الكنيسة تسير في طريقها إلى تبعيته التامة من جديد[٢٢٤]. ومن جهة أخرى تكون السياسة الدينية لمملكة فرنسا بتدخلها المباشر في انتخاب بابا الكنيسة في ظل اجواء الترهيب والرشوة، قد عززت بذلك الانقسام الديني للكنيسة الكاثوليكية وأوجدت مساحة كافية لانتقاد الكنيسة من قبل رعاياها الفرنسيين والإيطاليين بحيث يبيحوا لأنفسهم من خلال تلك الانتقادات، الخروج على الكنيسة وعدم الالتزام بطاعة البابا أو الاكتراث بسلطته وهذا ما ينتج عنه حروب مذهبية أهلية تكون مدن فرنسا أرضاً خصبة لحدوثها.

وعند دراسة واقع محاكم التفتيش الفرنسية وقسوة اجراءاتها نجدها تمثل فرصة ذهبية للنبلاء وصغار رجال الدين الفرنسيين الذين انخرطوا في خدمة هذه المحاكم لتلبية رغابتهم السلطوية والمادية، حتى فاقت اساليبهم الحد المعقول في القسوة والجشع بأسم الكنيسة, لذلك لم يبقى لهم في نفوس العامة سوى الحقد والبحث المستمر عن أية فرصة تسمح بالانتقام منهم، وضمن هذا السياق لم تكن جماعة الفرنسيسكان في فرنسا بعيدة عن هذا الحس(الانتقامي)، فهم لا يغفرون للبابا أمر اضطهادهم, فضلاً عن رغبتهم في الانتقام منه لسلوكه نهج سابقيه في بيع المناصب الكهنوتية دون حياء او تردد، كما أُتهم بالخروج عن الدين، لصده معتقدات جماعة الفرنسيسكان الذين هم من أدوات البابوية

---

(١) Fabre, Goyau Pératé , De, Vue Generale L'histoire De La, Papaute, Rue Jacob, Paris, N.D,P:263.

أصلا – فلقد نادى فريق منهم بضرورة الرجوع بالعقيدة إلى حياة البساطة الأولى، بهذا فهو أدان هذه الأفكار ودمغها بالهرطقة وقرر تقديم هذه الفئة إلى محاكم التفتيش فثار عليه أساتيذ جامعة باريس وضغطوا على الملك فيليب السادس بالدعوة إلى عقد مجمع مسكوني يبين حقيقة معتقدات جماعة الفرنسيسكان ويدين سياسة محاكم التفتيش ضدهم ويثبت انحراف البابا عن التعاليم المسيحية الحقة[٢٢٥].

وبالفعل اعلن مجمع فانسين الفرنسي المقدس المنعقد في الثاني والعشرون من تموز سنة ١٣٣٤ ان آراء البابا يوحنا الثاني والعشرين مخالفة للدين وعليه أن ينظر بمقترحات الفرنسيسكان الداعية إلى إصلاح البيت المقدس(الكنيسة)، أما الملك فيليب فقد أمره أن يعود عن هذه الآراء إلى الصراط المستقيم ويمتثل لقرارات المجمع، ولكن ما يؤسف له أن البابا توفي في شهر أيلول سنة ١٣٣٤ ولم يتم تنفيذ ما خرج به المجمع وبذلك ستستمر البابوية في تزمتها يقابله انحدار المجتمع وانغماسه في الانقسامات العقدّية والصراعات المذهبية التي لم تقتصر على كاثوليك روما وكاثوليك أفينيون بل بين مسيحيوا أفينيون أنفسهم، وهذا ما سنلاحظه عند مناقشة سياسة البابا بينديكت الثاني عشر الداعمة للانقسام الديني والمغذية للحروب المذهبية داخل الأراضي الفرنسية[٢٢٦].

حبرية البابا بينديكت الثاني عشر وزيادة الاضطهاد الديني الفرنسي:

لم نبالغ إذا قلنا إن رجال الكنيسة سعوا بشكل أو بآخر إلى اضطهاد الرعايا المسيحيون بمساعدة ومساندة البلاط الفرنسي، إرضاءً لمصالح الطرفين، تلك المصالح التي تمثلت بحصول الملك فيليب السادس على مباركة البابا ومساندته المالية والمعنوية في الحرب الدائرة بين فرنسا وإنجلترا[٢٢٧]، مقابل تقديم الدعم العسكري والتفويض الرسمي

---

(١) R.H. C. Davis, Op, Cit, p:237.

(٢) S.H.Homoud, Islamic Banking, Arabian Information, London, 1985,P:254.

(٣) عبارة عن صراع طويل بين فرنسا وإنجلترا, دام ١١٦ سنة خلال(١٣٣٧-١٤٥٣), عندما أدعى ملوك الانكليز حقهم بالعرش الفرنسي وقاتلوا من اجله, وقعت احداثها في اربع مراحل حتى انتهت بطرد الانجليز

الكامل للبابا في إدارة محاكم التفتيش لجميع الكنائس الفرنسية لإقصاء جميع معارضي المعتقد المسيحي الكنسي السائد، وهكذا وجد كرسي البابوية المتمثل بالباب بينديكت الثاني عشر Benedetto XII، (١٣٣٥-١٣٤٢) نفسه يتمتع بنفوذ كبير قل نظيره في الحقب السابقة لبابوية أفينيون، فأخذ يعمل بنشاط كبير لتثبيت دعائم سلطته الرمزية العالمية وقرر أن يكسب جميع الطوائف المسيحية حتى يعيد الحب والولاء والطاعة المطلقة للكنيسة في قلوب المسيحيين، فأعلن عن عزمه في إصلاح الكنيسة وتجميع قواها من جديد[٢٢٨]، لكنه لم يصمد بمشروعه هذا أمام تجاوز جماعة الفرنسيسكان على شخصه وعدم ثقتهم بمشروعه، فقد دخل في صراع مباشر معهم وأقام لهم في أكبر المدن الفرنسية وهي مارسيليا وناربون ومونبلييه وكاركاسون وتولوز سنة ١٣٣٥ أكوام من الحطب وأحرقهم أحياءً، حتى تطورت هذه الخصومات وأدت إلى اتحاد كل جماعة الفرنسيسكان ضد البابا، وطالبوا بضرورة تمسك الكنيسة بالزهد والتخلي عن امتلاك مخازن الحبوب وترك رجالها لبس الملابس الفاخرة ورذائل النساء، مستندين على قاعدة تقول بعدم امتلاك السيد المسيح أي سلطة زمنية، فلم يكن من حق خليفته وهو البابا أن تكون له مثل هذه السلطة[٢٢٩].

وبذلك شكلت القضايا التي أثارها الفرنسيسكان خطورة بالغة على البابوية ومكانة الكنيسة العالمية، من جانب آخر ساهمت بشكل مباشر في زيادة نشاط أنصار الزهد والفقر بين جماهير المسيحيين، فاصبح البابا بينديكت في موقف لا يحسد عليه، لذا كان يبحث عن أية وسيلة تمكنه من تحسين موقفه وتبطل الادعاءات المثارة ضده، وقد

وتحقيق السلام الدولي, وقعت احداثها في: الحرب الإدواردية (١٣٣٧-١٣٦٠), حرب كارولين(١٣٦٩-١٣٨٩), (أزمة ١٣٨٣ حتى سنة ١٣٨٥) وحرب لانكاستريان(١٤١٥-١٤٢٩). للتفاصيل ينظر:

Elizabeth A. R. Brown, "Taxation and Morality in the Thirteenth and Fourteenth Centuries: Conscience and Political Power and the Kings of France", Historical Studies 8,French, 1973.

[١] جلال يحيى, المصدر السابق, ص٩٣.

[٢]S.H.Homoud,Op . Cit,P:256.

اتيحت لـه هذه الفرصـة عندما حـاول بعض الأسـاقفة أن يثبت أن المسيح عـاش فقيراً، ولكنه كان يمارس حقه في ملكية الأشياء[٢٣٠]، الذريعة التي لاقت استحسان البابا والذي أصـر علـى تثبيتها، حينها أخذ جماعـة الفرنسيسكان يستعدون للخروج علـى الكنيسـة وإعلان البابا خارجا عن الدين وأنه جاء بانتخاب مزيف، لأنهم عدوها تتجاوز علـى مقام السيد المسيح وتتهمه بالملكية، كما وجدوا بتشدد الكنيسة واستمرار محاكم التفتيش التابعة لها، يعنـي اصرارها علـى ثبات العقيدة البابويـة السائدة دون تغيير واعتماد التفسير الذي يعطيـه البابوات لكل مسألة تطرح دون السماح لغير رجال الدين البت بهذه المسألة أو تلـك، ولا شـك أن هـذا الموقـف كـان يعنـي عـدم السـماح للمسـيحيين بـالتفكير والنقـد والمقارنة[٢٣١].

فوجدت هذه الحركـة لها تأييد كبير في جميـع أنحاء أوربـا خاصـة وجنوب فرنسـا وبافاريا وألمانيا، ومما زاد من خطورة موقفهم ظهور بعض المفكرين وخاصـة فـي جامعـة بـاريس، متبنـين لفكر يستند إلـى منهج علمـي ولا يستمد أسسـه إلا من الكتـاب المقدس وحده، دون اعتبار لوجهة نظر البابوات، بل اتهمت البابا بتغيير تعاليم الدين والعمل مع كبـار الأسـاقفة ورجـال الكنيسـة ضـد مصـالح الرعايـا المسـيحيين، فـزادت علـيهم الاحتجاجات، ووصـل الحـال بهم إلـى إصـدار قرار بضـرورة محاكمـة البابـا وإعفاءه من مهام الكرسـي الرسولي، وعندئذ حرمت البابويـة من كل أسلحتها الروحيـة، وأصبحت لا تقوى على مواصلة الحوار حتى في شؤون العقيدة[٢٣٢].

ومن جانـب آخـر نجد أن قواعد الحكم الديني وامتداد سلطة الكنيسـة إلـى الحكم الزمني، لم تعد تتلقى قبولا خارج مدارس الكنيسة، ومنها أصبح الأمراء والنبلاء عازمين

---

(١) Bellay,Du, Martin, sieur de Langey. Mémoires de Martin et Guillaume du Bellay. edited by V. L. Bourrilly and F. Vindry. 4 volumes. Paris: Société de l'histoire de France,1908, P:54.

(٢) جان بيرنجيه وآخرون, المصدر السابق, ص٥٢.

(232)Denis C. Meyer, Op, Cit, P: 74.

على عدم طاعة البابا في الأمور الزمنية، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك حينما سيطروا على الكنائس الموجودة في أقاليمهم وضيقوا صلاحيات محاكم رجال الدين، مقابل توسيع صلاحيات المحاكم المدنية فيها[٢٣٣]، فكان هذا عاملاً آخر من عوامل ضعف البابوية أمام التاج الفرنسي والولايات التابعة له وساهمت إلى حدٍ كبير في تعميق الانقسامات الكنسية تمهيداً لنشوب حروب مذهبية في فرنسا، فاستندت سياسة فرنسا على أساس المبادئ الدينية في حكم المملكة، وأحاط الملك نفسه ببلاط من العلماء واحتفظ فيه بحق الملكية الإقطاعي المطلق والخاص بمبدأ الخضوع المطلق لشخص الملك، وإلى القانون الروماني الذي يُلزم الفرد بالتضحية من أجل الدولة، وهكذا تحررت المملكة من سيطرة المؤسسة الدينية وروما الحليفة للإمبراطورية العليا[٢٣٤].

وهكذا كان تحرر سياسة الدولة يدل بوضوح على ضعف سلطة الكنيسة الكاثوليكية وضعف تأثير البابوية في مواجهة نظام السلطة الزمنية، بعد أن أصبح قانون الإنجيل لا يتناسب إلا مع الأفراد العاديين، أثار هذا الأمر المسيحيين المخلصين، فاتهموا الكنيسة بالهرطقة وخيانة المهمة الدينية التي كُلفت بها من قبل الله والسيد المسيح، مؤكدين على ضرورة حدوث إصلاح من الرأس حتى بقية أعضاء الكنيسة، وكان هناك اتفاق بين جميع مسيحيوا دول أوربا الغربية، على أن بابوات أفينيون قد أهملوا رسالتهم السماوية، والذي نتج عنه اللامبالاة وسوء اختيار الكرادلة والأساقفة وعدم الالتزام بالتقاليد البابوية عند تعيين كبار رجال الكنيسة[٢٣٥].

ولكن الوضع تغير في عهد البابا كليمنت السادس Clément VI (١٣٤٢-١٣٥٢)، الذي ازدهرت في عهده أفينيون على كافة الأصعدة من حيث البناء والعمران وتوسع العمليات التجارية مع تجار روما والبندقية وكذلك زيادة نفوذ النبلاء والاقطاعيين

---

(١) جلال يحيى, المصدر السابق,ص٩٣.

(٢) R.H. C. Davis, Op . Cit, p:240.

(٣) Fisher, Sydney Nettieton, Op, Cit, P:119.

ورجال الدين الاكليروس، وبناءً عليه أرسل أهل روما بعد إن ترامت إليهم طيبة البابا الجديد ومرونته، يرجونه الإقامة في روما، ولكنه أرضاهم بأن أعلن الاحتفال بيوم عيد الكنيسة الذهبي سيقام كل ٥٠ سنة في كنيسة روما، أي في سنة ١٣٥٠ والذي سبق للبابا بونيفاس الثامن إدخاله في حياة الكنيسة وكان يقام كل ١٠٠ سنة[٢٣٦].

تفاعل الجماهير مع إجراءات البابا، وبدأت منذ ذلك الوقت تتدفق إلى أفينيون وهي بحاجة إليها لتجديد الارتباط بملاذهم الروحي، مغذية خزائن الكنائس والباباوات بالعطايا والأموال طيلة عام كامل ليغفروا ذنوبهم وخطاياهم، واصبحت أفينيون في عهده الحاضرة الدينية للعالم اللاتيني المسيحي الكاثوليكي وكذلك قاعدة لسياسته وثقافته، فتخلقت المدينة وأهلها بأخلاق البابا وحاشيته، فانتشرت فيها ضروب الرشوة وبيع المناصب[٢٣٧]، حتى شبه الأديب الإيطالي بترارك(١٣٠٤-١٣٧٤) أفينيون ببابل العاصية فقال عنها: "**بابل العاصية، جحيم الأرض، بالوعة الرذيلة ومستودع أقذار العالم، لا تجد فيها إيمانا ولا إحسانا ولا دينا، ولا خوفا من الله ... لقد تجمعت فيها جميع أقذار العالم وخبائثه.. ترى كبار السن من رجالها يندفعون غير مبالين إلى افينيون، لا يبالون بكبر سنهم وكرامتهم، أو ما لهم من سلطان، بل يرتكبون كل عار، كأن مجدهم كله لا يعتمد على صليب المسيح، بل يقوم على المأكل والمشرب والسكر والنساء، والفسق، ومضاجعة المحارم، وهتك الأعراض، والزنا هي أعظم المباهج الشهوانية لمهازل رؤساء الكنيسة**"[٢٣٨].

انتشرت هذه الآراء بين عامة المسيحيون داخل وخارج فرنسا، فأصبح موقف البلاط البابوي مهدد في أفينيون، إذ وصلت الجموع الناقمة على الفساد الكنسي إلى أبواب القصر البابوي وأنفقت الكنيسة أموالا طائلة لشن حملات صليبية ضدهم لإبعادهم

---

(١) Bellay,Du, Martin, Op, Cit, P:88.
(٢) Chronique de Richard Lescot, Op, Cit, P:101.
(٣)جلال يحيى, المصدر السابق, ص٩٧.

عن مركز البابوية الفرنسي، في نفس الوقت الذي كان يصدر فيه علناً مراسيم حرمانهم من رحمة الكنيسة، بجانب ذلك كان الرأي العام المسيحي يطالب وبإصرار بضرورة عودة الكرسي البابوي إلى إيطاليا[٢٣٩]، غير ان البابا لم يكن بموقف قوي يسمح له الاستجابة لتلك المطالب، واستمرت الاوضاع تزداد سوءً واتسعت الخلافات الدينية حتى وصول إيتين روبير كرسي الباباوية باسم إنوسنت السادسInnocent VI (١٣٥٢-١٣٦٢)، الذي أعاد الولايات الباباوية إلى طاعته، وكان نموذجا طيبا للباباوات وأوقف السيمونية في الوظائف الكنسية رغم منحه بعض الوظائف الكهنوتية العليا للعديد من أقاربه، لكنه قضى على مظاهر الترف التي أشاعها سلفه في المجتمع الكنسي، وطرد عددا كبيرا من الذين اشتروا المنصب من سلفه[٢٤٠].

وعندما كان الإيطاليون يراقبون عن كثب إجراءات البابا الجديد انتظاراً منهم اللحظة المناسبة لإقناع البابوية بالعودة الى الكنيسة الأم، فلا غرابة أن تطُرح وبقوة مسألة العودة إلى روما ضمن نطاق السياسة البابوية، غير إن البابا لم يتمكن حتى وفاته سنة ١٣٦٢ من تسوية جميع الخلافات بين فئات العالم المسيحي من قبيل استمرار المعارك الفرنسية – الانجليزية(حرب المائة عام ١٣٣٧-١٤٥٣) وفشل الدبلوماسية الكنسية في التوصل الى حل يقضي على التنافس وينهي الصراع الذي انعكس سلباً على مجتمعات وشعوب الغرب الاوربي[٢٤١]، وبالنظر إلى تأزم الموقف الداخلي والخارجي واستمرار المطالب الايطالية، عمل البابا الجديد غيوم دو غريمور الذي جلس على كرسي البابوية باسم أوربان الخامس Orban V (١٣٦٢-١٣٧٠)، على متابعة الإصلاحات التي استنها سلفه، وأعلن عن استعداده العودة إلى روما وهجر أفينيون ووافق الامبراطور شارل الرابع (١٣٤٦-١٣٧٨) على ذلك وعندما وصل الخبر إلى ملك

---

(١) ادوار بروي, المصدر السابق, ص٤٦٥.

(٢) Fisher,Sydney Nettieton, Op, Cit, P:121.

(٣) Joseph McCabe, crises in the history of the papacy,G.P. Putnam's Sons,New York, 1916,P.165.

فرنسا شارل الخامس(١٣٦٤-١٣٨٠) أرسل على الفور سفارة رسمية تبلّغ البابوية بعدم موافقة الملك على ذلك ومعارضته الشديد لهذه الخطوة[٢٤٢].

لم يلتزم البابا بتحذيرات الملك الفرنسي وأصر على ترك أفينيون فأبحر من مرسيليا في الثلاثون من نيسان سنة ١٣٦٧ ووصل روما ودخلها دخول الظافرين، وأسرع بإصلاح نظام الكنيسة الأم في إيطاليا، وعقد بعض التحالفات مع النبلاء وكبار رجال الدين والأمراء الألمان وصاحب بوهيميا ونابولي وانتظر وصول الإمبراطور شارل الرابع ليؤديا فروض الصلاة معا، تزامن مع وصول روما بطريرك القسطنطينية حنا الخامس، وكان سفراؤه يعرضون عليه منذ خمسة عشرة عاما أمر خضوعه لكنيسة روما، نضير حصوله على دعم معنوي وعسكري يواجه به أطماع الدولة العثمانية في أراضيه، وبعد لقاءه بالبابا وتقديم التهاني لتسنمه مهام الكرسي الرسولي وتقديم الولاء والتعهد بالتعاون ومساندة الكنيسة الغربية وحماية العقيدة الكاثوليكية، أعلن البابا ضرورة إعداد حملة صليبية جديدة لمساعدة كنيسة القسطنطينية ودفع الخطر العثماني عنها حمايةً للعقيدة المسيحية[٢٤٣].

ولكن الحرب بين فرنسا وإنجلترا نشبت من جديد، وترك البطريرك حنا الخامس روما دون أن يحصل على ما هو أكثر من وعد، وظل أوربان الخامس قلقاً في إيطاليا بين العودة إلى أفينيون وبين نصائح الكرادلة الفرنسيين له بضرورة التوفيق بين انجلترا وملك فرنسا شارل الخامس، تحت هذه الضغوط حاول في سنة ١٣٧٠ أن يترك إيطاليا التي لم يمكث فيها غير ثلاث سنوات ولكن أهالي روما طلبوا منه البقاء لكنه لم يمتثل لهم وعاد أدراجه إلى مرسيليا ومنها إلى أفينيون التي وصلها نهاية ١٣٧٠ وتوفي في نفس السنة[٢٤٤]، وخلفه البابا غريغوري الحادي عشر Gregory XI (١٣٧٠-١٣٧٨)،

---

(١) B.A. William Henry Brown, Op, Cit, P:106.

(٢٤٣) جلال يحيى, المصدر السابق, ص٩٨.

(٢٤٤) جان بيرنجيه وآخرون, المصدر السابق, ص٥٧.

الـذي حـاول أن يجمـع الأمـراء المسـيحيين ضـد الدولـة العثمانيـة وعنـدما قامـت أسـرة فيسكونتى سنة ١٣٧٥ بثورة في ممتلكات الكنيسة، خاض حروب طويلة لاسترداد أملاك الكنيسة وفي سبيل ذلك، أباد عددا كبيرا من الرعايا غير المسيحيين الكاثوليك، ونكث عهده بـالعفو عـن سـكان بلـدة كازينـا Kazina الثـائرين ضـد الكنيسـة لكثـرة الضـرائب والقوانين المجحفة بحقهم، وقتلت قواته أغلب من كان فيها من رجال ونساء وأطفال ما يقارب ٤٠٠٠ من سكانها المتمردين ضد الكنيسة[٢٤٥].

أفزعت هذه الوحشية القديسة كاترين Katrin السينائية الإيطالية (١٣٤٧-١٣٨٠) فكتبت إلى البابا غريغوري الحادي عشر تقول: "**نعم إن عليك أن تسترد الأملاك التي خسرتها الكنيسة، ولكن عليك أكثر من هذا، أن تسترد جميع الخراف التي هي كنز الكنيسة الحقيقي، والتي تحل بها الفاقة بحق إذا خسرتها ... عليك أن تضرب الناس بسلاح الصلاح والحب والسلم، فإن فعلت كسبت به أكثر مما تكسب بسلاح الحرب، وأنا حين أسأل الله عن خير الطرق لنجاتك، وإعادة الكنيسة إلى حالتها الأولى، وعودة العالم أجمع، لا أجد غير كلمة السلم... السلم...السلم، فبحق المنقذ المصلوب عد إلى السلم**"[٢٤٦] ولكسب ود المسيحيين ومؤازرتهم وتهدأت الأوضاع قرر العودة إلى روما، فأقلع من مرسيليا عائداً إلى روما التي دخلها في السابع عشر من كانون الثاني سنة ١٣٧٧ وبقي فيها وهو يحن إلى أفينيون إلى حين وفاته سنة ١٣٧٨[٢٤٧].

وهكذا انتهى الأسر البابلي، وإن كانت العودة إلى روما غير نهائية ذلك أن الكرادلة الفرنسيين كانوا لا يرغبون في البقاء فيها وبقي الكثير منهم في أفينيون، حيث احتفظوا ببعض الادارات البابوية وفي روما نفسها كان الأهالي والنبلاء لا يطيعون رغبات البابا وزادت الدعاية عن مساوئه واستخدامه العنف ضد الأهالي واستخدامه

---

(١) Jeremiah O' sullivan , Op . Cit, p:179.

(٢) بسام سخيطة, المصدر السابق, ص١٥١.

(247) Bellay,Du, Martin, Op, Cit, P:168.

القسوة في جمع الضرائب والأموال، ولزيادة الاوضاع سوءً، فكر البابا في الهرب من روما ولكن المنية تجلت به، وكان يعلم أن السلطة البابوية مهددة بالأحداث القادمة.

المبحث الثالث

احتدام الصراع البابوي والجهود الفرنسية في ارساء السلام الديني العالمي (١٣٧٨-١٤١٧)

شهدت الكنيسة الكاثوليكية بعد عودة البابوية إلى روما، مرحلة عصيبة لم تمر بها الكنيسة الغربية طيلة وجودها كمؤسسة دينية، بل حتى اثناء وجود الكنيسة في أفينيون، عكس التوقعات التي كانت سائدة بين المسيحيين بأن الأمن والاستقرار سيعود وكذلك الامتيازات المادية، فضلاً عن عودة هيبة وقدسية البابوية بعودتها إلى كنيسة القديس بطرس، وأنها ستكون فرصة ذهبية بالنسبة للكرادلة الإيطاليين في إعادة مركزية العالم المسيحي إلى روما والتمتع بامتيازاتها والانتقام من كرادلة أفينيون الذين أساءوا معاملتهم سابقاً، لكن ما يؤسف له أن كل هذه الطموحات لم تتحقق بسبب زيادة الانشقاقات الدينية والتنافس على الكرسي الرسولي واستمرار محاولات مجلس الكرادلة الفرنسي في انتخاب بابا من بينهم وعودة الزعامة الدينية إلى فرنسا، ولم ينتج عن هذه الصراعات سوى زياد الهوَّة الدينية وقيام الحروب الأهلية المذهبية بسبب اضطهاد الكنيسة والتاج الفرنسي للمخالفين، هذا من جهة, والصراعات الدينية بين ابناء المذهب الواحد من النبلاء والكرادلة الإيطاليين والفرنسيين، من جهة أخرى، بل الأسوأ من ذلك هو وصول ثلاثة باوبات إلى الكرسي الرسولي في آن واحد، يتبادلون اللعنات ويكفَّرون بعضهم البعض مما ساهم في ضياع رعايا الكنيسة وزيادة الانشقاق الديني حتى انعقاد مجمع كونستانس وتحقيق السلام الديني العالمي، هذا ما سنعالجه في هذا المبحث.

حدة التنافس الفرنسي- الإيطالي على زعامة الكرسي الرسولي:

سعى مجلس كرادلة روما وكبار رجال الدين والاساقفة إلى توحيد المسيحيين تحت خيمة بابوية روما بزعامة بابا واحد في عموم أوربا الغربية، ففي السابع من نيسان سنة ١٣٧٨ التقى ولأول مرة المجمع السري لمجلس الكرادلة في روما، بعد انقطاع دام ستة وسبعين سنة لانتخاب بابا جديد يخلف غريغوري الحادي عشر، إذ طبقا للأعراف الكنسية المتعارف عليها[٢٤٨]، كان يتعين على الكرادلة الاجتماع في نفس المكان الذي أسلم فيه البابا روحه إلى بارئها لانتخاب خلفاً له، فكان عدد الكرادلة الإيطاليين أربعة فقط بينما كانت البقية الباقية من الكرادلة الفرنسيين وهي أغلبية ساحقة، والمتلهفين لعودة البابوية إلى أفينيون حيث النعيم والترف المادي والنفوذ، فأرادوا انتخاب بابا فرنسي يعود بهم إلى أفينيون، ولكن شعب روما احتشد منه ما يقارب عشرين ألفا أمام القصر الباباوي الذي انعقد فيه مجمع الكرادلة، وهو عدد هائل بالنسبة إلى القصر وارتفعت الصيحات والهتافات، وقرع الجمهور أبواب القصر وجدرانه مطالبين المجتمعين بانتخاب بابا إيطالي الأصل منادين: "**روماني.. روماني.. نريد رومانيا، إذ لم تستطيعوا، فليكن إيطالياً**"[٢٤٩].

أما الكرادلة الفرنسيون، فعلى الرغم من تشكيلهم الاغلبية في المجلس البابوي، إلا أنهم استسلموا لرواسب الانشقاقات الدينية التي شهدتها الكنيسة الكاثوليكية سواء تلك التي في روما أو التي أسست في أفينيون، فكانت من تبعاتها الحقيقية هو استمرار الخلافات العنصرية والدينية بين أفرد المجتمع الفرنسي، لا سيما الكرادلة المتعصبين الذين لم تتفق آراءهم حول مرشح واحد، وانشقوا فيما بينهم إلى فرنسيين جنوبيين أصروا على انتخاب بابا من الجنوب الفرنسي، وشماليين عارضوهم في ذلك لأنهم أرادوا شخص من بينهم، وبذلك فوتوا عليهم الفرصة بالتصويت إلى جانب الإيطاليين الأربعة الذين قرروا انتخاب

---

(١) Barraclough, Geoffrey, The Medieval Papacy, London, Thames and Hudson, 1968,P:199.

(٢) جلال يحيى، المصدر السابق، ص٨٥.

بارتولوميو برينيانو Bartolomeo Brignano أسقف كنيسة نابولي، إذ اتفق الكرادلة معه قبل انتخابه أن يتخلى بعد عدة أيام عن كرسي البابوية، مقابل ترفيعه من مرتبة اسقف الى كاردينال[٢٥٠]، لأن أنظار المجتمعين كانت تتجه لاختيار كاردينال فرنسي من جنيف لمنصب البابا ولم يتجرأ الكرادلة على إعلان نتيجة الانتخاب على الشعب لأن مطالب أهل روما أصبحت في اليوم التالي أكثر وضوحاً وبلغت أسماعهم من الشارع هتافات: "**يجب أن يكون البابا رومانيا.. والويل لكم إن لم يكن كذلك**" [٢٥١] فما السبيل الواجب على الكنيسة اتباعه لامتصاص غضب الجمهور وتهدئة خواطره؟.

وللخروج من هذه الأزمة قرر مجلس الكرادلة خديعة الشعب الروماني لفترة مؤقتة حتى يتم لهم انتخاب ما يخدم مصالحهم، وحينها عقد المجتمعون آمالهم على أحد الكرادلة الرومانيين الذي يُدعى تومبالد الروماني الأصل ليخدعوا الجماهير بأن يخرج لهم ويقول "**أنا البابا الذي تم انتخابه ليجلس على الكرسي الرسولي**"، لكنه خشيّ انتقام الجمهور عندما يكتشف الخديعة، ولكن نتيجة الضغوط الكبيرة التي مارسها عليه الكرادلة، أطل من شرفة القصر وهو خائف شاحب الوجه وأخذ يردد قائلا : "**أنا لستُ البابا المنتخب.. لقد انتخبوا غيري**"[٢٥٢].

وهنا شكلت الفوضى وضجيج الحاضرين فرصة مناسبة أسعفت البابا والكرادلة الإيطاليين، ومن حسن الحظ لم يسمع الحاضرون صوت البابا المنكر من شدة الهرج والمرج وهتافات الجماهير المحتشدة في روما، التي طربت بالفوز وهم يرونه محاطاً

---

(١) القس: هو الأب المسؤول عن أبرشية مكونة من عدد من الكنائس داخل إقليم معين ويترأس القائمين على تلك الكنائس، أما الكاردينال: فهو عضو في مجلس الكرادلة التي تمثل الهيئة العليا في الكنيسة تساعد البابا في إدارة الكنيسة الكاثوليكية والمجلس الاستشاري، والكاردينال يلي البابا في مرتبته مباشرة، ويكون منصبه منفصلاً عن الوظائف الكنسية، فلا يلزم أن يكون أسقفاً، فيما يتم اختيار البابا من بين مجموعة من الكرادلة. للتفاصيل ينظر: الموسوعة المسيحية.

(٢) Denis C. Meyer، Op، Cit.، P:69

(١) جان بيرنجيه وآخرون، المصدر السابق، ص٤٩.

بالكرادلة لتأكيد الخديعة، وعانى الكردينال البديل تومبالد لمدة ساعتين إلى أن غادر الجمهور ساحة القصر، من إثم الزور والبهتان الذي أقحموه فيه[٢٥٣]، وبعد عملية الانتخاب اختبأ الكرادلة في قلاع وقصور روما لتفادي سخط وغضب الرومانيين في حال اكتشاف الخطة، ولم يظهروا إلا بعد أن اطمأنوا إلى هدوء العاصفة، فقاموا باحتفال رسمي بتنصيب الأسقف بارتولوميو بريانو زعيماً للكرسي الرسولي باسم أوربان السادس Urbain VI (١٣٧٨-١٣٨٩)، وسرعان ما أدرك الكرادلة خطأهم في انتخابه ولو لمدة مؤقتة، ووقفوا على حقيقة أنه أصبح صاحب الأمر والنهي وأنه إنسان متعطش للسلطة، ورجل دين صارم في تنفيذ رغباته وقراراته[٢٥٤].

حكم أوربان السادس العالم المسيحي باسم الكنيسة بسياسة جديدة تختلف عن سابقيه، فقام بتعيين أعضاء مجلس الشيوخ وكبار موظفي الدولة، وأعلن عزمه على تعيين عدد من الكرادلة الإيطاليين، لتكون لإيطاليا الأغلبية في مجلس الكرادلة، وسرعان ما انعكست سياسته المجحفة بحق الرعايا الغير إيطاليين على المجتمع الفرنسي المتعصب كاثوليكياً، وكانت سبباً مباشراً في تعميق الانقسام الكنسي وزيادة الخلاف الديني بين كرادلة روما وكرادلة فرنسا[٢٥٥]، لا سيما وأن رجال الدين الفرنسيين كانت لهم الأغلبية في مجلس الفاتيكان وأنهم شهدوا تنصيبه المخالف لتقاليد وأعراف كنيسة روما، فضلاً عن اتباعه(البابا) أساليب تتعارض مع أخلاق المسيح، فكان طبيعياً أن تتوالى الاجتماعات من قبل الكرادلة الفرنسيون والتي نتج عنها قرارهم بإعلان الثورة على أوربان السادس واعتباره غير شرعي وذلك لاختياره تحت ضغوط غوغاء أهالي روما، وبالفعل فقد أعلنت الأغلبية الفرنسية في مجلس الكرادلة في العشرون من أيلول سنة ١٣٧٩ إن الفرنسي روبرت دو جينيف هو البابا الحق الشرعي وجلس البابا الجديد على كرسي

---

(٢) Infallibility of the pope in matters of faith and morals, proclaimed by the Vatican Council; 1870,P.112.

(٣) Fisher، Sydney Nettieton، Op، Cit، P.. 134

(١) جلال يحيى، المصدر السابق، ص٨٩.

البابوية وتم الاحتفال به في مدينة أفينيون بأسم كليمنت السابعClément VII (١٣٧٨-١٣٩٤) وهكذا أصبح للكنيسة الغربية اثنان من البابوات في آن واحد يتبادلان اللعنات، الأول أوربان السادس الذي تعترف به غالبية العالم المسيحي في ألمانيا وبوهيميا والبرتغال وهنغاريا، والثاني كليمنت السابع الذي تعترف به فرنسا واسكوتلاندا وإسبانيا وأصبحت الكنيسة الكاثوليكية الغربية منشقة بينهما تدار حسب أهواؤهما[٢٥٦].

كنيسة أفينيون الغير شرعية وتدهور أوضاع العالم المسيحي:

اتبع ملوك فرنسا سياسة خاصة تجاه الكنيسة والعقيدة المسيحية، جعلت تلك السياسة المجتمع الفرنسي عنصرياً متعصباً، لأنهم يرون أن فرنسا هي الأولى بخلافة القديس بطرس وأن ملوكهم الأحق بـ شارته المقدسة، لذا نجد رجال الدين الفرنسيون بمختلف رتبهم الكهنوتية مساندين لسياسة ملوكهم القاضية باستقلال كنيسة فرنسا عن روما، ومؤيدين لمطالبهم بحماية الكرسي الرسولي[٢٥٧]، وهذا بطبيعة الحال يزيد الانقسام الكنسي ويديم الخلاف الديني نتيجة اتباع كل كنيسة لقوانين ساستها والمناسبة لطموحاتهم، وما عزز هذه الفكرة لديهم هو تأييد ملك فرنسا شارل السادسCharlesVI(١٣٨٠-١٤٢٢) لكنيسة أفينيون(الغير شرعية بنظر مجلس روما) وتقديم الدعم والحماية اللازمة لها، وما زاد الأمر تعقيداً، هو تنافس أعضاء مجلس الكرادلة وصراعهم على الكرسي الرسولي، وهو أمراً لا بدَّ للعالم المسيحي من القبول به والامتثال إليه، والمتمثل بوجود كنيستان تمثلان المذهب الواحد، إذ اخذ كل من البابوان يسعى إلى فرض وجوده وتقوية مركزيته وإلغاء الاخر، ولتجسيد هذا المنطلق نفذ أوربان السادس خطته القاضية بتعيين تسعة وعشرين كاردينالاً إيطاليا جديداً في كنيسة روما

---

(٢) Denis C. Meyer، Op، Cit، P. ..70

(٣) Infallibility، Op، Cit، P.172.

لإقصاء الكرادلة الفرنسيين من المجلس الأمر الذي اغضب الفرنسيون وزادهم ابتعاداً عن كنيسة روما وساهم باستمرار الانشقاق الديني عنها[٢٥٨].

ولم يقتصر الانشقاق على السياسة الكنسية والبابوات بل انعكس على الشعوب بشكل مباشر، فأصبح نصف العالم المسيحي يرى أن النصف الآخر زنادقة مجدفون خارجين عن الدين وأخذوا يوجهون التهم الغير أخلاقية تجاه بعضهما البعض، فضلاً عن الأساليب الاجتماعية الاخرى من قبيل الممارسات التجارية والرسوم المفروضة والتعامل الإنساني في المجتمع المسيحي البسيط، إذ أمتنع تجار روما والبندقية عن مزاولة التجارة مع تجار فرنسا، ونتيجة لذلك وصلت سمعة الكنيسة إلى مستوى متدني في نفوس المسيحيين[٢٥٩]، وانعكس ذلك على زيادة الصراعات الدينية بين كرادلة روما وكرادلة أفينيون وتسبب بنشوب حروب أهلية في البلدان المسيحية وبالأخص فرنسا بين أبناء الشمال والجنوب والتي تداخل فيها التنافس الاقتصادي وعدم الاتفاق الديني حول مرشح فرنسي يمثلهم في مجلس كرادلة الفاتيكان السابق، كل تلك الخلافات والفوضى كانت قائمة تحت خيمة الكنيسة المقدسة، حتى نددت القديسة كاترين بالبابا كليمنت السابع وقالت به: "**إنه يهوذا الأسخريوطي**"[٢٦٠] بينما أطلق القديس الفرنسي فنسنت فيريرا (Vincent Ferreira) الأسم نفسه على البابا أوربان السادس وأدعت كلتا الطائفتين أن القربان المقدس الذي تقدمه الطائفة الأخرى باطل وأن الأطفال الذين تعمّدهم والتائبين

---

(١) R.H. Davis, Op, Cit,P.231.

(٢) Jeremiah, sullivan , Op . Cit, P.198.

(١) احد تلاميذ المسيح الإثني عشر ويسمى أيضا بيهوذا سمعان الإسخريوطي، يهوذا معناه بالعبرية(الحمد) ومن لقبه الإسخريوطي نستدل بانه يعود إلى مدينة تسمى قريوط أو قريوت تقع في جنوب مملكة يهوذا والتي ذُكرت في العهد القديم، وبحسب الأناجيل القانونية فإن يهوذا الإسخريوطي هو التلميذ الذي خان يسوع وسلمه لليهود مقابل ثلاثين قطعة من الفضة وبعد ذلك ندم على فعلته ورد المال لليهود وذهب وقتل نفسه، وبعد قيامة يسوع من الموت اختار الرسول متياس بديلا عن يهوذا ليكون من جملة الاثني عشر. للتفاصيل ينظر:
Andrew pettegree, Op, Cit, P.173.

الذين تتلقى اعترافاتهم والموتى الذين تمسحهم يبقون في حالة من الخطيئة الأخلاقية غارقين في الجحيم وفي الأعراف إذا عاجلهم الموت[٢٦١].

ومن الطبيعي في ظل هكذا ظروف أن تنتشر حرب العصابات وتُحاك المؤامرات بين انصار البابوات إحداهما ضد الآخر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كثرة محاولات التخلص من البابا غير الشرعي في نظر كرادلة روما والذين تآمروا بالفعل على البابا أوربان السادس ليقتلوه سنة١٣٨٥، لكنه سرعان ما اكتشف ما يُحاك ضده من مؤامرة خطيرة[٢٦٢]، فأمر بالقبض على المتآمرين وعذبهم ثم أعدم سبعة من كبار قادتهم، وهكذا استباحت قوات كل من البابوان كنائس البابا الآخر ودمرتها وأطعمتها النيران بعد سلب محتوياتها الثمينة ولم يعد هناك من حديث يتداوله الناس سوى قضايا السرقات وانتهاك اعراض النساء وعمليات الإبادة الجماعية التي أقدم عليها أنصار الطرفين فعم الرعب والفوضى أرجاء أوربا وخاصةً في إيطاليا وفرنسا، وعندما توفي أوربان السادس بعد سقوطه عن ظهر جواده سنة ١٣٨٩، اجتمعت المصادر التاريخية كافة على التنديد بشخصيته[٢٦٣]، إذ وصفته بقاتل هيبة البابوات وشارب النبيذ والوحش المتعطش للدماء والقادر على ارتكاب أنواع الجرائم والشرور جميعها كما أطلق عليه اسم البابا الطاغية المغتصب، بينما سماه رئيس أساقفة الكاثوليك في روما بوندريان Bondrian بالمجنون في حين أكد القس موريMori أنه كان مهووساً بحب المال والجاه[٢٦٤].

انهيار المؤسسة الدينية وتأزم الخلافات المذهبية:

تسبب التنافس الكبير بين البابوات على زعامة الكرسي الرسولي في دخول العالم المسيحي بأزمة حادة وخلافات مستمرة نتج عنها حرب عصابات أهلية ترأسها بعض الكرادلة والنبلاء من اتباع الكنيستين(روما– أفينيون)، حتى اصبح الأهالي يتوقون للعيش

---

[٢] بسام سخيطة، المصدر السابق، ص١٦٠.

[٣] William Grimehaw, Op, Cit, P. 87.

[١] ول ديورانت، مج٥، المصدر السابق، ص٢١٧.

[٢] Fisher, Sydney Nettieton, Op, Cit, P.76.

بسلام في ظل عدالة المؤسسة الدينية وانتهاء حالة الانقسام الكنسي داخل الكنيسة الواحدة، فكان طبيعياً أن تتنفس دول أوربا الغربية الصعداء بعد موت البابا أوربان السادس، معتقدةً أن ذلك سيقضي على الانقسام البابوي وانتهاء عهد تمزق الكنيسة الغربية[٢٦٥]، إذ لم يبق غير بابا أفينيون كليمنت السابع ولكن هذه الآمال باءت بالفشل، فقد سارع كرادلة البابا الراحل الأربعة عشر الذين ظلوا على قيد الحياة بعد إغراق أوربان خمسة منهم وفرار اثنين إلى أفينيون للانضمام إلى كليمنت السابع، إلى الاجتماع وانتخاب بابا جديد خوفاً من فقدان مناصبهم فوقع اختيارهم على الاسقف بيترو توماتبشيللي Pietro Tomatbachelli باسم بونيفانس التاسع Boniface IX (١٣٨٩-١٤٠٤)، والذي لم يتجاوز الثلاثون من عمره وكان شبه أمي ولا يصلح لمنصب راعي الكنيسة ولا يفهم مضمون الوثائق التي يوقعها بل إنه بصعوبة يوقع عليها حتى أن أبسط الأمور والقضايا كانت تضعه في مأزق وإحراجات كثيرة[٢٦٦]، وكان سيمونياً إذ لم يبق هناك منصب كنسي واحد أو أية وظيفة دينية أخرى لم يتاجر بها، فقد كان يوزع المناصب والوظائف على من يدفع له أكثر حتى ولو لم تتوفر فيه الشروط المطلوبة للوظيفة، وكان يتسلم من رجل الدين المعّين في الوظيفة ثلاثة أضعاف ربع الوظيفة، كما وثق ذلك رئيس ديوان الكنيسة ديترخ فون نيميسي Dietrich von Nimesse في تلك الحقبة ويؤكد لنا أعمال بونيفانس التاسع في قوله: **"لا أعتقد أن هناك إنساناً ما، على وجه الأرض تفنن في إيجاد الطرق والأساليب للبحث عن الثروة والغنى مثلما فعل بونيفانس التاسع"**[٢٦٧].

أما فرنسا فلم تنجو من تأثيرات وصول بابا جديد لروما، فقد خابت آمال الشعب الفرنسي الذي كان يتوق إلى عودة السلام الديني بعد ان سببت لهم الانقسامات الكثير

---

(٣) Meyer von Knonau, Jahrbücher des deutschen Reiches unter Heinrich IV. und Heinrich Vol.2, Leipzig, 1984, P.375.

(١) William Grimehaw, Op, Cit, P:89.

(٢) بسام سخيطة, المصدر السابق, ١٦٢.

من الضغوطات الاقتصادية والنزاعات الأهلية، فضلاً عن ضياع هيبة العقيدة الكاثوليكية من شدة اختلاف البابوات وكثرة تبادل اللعنات فيما بينهم والتي تسببت في تولد الاحقاد والضغائن بين رعايا الكنيستين(روما–أفينيون)، وهذا ما حدث عندما وصلت فرنسا أنباء تعيين بابا جديد في روما خلفاً لأوربان السادس[٢٦٨]، أطلقت كنيسة أفينيون متمثلةً بالبابا كليمنت السابع على الفور قذيفة اللعنة والحرمان من الدين ورحمة الكنيسة عليه، جاء فيها: **"لتصب لعنات العهدين القديم والجديد جميعها على رأس بابا روما الذي نصب نفسه على عرشه، وليقطع السيف الإلهي رأس البابا الدجال وأتباعه، ولتنطفئ الى الابد مصابيح حياتهم ولتحرق ارواحهم في نار جهنم وليمطر الله اللعنات على جميع اعوان البابا المرتد عن الدين.... نعم لينهمر عليهم غضب الخالق الاعلى وليحرموا جميعا من الكنيسة المسيحية ومن القربان الالهي المقدس على مر الدهور والعصور"**[٢٦٩].

أما البابا بونيفانس التاسع، فلم يقف صامتاً أمام اعتداء بابوية أفينيون على قدسية وظيفته العالمية، فلابدَّ له من التصدي لما يثار ضده من قبلهم حتى يحافظ على بقاء الكرسي الرسولي في كنيسة القديس بطرس، لذا قرر على الفور توجيه اللعنة إلى كليمنت التاسع، إذ طلب في اليوم التالي من الاسقف بالتازار كوساBaltazar Kusa الذي عينه اسقفاً على ابرشية القديس أوستاف ومستشاراً دائماً له، أن يكتب له لعنة أقوى وحرمانا أقسى ضد عدوه يكون اشد بشكل لا مثيل له، فامتثل بالتازار لطلبه على الفور وقدم نص اللعنة لتوجه الى المسيح الدجال في أفينيون[٢٧٠]، جاء فيها: **"الى الحاكم باسم الثوب الكهنوتي الغارق في اعماق التخمة والمحاط بجند من الشياطين... لقد استطعت ان تنصب نفسك مسيحياً دجالاً على الارض باسم كليمنت السابع، واتخذت مستشاريك من**

---

(٣) J. Gaudemet, "Le célebat ecclésiastique. Le droit et la pratique du XIe au XIII siècle," Zeitschrift für Rechtsgeschichte kan.,1982,P.265.

(١) جان بيرنجيه وآخرون, المصدر السابق, ٥٢.

(٢) Boyce kgray Cowan (ed)، Literature of Medieval History، New York ، 1981,P:192.

بين الكرادلة الشياطين...."[٢٧١]، كانت هاتان اللعنتان تُقرآن في كل صلاة تقام في الكنائس التابعة لكل من البابوان المتلاعنين[٢٧٢].

لكن هنا سنلاحظ تغيّر جذري ومنطقي بموقف الملك شارل السادس الذي اضطرته حالة الفوضى والتشتت التي وصل إليها المجتمع الفرنسي نتيجة الضياع بين بابوان للكنيسة الكاثوليكية في آن واحد، إذ أصبحت فرنسا على اعتاب حرب أهلية مذهبية بين فئات وطبقات المجتمع الفرنسي الذي انقسم بين المؤيد لبابوية أفينيون وهم طبقة النبلاء والارستقراطيين ورجال الدين الاكليروس وذلك لأنهم يتمتعون بامتيازات كثيرة ويتمركز تواجد هؤلاء في الجنوب، على العكس من الوضع الذي يعيشه ابناء الطبقات الأخرى من التجار وأصحاب المهن الأخرى المتعصبين لعقيدتهم الكاثوليكية، نتيجة قسوة البابا تجاههم وعدم شملهم بالعطف والرحمة البابوية لأنهم لم يرحبوا بفكرة وجوده كـ بابا ثانٍ للكنيسة، لأنه إجراء مخالف للكتاب المقدس وضياع لهيبة البابوية ولخلافتها المقدسة[٢٧٣].

ونتيجة طبيعية لكل ما تقدم ذكره، كان يتوجب على الملك شارل السادس أن يتحاشى حدوث تلك الصدامات المذهبية التي وصلت فرنسا إلى اعتابها، فما أن انتشر خبر وفاة البابا كليمنت السابع سنة ١٣٩٤ في أفينيون، حتى أسرع ملك فرنسا وملك أراغونا وكبار أساتذة جامعة باريس وحاكما موغرنتيا وبولونيا وحتى البابا بونيفانس التاسع ووجهوا رسالة إلى كرادلة أفينيون للتريث في اختيار بابا جديد خلفاً لكليمنت، واقترحوا فيها عقد اتفاق بين الكنيستين لإنهاء حالة التمزق والفوضى التي تعيشها الكنيسة الغربية بين باباوان، لكن كرادلة أفينيون الذين أشتد بهم الفزع من بطش بونيفانس التاسع الذي سيعتبرهم مذنبين وخارجين عن الدين، ضربوا بصالح الكنيسة عرض الحائط واستسلموا

---

(٣) ينظر ملحق رقم (١) نص اللعنة الكامل.

(٤) Cf. W. Goez, "Zur Persönlichkeit Gregors VII," Römische Quartalschrift, 1978, P. 21.

(١) Tout Thomas Frederick,Op,Cit,P.201.

لمصالحهم الذاتية فاجتمعوا وانتخبوا السيد بيترو دولونا خلفاً لبابا أفينيون الراحل وكان في منصب كادرينال أراغونا بأسم بينديكت الثالث عشر Benoît XIII (١٣٩٤-١٤٢٣)[٢٧٤].

وتماشياً مع محاولات التاج الفرنسي في التقريب بين الكنائس المسيحية لأنهاء حالة الانشقاق والتمزق التي يعيشها ابناء الدين الواحد، اقترح الملك شارل السادس أن يستقبل البابوان كلاهما ولكن البابا بينديكت الثالث عشر لم يقبل بهذا الاقتراح، كما لم يقبل به البابا بونيفانس التاسع واستمر النزاع والقطيعة بين الباباوان الرافضين للتنازل حتى توفي البابا بونيفانس في شهر تشرين الثاني سنة ١٤٠٤ فاختار كرادلته كوسيمو ميغليوراتي Cosimo Megaliorate تحت اسم أينوسنت الرابع Ainusent IV (١٤٠٤-١٤٠٦) رغم أنه لم يستمر في كرسي الباباوية غير سنتين، لكن عهده كان دموياً تجاه رعاياه[٢٧٥].

فقد استهل البابا الجديد عهده بقتل وجهاء روما العشرة الذين دخلوا إلى قصر الفاتيكان أوائل سنة١٤٠٥ ليفاوضوه في إعطاء روما حريتها من طغيان أنصار البابا واتباعه اثناء جمع الضرائب وفرض الرسوم الجديدة وكثرة استغلالهم والتعسف في معاملة الناس البسطاء واستغلال ولائهم لرمزية الكنيسة الأم، وحددوا مكان إقامتهم في الفاتيكان، لكنه قتلهم جميعاً وهم يهمَّون بالخروج واعتبرهم محرضين لرعاياه المسيحين على التمرد ضد الكنيسة وتعاليم البابوية[٢٧٦]، وألقيت جثثهم من نوافذ قصر الفاتيكان ولكن شعب روما انفزع من بشاعة الموقف وأخذته الحمية المسيحية على أبناء جلدتهم المسيحيين، فأحرقوا منازل الكرادلة من مؤيدي البابا وأقاربه المقيمين في القصور في القسم الغربي من المدينة وحدثت مجازر كثيرة بين الأهالي أثناء الليل، وفر البابا أينوسنت من روما

---

(٢) Casati.C.Charles,Lettres Royaux et Lettres Missves inedites,Paris,1877, P:22.

(١) Denis C. Meyer, Op, Cit, P: 73.

(٢) بسام سخيطة, المصدر السابق, ص١٦٣.

وهجموا على الفاتيكان بقيادة الأسقف جوفني كولنا Jovni Kulna فأحرقوا القصر وبعثروا السجلات البابوية فاختبأ البابا في منطقة فيتوريو Vittorio ولم يعد إلى روما إلا بعد انتهاء الفوضى والسيطرة على الأوضاع واستتباب الأمن فيها من قبل حرس الفرسان(٢٧٧)، ولأنه كان يكره الكاردينال بالتازار كوسا واعتبره جزءً من الفوضى والتجاوز على قدسية الكنسية، فعبر له عن رغبته في عزله عن الكاردينالية، فما كان من الكاردينال كوسا إلا أن دس له السم فمات وجاء ذلك في الاتهام الرسمي الذي صدر من الكنيسة بحق كوسا سنة ١٤٠٦ (٢٧٨).

البابوات الثلاث والدور الفرنسي في أزمة الكرسي الرسولي:

منذ التأسيس الأول لكنيسة أفينيون وهي غير شرعية في نظر اتباع الكنيسة الأم(روما– كنيسة القديس بطرس)، فكان من الأولى بالتاج الفرنسي ترك المصالح الشخصية جانباً، والسعي لأنهاء كنيسة أفينيون والعودة إلى رعاية كنيسة روما للقضاء على حالة الانقسام والفوضى التي يعاني منها عموم المسيحيون في أوربا الغربية وعلى وجه الخصوص أبناء فرنسا وإيطاليا، لكن حدث العكس من ذلك، إذ بعد وفاة البابا إينوسنت الرابع، حاول مجلس كرادلة أفينيون اغتنام الفرصة والتأثير على مجلس كرادلة روما والضغط عليهم لتوحيد زعامة الكرسي الرسولي باسم بابا أفينيون حرصاً منهم على عودة الزعامة العالمية للكنيسة الكاثوليكية إلى فرنسا(٢٧٩)، تلك الجهود التي لاقت موافقة من بعض الكرادلة والنبلاء الإيطاليين، وتفادياً لاتساع هوّة الخلاف الديني وانقسام الكرادلة على انفسهم نتيجة الفوضى التي عمت روما بسبب معارضتهم مساعي الكرادلة الفرنسيين، سارع كاردينالات البابا الراحل إلى الاجتماع في قصر الفاتيكان وانتخبوا أنجيلو كورّبر خلفاً لأينوسنت الرابع تحت اسم غريغوري الثاني عشر Gregory

---

(٣) J.M. Maclnnis, Op, Cit, P: 72.

(٤) جان بيرنجيه وآخرون, المصدر السابق, ص٧٩.

(١) Vita anonyma S. Johannis Gualberti, edited by Baethgen in mghss,1938.P.105.

XII(١٤٠٦-١٤١٥) الذي كان من البندقية وهو أحد بطارقة القسطنطينية وفي نفس الوقت كاردينالاً في الكنيسة الغربية[٢٨٠]، أرادو الكرادلة هذه المرة أن يتبعوا سياسة تُلزم البابا السير وفق تعاليم المسيحية الحقة، تكون مهمتها الأولى القضاء على الخلافات القائمة وانهاء الانشقاق الديني بين أبناء الكنيسة الواحدة، فقطع البابا أمام مجلس الكرادلة عهداً أقسم فيه بالعمل على توحيد الكنيسة بكل الوسائل المتاحة حتى لو يتخلى عن البابوية إذا اقتضت الضرورة ذلك، فأقسم الكاردينالات جميعا على الإنجيل بأنهم سوف يكافحون مع البابا من أجل توحيد الكنيسة مع بابوية أفينيون، وسُجل ذلك في بروتوكول رسمي وقعه جميع الحاضرون[٢٨١].

وتنفيذاً لسياسة البابا الجديدة ومساعيه لتوحيد المسيحيين، دعى البابا غريغوار الثاني عشر البابا بينديكت الثالث الى الاجتماع به في مجمع مسكوني يعقد في الفاتيكان بحضور كبار الكرادلة من الطرفين لمناقشة نقاط الخلاف والتوصل إلى صيغة توافق عليها جميع الأطراف، وافق بينديكت أن يستقبل هذه الدعوة في حالة قبول غريغوار القيام هو أيضاً بنفس العمل ويكرر الاجتماع في قصر أفينيون، غير أن حاشية البابا غريغوار أشاروا عليه بأن لا يوافق على هذا الاقتراح[٢٨٢]، فما كان من بعض الكرادلة إلا أن انسحبوا إلى مدينة بيزا Pisa بعيداً عن تأثير الحاشية المغرضين، ودعوا إلى عقد مجلس عام يختار بابا يرتضيه العالم المسيحي الغربي قاطبة، وعندما شعر الملك الفرنسي برغبة البابا بينديكت بالانضمام تحت خيمة روما واعادة وحدة الكنيسة بزعامة ايطاليا، طلب الملك من البابا الاستقالة من كرسي البابوية وعدم مزاولة مهامه الدينية، فلما رفض ذلك للمرة الثانية أعلنت فرنسا عدم ولائها له واتخذت موقف الحياد من البابوان

---

(٢) جان بيرنجيه وآخرون, المصدر السابق, ص١٠٢.

(١) William Grimehaw, Op, Cit, P:91.

(٢) P. Cousin, Abbon de Fieury-sur-Loire, Paris, 1954, P.139.

المتخاصمين، هذا على الصعيد الرسمي الذي يضم الملك والبرمان وجزء من جامعة باريس[٢٨٣].

أما موقف الشعب الفرنسي من هذه الخلافات فتمثل بعودة الخلافات الدينية وتوتر العلاقة بين طبقات المجتمع والبلاط الملكي الذي اتبع سياسة العنف والشدة تجاه المخالفين لرغبة التاج الملكي والمؤيدين لكنيسة روما من جهة والمساندين لكنيسة أفينيون من جهة أخرى، فأصدر الملك شارل أوامره إلى الادميرال جاك روفينيه بتطويق العاصمة باريس بقواته العسكرية، خشية تطور الأوضاع سوءً بوصول الناقمين إلى قصره، ولكن انسحاب البابا بينديكت بعد أن تخلى عنه الكرادلة الفرنسيون، قلل من شدة التوتر القائم[٢٨٤]، إذ هجر الاخير أفينيون إلى إسبانيا وانضم إليه الكرادلة إلى الذين تخلوا عن غريغوار، وأخذ كل من البابوان المتنازعين يدعو إلى عقد مجمع خاص به، لذا تخلَّف الكرادلة عن حضور المجمعين المتزاحمين وأصروا جميعاً على ضرورة الدعوة إلى عقد مجمع ديني عالمي في مدينة بيزا وحدد له يوم الخامس والعشرون من آذار سنة ١٤٠٩[٢٨٥].

وفق تلك الظروف اصبحت رغبة الجميع في التوصل إلى صيغة يتفق عليها ممثلي طوائف المذهب المسيحي، لذا حاول مجلس الكرادلة أن ينعقد هذا المجمع وفق القانون الكنسي الرسمي, وبالفعل انعقد وفق النظام المعمول به، إذ حضره ٢٦ من الكرادلة وأربعة من البطارقة و١٢ من رؤساء الأساقفة و٨٠ من رؤساء الأديرة ورؤساء جميع طوائف الرهبان الكبرى و١٢٠ مندوب عن الجامعات من مدرسي اللاهوت و٣٠٠ بروفسور وعالم في القوانين الرومانية والكنيسة وسفراء من جميع الحكومات الأوربية ما عدا هنغاريا ونابولي وإسبانيا واسكتلندا، وقد أعلن الكرادلة إن المجلس ديني كنسي

---

(٣) Mark Lowry, Op, Cit, P.210.

(١) Cf. among many authors C. Erdmann, Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens, Stuttgart, 1935, P.68.

(٢) Boyce , Gray Cowan, Op, Cit, P.201.

مشروع حسب قانون الكنيسة ومسكوني عالمي لأنه يمثل جميع طوائف العالم المسيحي[٢٨٦]، وأخذ المجمع بعين الاعتبار تخليص الكنيسة من صراع بابوان دون كرادلة ومن كرادلة دون باب، لذلك دعى اعضاء المجلس البابا بينديكت وغريغوري إلى المثول أمامه ليحتكمان إلى حل توافقي بين الجميع، ولكن المجمع فاجئ الجميع بإعلانه خلعهما كلاهما عندما لم يمتثلا أمامه، بل انتهى إلى تعيين بابا ثالث وهو الكاردينال بيترون فيلارجسPetron Villarges من مدينة ميلان بابا جديد تحت اسم اسكندر الخامسIskander V (١٤٠٩-١٤١٠) إلى جانب البابوان العجوزين وأعلن إنهما حاقدان على الكنيسة وغير صالحين لمنصب البابوية ومهرطقان فاسدان مرتدان عن المسيحية ولا يستطيع أحد منهما أن يصبح زعيم المسيحية[٢٨٧]، مما زاد الأمر تعقيداً والاوضاع سوأً.

وبذلك يتضح لنا إن الكنيسة المسيحية الغربية كان يمثلها قبل انعقاد مؤتمر بيزا المسكوني بابوان للمسيحية وقد أصبح عددهم الآن ثلاثة بابوات بعد انعقاده، فقد اعترفت به الدول الكبرى مثل فرنسا وبريطانيا وبولونيا وبوهيميا والتشيك والكثير من الدويلات في ألمانيا وإيطاليا إلا ان مملكة نابولي وبعض ممتلكات ألمانيا وهنغاريا كانت باقية على ولائها للبابا غريغوار الثاني عشر[٢٨٨].

أما البابوان السابقين فلم يتقبلا وجود بابا ثالث منافس لهما في السلطة والزعامة العالمية، إذ سارع غريغوار الثاني عشر إلى توجيه اللعنات والحرمان من الكنيسة إلى البابوان الآخرين بينديكت الثالث عشر وألكسندر الخامس، وحذى حذوه بينديكت وصب لعنات أكثر شناعة وقسوةً بأسلوب متطوف من حيث الشكل والمضمون، أما البابا ألكسندر الخامس الذي انتخبه مجمع بيزا المسكوني فقد قام عنه المجمع بهذه المهمة،

---

(٣) Denis C,Meyer, Op, Cit, P:81.

(١) ادوار بروي, المصدر السابق, ص٤٦١.

(٢) B.A. William henry brown, Op, Cit, P:105.

وفي الاجتماع الخامس عشر للمجمع المسكوني المنعقد في شهر أيلول سنة ١٤٠٩, أصدر المشتركون فيه اللعنة والحرمان على الباباوان العجوزين اللذين عزلتهما الكنيسة، لأنهما مجرمان بحق الكنيسة والمسيحيين ويستحقان الحرق بنيران محرقة محاكم التفتيش، إذ لم يسارعا إلى التنازل عن كرسي البابوية والخضوع لقرارات المجمع[٢٨٩].

وعندما شعر غريغوار الثاني عشر بغضب المجمع عليه وعدائه له، رأى إنَّ أسلم وسيلة هي الاختفاء عن الجمهور المسيحي وبذلك ينجو من العقاب والتنكيل به، وبعد أن استبدل ثيابه الكهنوتية البابوية بثياب عادية، كي لا يتعرف عليه أحد، ليستقل السفينة المجهزة له من قبل اتباعه ويغادر روما، إلا أن الجماهير كشفت نواياه في الهرب، فألقوا القبض عليه وقدموه إلى محكمة الكنيسة التي حكمت عليه بالإعفاء عن المهام الدينية الكنسية ومصادرة أمواله، واصبح كاردينال في كنيسة بورتو Porto ولكنه بالرغم من هذا القرار لم يستقل من البابوية[٢٩٠].

أما البابا المخلوع الآخر فقد هرب من أفينيون في الرابع من كانون الأول سنة ١٤٠٩ والتجأ إلى غابة بينيسكولا الإسبانية، إذ ترأس مجلس البابوية المنعقد من ثلاثة كاردينالات من اتباعه احتفاءً بقدومه، لكنه بقيَّ هناك يمارس سلطته الكنسية البابوية على أراغونا وقشتالة الموالية له، ولم يتنازل عن الباباوية، على العكس من البابا ألكسندر الخامس الذي أصيب بمرض عضال وتوفي في بولونيا سنة ١٤١٠ والذي حزنت عليه الجماهير المسيحية في أغلب دول أوربا الغربية[٢٩١]، لكن بعض المصادر التاريخية تذكر أن كاردينال بولونيا بالتازار كوسا هو الذي استدعاه إلى بولونيا وأجهز عليه في قصره في بولونيا ودس له السم المسبب للموت البطيء وقتله لتكون الساحة مهيئة له تماما في قيادة العالم المسيحي دينيا وإدارياً، في هذا الصدد يؤكد المؤرخ دو بوتر ذلك

---

(٣) جان بيرنجيه وآخرون, المصدر السابق, ص٥٦.

(١) Charles Purton Cooper, Op, Cit, P:221.

(٢) جلال يحيى, المصدر السابق, ص٩٨.

بقوله: **"لقد نقل كوسا البابا ألكسندر الخامس إلى بولونيا، وأعطاه وقتا ليعد ويرسل الحرمانات واللعنات إلى خصميه البابا غريغوار الثاني عشر والبابا بينديكت الثالث عشر وبعد أن انعدمت الحاجة إلى هذه الأداة الطيعة قرر التخلص منه ليحل محله"**[٢٩٢].

ويبدو أن هذا الحدث جاء فرصة ذهبية للكنائس الغربية للتخلص من حالة التمزق والانشقاق التي يعيشها العالم المسيحي مدة قرن من الزمن، وسيراً على العادة الكنسية المتعارف عليها في انتخاب البابوات، عقد مجلس الكنيسة الأعلى اجتماعاً في قصر الفاتيكان البابوي الذي توفي فيه ألكسندر الخامس في السابع عشر من آيار سنة ١٤١٠ وضم المجلس سبعة عشر كاردينالا وعدد من الأساقفة أغلبيتهم من مجلس الكرادلة الفرنسي، وانتهى المجتمعون إلى انتخاب بالتازار كوسا بابا جديد ليجلس على كرسي البابوية باسم يوحنا الثالث والعشرين Jean XXIII (١٤١٠-١٤١٥) وتم الاحتفال به في كاتدرائية القديس بطرس ليكون خليفة المسيح على الأرض، وعلى الفور اعترفت جميع بلدان دول أوربا الغربية به بابا شرعي وحيد وأصبح بمقدوره الدخول المظفر إلى عاصمة الباباوات الأم ومملكة الرسول بطرس المدينة الخالدة روما[٢٩٣].

تظافر الجهود الكاثوليكية وانهاء الانشقاق الديني العالمي:

تم انتخاب البابا يوحنا الثالث والعشرون بسرعة فائقة لتلافي تدخل مجلس كرادلة أفينيون وعودة الشقاق الديني، لكنه بالرغم من ذلك لم يلقِ قبول جميع دول وممالك أوربا الغربية لا سيما وانه متهم بقتل سلفه البابا ألكسندر، بالإضافة إلى أن كلا البابوان السابقين لم يتنازلا عن كرسي البابوية ويزاولان سلطتهما الروحية على اتباعهما، مما يعني عدم انتهاء الانقسام الديني داخل الكنيسة الكاثوليكية، عندها وجد البابا يوحنا أن واجبه الديني يحتم عليه الحرص الشديد على عدم تكرار الخلافات المذهبية وتشتت

---

[١] بسام سخيطة، المصدر السابق، ص١٦٤.

[٢] ادوار بروي، المصدر السابق، ص٤٦٢.

الرعايا المسيحيون[٢٩٤]، لذا أخذ يسعى مع فرنسا وإنجلترا وإسبانيا إلى توحيد العالم المسيحي والقضاء على الانشقاقات الكنسية للحفاظ على الأمن الداخلي والتخلص من الحروب الطائفية بين ابناء المذهب المسيحي الواحد، لذلك وافقوا على دعوة البابا يوحنا إلى عقد مجمع مسكوني في مدينة كونستانس المحايدة، والذي انعقدت أولى جلساته في السادس عشر من تشرين الثاني سنة ١٤١٤ برئاسة سيجسموند دولوكسمبورج Segmunde Luxembourg(١٣٦٨-١٤٣٢) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة[٢٩٥].

وبعد افتتاح المجمع الذي حظيَّ بحضور جيد، يتكون من(٢٩) كاردينالاً، (٣٣) من رؤوساء الأساقفة، (١٥٠) أسقفًا، (١٠٠) قانونياً، (٣٠٠) طبيبًا، (١٠٠) عالم لاهوتي، بالإضافة إلى أشهر علماء القانون الكنسي جان جيرسون، (٥٠٠٠) راهباً وإخوة، (١٨٠٠٠) من طبقة الاكليروس من عموم كنائس أوربا الغربية، وغيرهم الكثير من رجال الدين، وكان البابا يوحنا الثالث والعشرون حاضرا في البداية لكنه غادر المجلس بعد ذلك عندما أدرك أنه سيتم خلعه ضمن قرارات هذا المجلس، أما البابا غريغوري الثاني عشر فإنه أرسل المندوبين لتمثيله، في حين لم يحضر البابا بنديكت الثالث عشر ولم يعترف به أصلاً[٢٩٦]، لكن الكرادلة من اتباعه كانوا حاضرين، إذ طالب النبلاء وبعض الأساقفة في الجلسة الأولى أن تكون لغة المجمع لاتينية، وأن يُمنح حق التصويت العلني الحاسم لعلماء اللاهوت ومشرعي الحقوق والقوانين الدينية بالإضافة إلى الكرادلة والأساقفة ورؤساء الأديرة، وفي اليوم التالي اتخذ المجمع قراراً باتباع المبدأ القومي للتصويت، أي يدرس القرار من قبل ممثلي كل قومية على حدة, وبذلك لم يعد المندوبون الإيطاليون

---

(١) Cf. among many authors C,Op,Cit,P.127.

(٢) Brown, P.R.L. and (others), Trends in Medieval thought, Oxford , Basil Blackwell, 1965,P:294.

(٣) Thietmari Merseburgensis episcopi Chronicon VI, 11, edited by R. Holtzmann, MGH SRG ns.1990, P.288.

قادرين مهما كان عددهم، التأثير على سير عمليات المجمع، وقد أخل هذا القرار بميزان القوى لغير صالح البابا يوحنا الثالث والعشرين، فكان ذلك بتدبير من الإمبراطور[٢٩٧].

سرعان ما أبدى الإيطاليون استياءهم من إجراء البابا وبهروبه من روما تركه جلسات المجمع، لذا اجتمع المندوبون الإيطاليين في الأول من آذار سنة ١٤١٥ وكان عددهم خمسمائة مندوباً، وقرروا بعد استماعهم إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين قائلا: "**إخواني.. أبنائي، إنني مستعد للتنازل عند أول إشارة أو طلب منكم**"، فقال له أعضاء المجمع: "**ولماذا لا تتنازل الآن؟ لقد وعدتنا بذلك وأنت صاحب هذا الاقتراح فافعل ذلك إذن**"[٢٩٨]، ولكنه لم يجيب المندوبون على تساؤلهم وطلب تأجيل الاجتماع، وفر في اليوم الثاني إلى النمسا قاصداً مدينة شافهاوزنSchaffhausen وأقام في قصر الأرشدوق ألبرشت الخامسFifth Albrecht (١٤١١-١٤٣٩) عدو الإمبراطور سيجوموند، وفي التاسع والعشرون من آذار سنة ١٤١٥ أعلن بأن جميع الوعود التي قطعها على نفسه في مدينة كونستانس قد أرغم عليها بالقوة الجبرية، وأنها ليس لها من القوة التي تلزمه الوفاء بها[٢٩٩].

بناءً على ذلك أصدر المجمع في السادس من نيسان سنة ١٤١٥ قراراً خطيراً ومقدسا وصفه أحد المؤرخين لتلك الحقبة، بأنه من أشد القرارات ثورية في تاريخ العالم، إذ جاء فيه: "**إن مجمع كونستانس المسكوني المقدس، المنعقد انعقاد قانوني في الروح القدس لحمد الله، وللقضاء على الانشقاق القائم الآن، ولتوحيد كنيسة الله وإصلاحها، بما في ذلك رأسها وأعضاؤها، إن هذا المجلس يأمر، ويعلن ويقرر**"[٣٠٠] ما يأتي:

أولاً: يعلن أن هذا المجمع المقدس يمثل الكنيسة المجاهدة، ويستمد معونته من المسيح مباشرة، وعلى جميع الناس مهما كانت طبقتهم ومنزلتهم بما فيهم الباباوات أيضا، أن

---

(١) William Grimehaw, Op, Cit, P:97.

(٢) بسام سخيطة, المصدر السابق, ص١٦٦.

(٣) Denis C. Meyer ,Op, Cit, P: 107.

(٤) Brown, P.R.L. and (others),Op,Cit,P:297.

يطيعوا هذا المجمع في كل ما له صلة بأمور الدين، وفي القضاء على هذا الانشقاق وإصلاح الكنيسة إصلاحاً شاملاً في رئاستها وأعضائها.

ثانياً: يعلن المجمع أن أي إنسان مهما كانت مرتبته أو صفته أو منزلته بما في ذلك البابا أيضا، يأبى أن يطيع الأوامر والقوانين والفروض والقواعد، التي يقرها هذا المجمع المقدس، أو أي مجمع مقدس آخر ينعقد انعقاداً صحيحاً بقصد القضاء على الانشقاق وإصلاح الكنيسة، يضع نفسه تحت طائلة العقاب الحق، وستتخذ إذا اقتضى الأمر وسائل أخرى للاستعانة بها في تطبيق العدالة.

استكمل المجمع اجراءاته في الإصلاح والقضاء على الانشقاق، بأن أوفد لجنة رسمية عالية المستوى إلى البابا يوحنا الثالث والعشرون يطالبونه بالتنازل عن الباباوية، ولكنه لم يعد اللجنة بشيء، فقرر المجمع في الخامس من آيار قبول لائحة الاتهام المؤلفة من أربع وخمسون فقرة بحق البابا، تلاها الكاردينال غوبينوس قائلا: يوحنا الثالث والعشرون متهم بما يلي:

١- المتاجرة بالمناصب والرتب الكنسية وبيعها لأكثر من شخص.

٢ - عزل رجال الدين عن منصبهم لبيعها لمن يدفع أكثر.

٣ - محاولة بيع رفاة القديس يوحنا إلى فلورانسا لقاء مبلغ ٥٠ ألف فلورين ذهبي.

٤- السماح لعلمانيين من غير رجال الدين بإصدار قرارات الحرمان من الكنيسة ضد آخرين لقاء مبالغ معينة من المال.

٥- نفي وجود حياة أخرى.

٦- لم يكن يؤمن ببعث الموتى بعد النشور.

٧- مفاسد أخلاقية كثيرة..

٨ - اضطهد الفقراء وطردهم من أراضيهم وديارهم.

٩ - خالف جميع القوانين الكنسية وضرب بها عرض الحائط.

١٠ – كان يساند الفاسقين والأشرار.

١١ – شجع على الرذيلة[٣٠١].

وهكذا حتى الفقرة الرابعة والخمسين التي نصت أنه كان شيطانا مجسداً وأغفل المجمع ست عشرة تهمة أخرى، استبعدت لشدة قسوتها، واخيراً قرر المجمع في التاسع والعشرون من آيار سنة ١٤١٥ إصدار قرار بخلعه عن كرسي الباباوية، ولم يكن أمام البابا من أمر سوى قبول القرار، ولم يختلف مصير البابوان الآخران، إذ أصدر المجلس في تموز سنة ١٥١٧ قراراً بإقالة بابا روما السابق(بينديكت الثالث عشر)، بينما قبل بابا أفينيون (غريغوري الثاني عشر) بالاستقالة، في حين انتخب الحاضرون البابا مارتن الخامس في تشرين الثاني سنة ١٥١٧ وبذلك انتهى المجمع بغلق ملف الانقسامات الكنسية وانهاء الصراعات والحروب المذهبية التي اثرت على جميع مستويات الحياة العامة للرعايا المسيحيين وعلى معتقداتهم وهم يرون ممثل العقيدة الكاثوليكية في صراه مستمر مع السلطة الزمنية للحصول على نفوذ معين وامتيازات خاصة، والانكى من ذلك وصول ثلاث زعماء للكرسي الرسولي في أن واحد، فاختلفت الولاءات وتعددت الاتجاهات نحو هؤلاء البابوات وتحولت إلى حرب عقائدية برئاسة البابوات الذين يكفرون بعضهم البعض الآخر وعمت الفوضى الدينية السياسية حتى انعقاد مجمع كونسنانس، لتشهد أوربا الغربية وكنيستها الكاثوليكية مرحلة جديدة من الصراعات تتمثل بظهور الثورة الفكرية والمواجهة العلنية لحركات الإصلاح للكنيسة من قبل عامة الناس وألوان أخرى من الاضطهاد والتشريد في سبيل بقاء دولة الكنيسة.

---

[١] بسم سخيطة، المصدر السابق, ص١٦٦-١٦٧.

الفصل الثالث

سياسة الاستبداد الفرنسي ودورها في الحروب المذهبية الأهلية في فرنسا (١٥٥٩-١٥٧٢).

المبحث الأول: جهود البلاط الملكي الفرنسي لإقصاء البروتستانت (١٥٥٩-١٥٦٢)

المبحث الثاني: تأزم الأوضاع الدينية الفرنسية واندلاع الحروب المذهبية(١٥٦٢-١٥٦٧)

المبحث الثالث: استئناف طرفي النزاع للحروب المذهبية الأهلية (١٥٦٧-١٥٧٢)

المبحث الأول

جهود البلاط الملكي الفرنسي لإقصاء البروتستانت

(١٥٥٩-١٥٦٢)

نقرأ في الأحداث، ونطالع كُتب التأريخ والسيّر، ونقلّب الواقع، فلا نجد إلّا حقيقة واحدة! وهي التي تُسمى بـ (الحرب) التي تستنزف طاقات بني البشر مطلقاً، حروبٌ أهلية.. وأُخرٌ عالمية ـ بين مجموعة من البلدان أو حتى بين بلدين فقط، وحسب تتبعنا وعلى كل الأزمنة والأصعدة لا تكون الحروب إلّا لأجل الدين والمعتقد، أو لطمع الملوك والرؤساء ومَن عاونهم في احتلال أرض قد لا تكون لهم فيها حق! فتسفك الدماء ويحلّ الخراب، وكثير من الاحيان تكون الحروب الداخلية (اهلية) وغالباً ما يكون السبب ـ كما ذكرنا ـ هو الدين والمعتقد وحرية الإيمان، وما سنذكره من تفاصيل حول الحروب الدينية الفرنسية هو مصداق واحد وليس وحيد! من مفهوم الحروب الداخلية أو الأهلية والتي كان سببها الدين والاعتقاد والتي استنزفت الجميع، وتوسعت توسّعٌ مخيف.

عهد الملك فرانسوا الثاني ومرحلة الاضطهاد المذهبي.

شهد البروتستانت في عهد فرانسوا الثانيFrançois II (١٥٥٩-١٥٦٠) مرحلة جديدة وحاسمة في فرنسا، على مستوى التسامح الديني وحرية المعتقد؛ إذ بدت الأمور تأخذ الحسم من جهة والإقصاء من جهة أخرى، فمن جانب إنّ البروتستانتيين الفرنسيين انتهوا من تنظيم كياناتهم الكنسية[٣٠٢]، ودخلوا طور التكوين الحزبي بانضمام ال بوربون وآل شاتيون لهم وأصبحوا أكثر قوة، ومن جانب آخر تنافسهم مع آل غيز الذين من بينهم ابرز زعماء الكاثوليك، كالكاردينال فرانسوا دي غيز (François de Géz)

---

(١) Jean Hippolte Mariejol,Catherine de Medicis,Haohette,1920, P.93.

وشقيقه الكاردينال شارل دي ماين (Charles de Maine) وهما خالا ماري ستيورات (Mary Stewart) زوجة الملك فرانسوا الثاني، مما أدى في هذه المدة القليلة إلى استئناف جميع عقوبات الهيغونوت وإقصائهم عن المجالس السياسية واستخدام القوة تجاه آل غيز وآل كونديه في محاولة منه لموازنة قوتهما، فتم تنفيذ أحكام الاعدام بحق الكثير من اتباعهم، وفي مقدمتهم المستشار آن دو بورغ وذلك في الثالث والعشرين من كانون الأول عام ١٥٥٩[٣٠٣]، لكن هذا الأمر لم يدم طويلاً، وكما سيأتي.

فقد مثَّل الأول من نيسان عام ١٥٦٠ منعطفاً مهماً في تاريخ فرنسا الديني والسياسي، بتعيين الرجل القانوني والإنساني الشهير ميشيل دو لوربيتال (Michelle de Lorbeital)، بصفته المستشار الأول للملك، والمعروف بسياسته المعتدلة مع الهيغونوت والكاثوليك المعتدلين وتعاطفه معهم[٣٠٤]، فيعود له الفضل الأول في التأثير على الملك فرانسوا الثاني والبرلمان الفرنسي لإنهاء محاكم التفتيش المقامة لاضطهاد الهيغونوت الفرنسيين، لأن لوربيتال أكد بأن إصلاح الأخلاق في الكنيسة اهم من إصلاح المسائل العقدَّية، وكان مؤمناً بجدوى الطرق التوافقية وضرورة سيادة التسامح الديني، شأنه في ذلك شأن كبار الانسانيين أمثال جان بودان(Jean Baudan) وغيوم دو بيلي (Guillaume du Bailey) وجاك سادوليه (Jack Sadoulet) وجان موريل (Jean Morel)[٣٠٥].

اثمرت جهود لوربيتال في الحصول على موافقة البلاط الملكي لإصدار مرسوم رومورانتا (Romorantin) في التاسع من حزيران عام ١٥٦٠، تضمن إعلان الملك لبداية سياسية دينية جديدة من جهة سلطات الدولة العامة، أساسها التسامح الديني وقبول

---

(١) Jean Hippolte Mariejol, Op, Cit, P.9٤.

(٢) عبد المجيد النعنعي، اوربا في بعض الازمنة الحديثة والمعاصرة ١٤٥٣- ١٨٤٨، (بيروت، ١٩٨١)، ص٨٥.

(٣) جوزيف لوكلير، تاريخ التسامح في عصر النهضة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ص٦٢٨.

جميع الفرنسيين كـ رعايا صالحين متساوون في الحقوق والامتيازات الملكية، السماح للهيغونوت بممارسة طقوسهم الدينية والانخراط الفعلي في وظائف الدولة، لا سيما بعد أن لوحظ أن البروتستانت أصبح ثقلهم في فرنسا شيء لا يمكن إغفاله، كما تضمن المرسوم أيقاف محاكم التفتيش وملاحقة البروتستانت حتى يتم انعقاد **مجمع ديني وطني**، ليتمكن فيه الهراطقة من الارتداد عن خطيئتهم باللين إلى وحدة الكنيسة والمعتقد الكاثوليكي[٣٠٦].

ولا يخفى إن فكرة عقد مجمع ديني وطني مهمة جدا والحاجة ماسة إليها لإرساء قواعد التسامح الديني بين طوائف المجتمع الفرنسي، لأنها من جهة تديم سياسة التوافق الانساني كما عرفتها فرنسا والمانيا في النصف الاول من القرن السادس عشر، ومن جهة اخرى تقود إلى التسامح الأهلي المذهبي، بإعطاء الهيغونوت شيء من حرية العبادة، وتوطيد وحدة المملكة الدينية، وذلك لان الوحدة السياسية في فرنسا بقيت على الدوام في القرن السادس عشر، وثيقة الارتباط بالوحدة الدينية في فكر الكاثوليك وخصومهم على السواء.

وبالفعل فقد عملت الإدارة الملكية بموجب هذه النصيحة؛ إذ وجّه الملك فرانسوا الثاني في شهر آب عام ١٥٦٠ الهيئة التمثيلية العامة عند اجتماعه بهم في مدينة شاتو فونتينبلو(Chateau Fontainebleau) ، بدعوة مجلس رجال الدين والنبلاء وأعضاء البرلمان لحضور انعقاد المجمع الديني الوطني، وحتى يتم ذلك، أمر بتوقيف كل الإجراءات القضائية في الامور اللاهوتية والدينية بحق المعارضين، عدا المتطرفين من كلا الطرفين[٣٠٧]، وهكذا يكون فرانسوا الثاني قد أسس لعهد جديد يسعى إلى احلال السلام المذهبي بين الطوائف الفرنسية؛ لكن لم يتحقق شيء من ذلك، فقد توفي الملك فرانسوا الثاني في الخامس من كانون لأول عام ١٥٦٠ بعد سبعة عشر شهراً من توليه

---

(١) Jean Hippolte Mariejol, Op,Cit,P.9 .٥

(٢) Charles butler, The principal states which composed the empire of charlemagne from his coronation in 814,london,1807, P104.

العرش على أثر مرض لم يمهله إلا أياماً، إذ لم يكن أخوه شارل التاسع قد تجاوز بعد التاسعة والنصف من عمره، استلمت والدته كاترين دي مديتشي (Catherine de Medici (١٥١٩-١٥٨٩) الوصاية على العرش الفرنسي[٣٠٨].

تأرجح الملكة كاترين في سياستها الهادفة للقضاء على البروتستانت.

حاولت الوصية على العرش كاترين دي مديتشي الحفاض على سياسة بالتأرجح بين الفريقين المتصارعين الهيغونوت والكاثوليك وعدم تفوق مذهب على آخر؛ بإبقائها إلى جانبها أنطوان دو بوربون ملك النافار الذي كان يمثل البروتستانتية وآل غيز ممثل الكاثوليكية، لكنها كانت تضمر خلاف ذلك، فهي لم يهنأ لها بال إلّا أن تقضي على الخط البروتستانتي في البلاد، لكنها كانت تحتاج إلى الدعم السياسي والأيدولوجي، وبالفعل حظيت بتقريب المستشار لوربيتال والذي سيعزز من نفوذ سياستها ويضاعف سيطرتها، لتحقيق اهدافها في القضاء على البروتستانت[٣٠٩]، من أجل ذلك سارعت بعقد المجمع الديني الوطني والذي استمرت جلساته خلال الخامس والعشرون من كانون الأول عام ١٥٦٠، منتهياً بصدور مرسوم أورليانز (Orleans decree) في التاسع عشر من كانون الثاني عام ١٥٦١[٣١٠].

إذ منعت فيه الوصية كاترين وبشكل جازم كل التجمعات العامة والخاصة للبروتستانت؛ القرار الذي عارضه لوربيتال، مبررا للمجتمعين بأن الهيغونوت لم يقتصر عملهم على اطلاق العظات وإرشاد الناس، بل تشكيل جماعات مسلحة، ومن الممكن ان تشتبك جماعاتهم مع الكاثوليك وتعبث بالكنائس الكاثوليكية في الجنوب الفرنسي، وبذلك يكون هذا المرسوم مدعاة لإشعال الحروب الأهلية المذهبية بين ابناء الشعب

---

(١) Durant William, The Age of Reason, Simon and Schuster, 1961.P.81.

(٢) 82.. R.S. Knecht, Catherine de Medici , London,1998. P

(٣) ول ديورانت، المصدر السابق، ص٣٨٦.

الفرنسي[٣١١]، داعماً اعتراضه بكلمته التي ألقاها اثناء الاجتماع والتي أدان فيها كلا الطرفين الذين يوظفون العنف في الأمور الدينية والعقدّية، سواء كانوا من البروتستانت، أو الكاثوليك المتعصبين[٣١٢]، قائلاً: "**إذا كان المقصود هو الديانة المسيحية، فالذين يريدون غرسها بقوة السلاح والسيوف والبنادق يتصرفون بعكس تعاليم ايمانهم التي تدعو إلى تحمل العنف لا اللجوء إليه، وأيضاً بعكس ما يقوله القديس يوحنا فم الذهب من أننا نختلف عن الوثنيين في كونهم يستخدمون القوة والاكراه، بينما نحن المسيحيين نعتمد على الكلام والاقناع، لا قيمة للبرهان الذي يستندون إليه من أنهم يحملون السلاح دفاعاً عن قضية الله، فإن قضية الله لا ينبغي الدفاع عنها بالسلاح: أرجع سيفك إلى غمده إن ديانتنا لم تنتشر ولم تُصن وتستمر بقوة السلاح**"[٣١٣]، ساهم بموقفه هذا بتراجع الوصية عن قرارها الذي ظل حبراً على ورق.

والجدير بالذكر إنّه لم يكن لأحد أن يتصور ولا حتى لوربيتال نفسه بإمكان قيام سلام حقيقي في مملكة كـ فرنسا منقسمة دينياً وسياسياً في عام ١٥٦٠، وكان المجمع الديني الوطني حلّ مثالي لإرساء الوحدة المسيحية بين أبناء البلد، والأهم هو وجود من يؤمن بالوحدة المسيحية بما يتحلى به من الأخلاق والتعايش السلمي من خلال دعوة المتعصبين من الطرفين لاستخدم سلاح الرأفة والمحبة، مختتماً قوله: "**... لنفعل كل ما بوسعنا طالما اننا لم نفقد الرجاء بتطويعهم وارتدادهم، فإن المسامحة أجدى من القسوة، فلنطرح عنا هذه الكلمات الشيطانية المتمثلة في تعابير الانقسام والتحزب والتمرد وتسميات اللوثريين والهيغونوت والبابويين ولا نبقين إلا على تسمية مسيحي**"[٣١٤].

---

(١) R.S. Knecht, Op,Cit,P.89..

(٢) Robert Jean Knecht, The Rise and Fall of Reformation France (1483-1610), Black well,2001, P.152.

(٣) Jean Hippolte Mariejol, Op, Cit ..P97.

(١) R.S. Knecht, Op, Cit, P.97.

وقد شجع موقف لوربيتال وتطلعاته الإنسانية بعض المعتدلين من الحضور، على اتباع سياسة التسامح مع البروتستانت ومنحهم شيء من حرية العبادة، بهذا الصدد جاء طلب الاميرال دو كوليني بالسماح للهيغونوت ببناء الكنائس وحرية العبادة وممارسة الطقوس الدينية[٣١٥]، وتلقى الإجابة بمضمون الكلمتان الرسميتان للحبرين، القس شارل دو مارياك (Charles de Mariac) اسقف مدينة فيين (Fein) والكاردينال دو لورين(Du Lorrai)):

الإجابة الأولى: **للقس شارل دو مارياك**:

طالب الأول بعقد مجمع وطني أو استشارة المجالس التمثيلية في البلدات والمدن الفرنسية العامة، في ظل تعذر انعقاد مجمع وطني عام، دون التوقف عند العقبات التي قد يضعها البابا بيوس الرابع Pius IV (١٥٥٩-١٥٦٥)، في ذات الوقت دعا الى اجراء بعض الاصلاحات الأخلاقية ومعاقبة كل تمرد ليس بحق الهيغونوت وحدهم، بل أيضاً بعض الوعاظ الكاثوليك المتعصبين في تطرفهم، الذين يحرضون الشعب على انتفاضة تتخذ طابع الثورة المقدسة بهدف اقتلاع البروتستانتية مما يؤدي إلى حروب أهلية مذهبية بين أبناء الدين الواحد، أو أية مذهب يأمر بالفتنة من أجل غرسها أو الحفاظ عليها، وتابع قائلاً: إنه يجب "**توطيد الديانة على نحو من الاعتدال لا يسمح لاحد باستغلالها لتنفيذ مآربه في مملكة يسودها السلام كـ فرنسا**"[٣١٦].

الإجابة الثانية: **للكاردينال دو لورين**:

أما الكاردينال دو لورين فقد عبر بصورة أوضح عن مبادئه الداعية إلى التساهل بقوله: "**إنه لا يسعنا تقديم معابد للمصلحين لان ذلك يعني الاعتراف بـ وثنيتهم، لذا**

---

(٢) 4..P Cit, Raymond .A.Mentzer , Op,

(٣) 101..P Cit, R.S. Knecht,Op,

نتأسف على ما تم تنفيذه في السابق من احكام قاسية، فإنني ارى من واجب المملكة، إذا وجدت قوم يذهبون عُزلاً لسماع الوعظ خوفاً من الهلاك الابدي ويرتلون المزامير ولا يحضرون القداس البتة، لكنهم يتقيدون بسائر العبادات الخاصة التي كانوا يمارسونها من قبل، ان تدافع عنهم كي لا يحل بهم اي جزاء قضائي ما دامت العقوبات التي تم انزالها بهم حتى اليوم لم تأت بأي فائدة"[٣١٧].

ومن جهة أخرى هناك مَن علّق الآمال الكبيرة على هذا المجمع الديني الوطني، لأجل احياء الوحدة الدينية، كـ جاك بياناسي (Jack Pianzi) النائب العام لأبرشية مدينة تور (Tor) ورئيس عام مقاطعة بوا أوبري(Bau Aubrey) ، شأنهم شأن معظم المعاصرين، حيث قال: **"من الضروري أن نعيش بسلام في ممارستنا هذ المذهب أو ذاك بانتظار المجمع الوطني"**[٣١٨]، وأيضاً كانت له المداخلات الفاعلة والجريئة في أعمال الهيئة التمثيلية في اورليون (Orlion)؛ إذ دعى في الاول من شباط ١٥٦١ إلى عدم اكراه البروتستانت على ترك مذهبهم وإلا فالمخاطر قادمة! فقال: **"إن حرمان البروتستانت من ممارسة طقوسهم الدينية لا يوجب ارتدادهم إلى الديانة الكاثوليكية، وفي حال إقدامنا على هذا المنع وعدم حصول الارتداد المنشود من جانبهم نكون قد جردناهم كلياً من كل ديانة وسرنا بهم نحو الإلحاد، لا بل دفعناهم إليه دفعاً...لذا كنا نؤثر بعيداً عن كل مقارنة أن يكون المرء مسيحياً نوعاً ما، بغض النظر عن صلاحه وطلاحه، على أن لا يكون ملحداً لا اله له ولا ضمير ولا دين"**[٣١٩].

بالرغم من كل ما تقدم من تأسيس مجمع ديني وطني كانت فيه الطروحات تؤكد على التحلي بالأخلاق والتعايش السلمي بين طرفي الصراع، وكذلك ظهور شخصيات أيدت ذلك التوجه الذي جاء منسجماً مع أفكارهم، إلا أن جذوة الفكر الديني الإقصائي

---

(١) Raymond .A.Mentzer, Op,Cit, P:19.
(٢) Robert Jean Knecht, Op, Cit, P: 157.
(٣) Jean Hippolte Mariejol, Op, Cit, P: 103.

للأسف الشديد كان حاضراً في دخائل النفوس بقناعة تامة من كلا الطرفين، في وقت كان الوضع بحاجة إلى تنازل أكثر من الجانب الملكي المتمثلة بالوصية كاترين، وهذا الذي لا يمكن أن يرضي اصحابها من الكاثوليك على اعتبار أن الأمر ديني بحت، فعليه يجب أن يكفر الآخر وأن لا يكون هناك تسامح أو مرونة معهم، ومما حدى بأن تسير الأمور ضمن هذا السياق هناك من طرف البروتستانت لهم نفس تلك الرؤيا والأفق، من إن لهم الحق في قتل وحرق وتشريد معتنقيَّ المذهب الآخر[٣٢٠].

واثبتت الأحداث إنه مهما حصل من تقارب ودَّي بين المذاهب المتصارعة البروتستانت والكاثوليك في فرنسا ألا إن ذلك محكوم عليه بالانتهاء والوصول إلى طريق مسدود ودليل ذلك كانت الحروب المذهبية بين طرفي النزاع سمة تلك العلاقة والتي استمرت أربعين عاماً، ويمكن أن نعزو سبب ذلك إلى إن الملكة كاترين الوصية على العرش لم يطب لها ايجاد حلول جذرية للمشكلة، بل كان همها ومصلحتها كيف ان تحافظ على حقوق أولادها! وكانت كالمتفرج، لتفرض المصالحات التي تصب بصالحها. فكانت هذه الحروب تشتعل بين فترة واخرى يتخللها خطابات ومعاهدات سلام لم تجدي نفعاً، فأصبح هذا هو الحال طيلة العقود الأربعة الاخيرة من القرن السادس عشر. إذ وصل عدد الحروب ثمانية في مراحل تأريخية متقاربة[٣٢١]، حتى أن بعضها لم يكن يقتصر على الجانب الفرنسي أو بين أبناء البلد الواحد؛ إذ عمد كل منهما إلى الإستنجاد بأطراف خارجية، فضلاً عن امتلاك كل منها على المرتزقة الأجانب، الأمر الذي جعل الوضع مستعراً كثيراً؛ إذ تدخل الإسبان بجيوشهم أكثر من مرة إلى جانب الكاثوليك الفرنسيين وبناء لطلب زعمائهم، وساعد الانكليز ولو بصورة غير مباشرة بروتستانت

---

(١) Henri Hauser, The French Reformation and the French People in the Sixteenth century, American historical Review,Vol.4, 1899, P 176..

(٢) Albert Jeannede Navarre, of Queen Roelker, L. Nancy. (1528-1572), Cambridge, 1986, P.85.

فرنسا واستقدموا قوى اجنبية نظامية في بعض مراحل هذه الحروب للمساعدة العسكرية، فزاد وضع الفرنسيين سوءً على صعيد البلاط الملكي وافراد المجتمع[٣٢٢].

سعت كاترين دي مديتشي ـ بصفتها الوصية على أبنها الملك شارل التاسع ابن السنوات العشر ـ كثيراً لأن تُبقي كلا الطرفين تحت التاج الفرنسي عبر السياسة والمداهنة للطرفين؛ إذ أطلقت سراح لويس دي كونديه (Luis de Conde) زعيم البروتستانت المحكوم بالإعدام منذ عهد الملك فرانسوا الثاني، وحررت المساجين والمعتقلين، وسعت للتوفيق بين الطائفتين وبالغت في التساهل مع البروتستانت، عبر اصدار مرسوم في آذار سنة ١٥٦١ اعترفت فيه بحق البروتستانت في ممارسة المراسم والشعائر الدينية خارج المدن الفرنسية المسورة، وفي قصور نبلائهم، وبعض الأرياف شريطة ألا يحملوا السلاح بأي شكل كان [٣٢٣].

ومن المؤكد أنّ هذا المرسوم لم يلقى ترحيباً من المتدينين الكاثوليكيين ـ على اعتبار أن لا لين مع الكفّار البروتستانت ـ بل أغضب الكثير منهم، أما رأي وطموح البروتستانت فلم يكن قرار الملكة كثيراً كذلك مرحب به، فهم يطمحون للأكثر، ويطالبون بالحرية كمواطنين فرنسيين، وليس الأمر مجرد العبادة خارج المدن المسورة! ولهذا استمروا بممارسة عباداتهم ـ كان لهم الشعبية الكبيرة في داخل مدن فرنسا وفي كنائسها ـ ومارسوا ما يملي عليهم إيمانهم من تجريد الكنائس من التماثيل التي تمثل العقيدة الكاثوليكية، وحمل السلاح في بعض الاحوال التي تطلب ذلك، وأصبحوا على استعداد للمواجهات العسكرية وخوض الحرب[٣٢٤].

يُنقل أنّ في الأول من آذار عام ١٥٦٢ عندما غادر الدوق فرانسوا دي غيز منزله في جوانفيل ذاهباً إلى باريس وتحت حراسة مسلحة، صادفه في منطقة واوسي

---

(١) Henri Hauser, Op,Cit,P:178.
(٢) Jean Hippolte Mariejol, Op, Cit, P: 131.
(١) Nancy .L.Roelker, Op, Cit,P:93.

مجموعة من الهيغونوت الفرنسيين الذين كانوا يتعبدون بجوار كنيسة الأبرشية ويمارسون طقوسهم داخل اسوار المدينة مخالفين بذلك احكام المرسوم المذكور، فثار الدوق وامر الجنود بمهاجمتهم وسرعان ما نشبت مناوشات بينهما واندفع رجال الدوق على المصلين، مما أسفر عن مقتل عدد كبير منهم. وطبعاً الأمر نفسه والتصرف نفسه كان قائماً من هنا وهناك تجاه البروتستانت، ولم يكن للحكومة أو البابوية اي استنكار يُذكر، بل أخبار مجزرة **واوسي**، أدخلت البهجة والسرور على الكاثوليك في باريس، واستقبلوا غيز استقبال الأبطال عند وصوله[٣٢٥].

أما الملكة الأم حاولت تهدئة الوضع؛ إذ وجهت أمراً بصورة غير مباشرة بمغادرة غيز ولويس دي كونديه العاصمة باريس، جاء ذلك عن طريق الكاردينال دي بوربون الذي عينته الملكة وقتئذٍ حاكماً على باريس. ولا يخفى أنّ في هذه الحركة والتصرف من الملكة أو الكاردينال شيء من الحكمة ظاهراً لرأب الصدع الذي حصل بعد مذبحة واوسي، حيث بدا إنّ الحكم الملكي لا يساند أحد من الطرفين ـ ظاهراً ـ، لكنّ الذي حصل هو مغادرة لويس دي كونديه حاملاً معه همّ المذهب البروتستانتي وكيفية الرد على الكاثوليكيين فيما بعد، دون فرانسوا دي غيز الذي بقي في باريس، وكذلك لأجل ان يعد العُدّة لكونديه؛ على اعتبار ان الجميع يعرف أنّ كودني لن يطيب له العيش إلا بإصلاح الكنيسة في كل حدب وصوب وفق الايدلوجية البروتستانتية[٣٢٦].

رحلة كونديه بعد مغادرة باريس.

في ضوء ما تقدم جمع لويس دي كونديه انصاره الهيغونوت في مدينة مو، شاقّاً الطريق جنوباً الى مقاطعة أورليانز، إذ تمكن من الاستيلاء عليها في الثاني من نيسان عام ١٥٦٢، وعندما أحكم السيطرة عليها طلب كونديه من السادة النبلاء البروتستانت

---

(٢) Henri Hauser, Op,Cit,P:180.
(١) R.S. Knecht, Op,Cit,P:147.

وقساوسة الكنيسة الكالفينية إرسال قوات للدفاع عن العقيدة، وحسبما أفاد قس بروفانس كلاود هاتون (Cloud Hutton) أن الاستجابة كانت من جميع طبقات المجتمع، بدءً من النبلاء وحتى الحرفيين لدعوة الأمير من أولئك الذين لهم القدرة على حمل السلاح وشراء المعدات العسكرية وانطلق الجميع في آن واحد كقوات نظامية مقسمة إلى مشاة أو سلاح فرسان، بينما رهن الآخرون المال لأجل هذه القضية[٣٢٧]، وبهذا الصدد ذكر القس لانوس(Lanus) أحد أبرز زعماء البروتستانت في وصفه لتجمع هذه القوات ما يلي: **"وصل النبلاء بشكل مفاجئ من كل جانب دون أن يتم استدعاؤهم، إذ كان هناك في غضون أربعة أيام أكثر من خمسمائة منهم، حاملين السلاح سراً ومقيمين في بيوت الشباب المندفعين للبقاء في المعسكرات إلى أن يلتقوا بالجيش والاشتباك في الحدث معاً"**[٣٢٨].

وسرعان ما وصل نحو ٢٠٠٠ من الفرسان وزود النبلاء بالأسلحة الثقيلة (المدافع)، أما بالنسبة للمشاة الذين بلغ عددهم ستة آلاف جندي، فقد اعتمد كونديه اعتماداً كبيراً على المتطوعين وانضم إليهم بعد ذلك ٣٠٠٠ محارب و٤٠٠٠ مرتزقة ألمان الذين قام القس فرانسوا داندیلو (François Dandillo) بتجنيدهم في المقاطعات البروتستانتية في ألمانيا[٣٢٩].

وفي الثامن من نيسان أصدر لويس دي كونديه بياناً يفيد بأنه لا يزال متمسكا بمرسوم كانون الثاني لعام ١٥٦١ ضد الذين أظهروا عداءً للبروتستانت في واوسي، غير أن البرلمان الفرنسي اعترض على هذا الإجراء، مصرحاً بأن معاقبة أي عصيان ينشأ ضد المرسوم، يكون إجراء من اختصاص الملك وليس أمراً خاص برعاياه[٣٣٠].

---

(٢) Nancy .L. Op,Cit,P:87.
(٣) Henri Hauser, Op,Cit,P:178.
(١) Jean Hippolte Mariejol, Op, Cit, P: 131.
(٢) Roelker, Op, Cit,P:93. Nancy .L.

أمام ذلك لم يقف البروتستانت مكتوفي الأيديَّ، إذ بحث كونديه عن المساعدة في الخارج فيما لا تزال تتزايد أعداد قواته في الداخل حتى أوصل داندیلو عدد القوات إلى ٧٠٠٠ جندي في ألمانيا، كما حصلوا على مساندة النبلاء بتدبير مؤامرة اطلقها الامير كونديه ضد خاليَّ الملكة، بتحريض من النبيل الكالفني لارينودي (Larenode) والذي حظيَّ بمؤازرة الاوساط البروتستانتية في ستراسبورغ (Strasbourg) واماكن اخرى في مناطق ليون وجنوب فرنسا، وأمام هذا التزايد في القوات تطلب الأمر المساندة والدعم الخارجي[٣٣١]، لذا طلب زعماء الهيغونوت العون المادي والمساعدة العسكرية من ملكة انجلترا إليزابيث الأولى Elizabeth I (١٥٥٨-١٦٠٣) التي كان هدفها الرئيسي يتمحور حول استرداد ميناء كاليه، فرحبت بهذا الطب وولم تتردد في عقد معاهدة هامبتون كورت (Hampton Court) في العشرون من آيار عام ١٥٦٢ مع زعماء الهيغونوت الفرنسيين، تمثل أبرز ما تضمنته بـــ: تقديم المساعدة العسكرية والدعم المالي لزعماء الهيغونوت في حربهم ضد البلاط الملكي والكنيسة الكاثوليكية، مقابل مساعدة الهيغونوت للملكة إليزابيث باسترداد ميناء كاليه، فهي كانت تبحث عن فرصة مناسبة ليكون لقواتها العسكرية موطأ قدم في الأراضي الفرنسية لذلك احتلت قواتها لوهافر ضماناً لعودة كاليه[٣٣٢].

---

(٣) Henri Hauser, Op,Cit,P:180.

(٤) R.S. Knecht, Op,Cit,P:147.

المبحث الثاني

تأزم الأوضاع الدينية الفرنسية واندلاع الحروب المذهبية(١٥٦٢-١٥٦٧)

تبدأ الأحداث بين أبناء البلد الواحد الذين انشقوا إلى مجموعتين من النبلاء في فرنسا، إحداها من الكاثوليك الموالين للتاج الفرنسي بقيادة السلطة البابوية، والأخرى من البروتستانت بمختلف طوائفهم ومريديهم، وكانت هاتان المجموعتان هما قطبي الحرب الدينية وقتئذٍ ـ مع ظهور تحالفات قامت تشويش الأمور إلى حد ما لكنها لم تكن رئيسية ـ وكان لكل منهما القوة العسكرية لخوض صراع الإله! نعم فصراعهما كان لاهوتياً وكلّ بحسب أيدولوجيته الفكرية والمذهبية، وهكذا مرّت حركة الإصلاح الديني في أوربا بمراحل عصيبة في منتصف نفس القرن؛ إذ أصبح الإصلاح يُمرَر ـ بعد رفض الشخص أو المدينة الإيمان به ودّياً ـ بالقوة وتحت الضغط والاضطهاد! فبات الخيار المسلح، أو المقاومة هو السبيل الوحيد للدفاع عن المعتقد والدين، فالكاثوليك حمل لواء الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية، بينما دافع البروتستانت عن المبادئ الإصلاحية في الدين المسيحي، والتي انتشرت في فرنسا والعديد من مناطق اوربا، أخذت الاحداث والاختلافات المذهبية تتطوّر بصورة كبيرة في فرنسا بالخصوص، حتى اندلعت الحرب ـ وكما سنذكر لاحقاً ـ والتي استمرت سنين طويلة (١٥٦٢ ــ ١٥٩٨) ذهب ضحيتها الآلاف ومن كلا الطرفين.

اخفاق الخطة العسكرية لكوندي واندلاع الحرب المذهبية الأولى:

وتنفيذاً للمعاهدة الآنفة الذكر، اقتضت خطة كونديه العسكرية بأن يتجمع المسلحون حول مدينة امبواز (Amboise) في الثاني من آب عام ١٥٦٢، حيث يقيم رجال الحاشية ويلقوا القبض على الملك ثم يجبرونه على اقصاء آل غيز عن مجالس الحكم في البلاط الفرنسي، إذ شكل اختيار كونديه لمدينة اورليانز كنقطة تجمع لأنصاره مشكلة خطيرة للتاج الملكي لكن المؤامرة اخفقت في تحقيق أهدافها، وتم قمعها بعنف دموي اسس للحروب الأهلية المذهبية فيما بعد، فقد تم استدعاء الجيش الملكي إلى باريس المحفوفة بمخاطر الحرب الأهلية، فكان لا بد من تواجد القوات العسكرية لخوض العمليات الحربية المعقدة لأن الملك لم يكن يتصور استخدام جيشه ضد رعاياه الفرنسيين، وفي ذات الوقت جرى توزيع الجيش الملكي بين البلدات التي تتواجد فيها حاميات عسكرية على طول حدود فرنسا الشمالية والشمالية الشرقية لقطع الامدادات الخارجية عن زعماء الهيغونوت(٣٣٣).

وبطبيعة الحال أن يحتاج تجمع القوات إلى تجهيز المعدات والتدريب ودفع الأجور والمستحقات المالية، في الوقت الذي افتقرت فيه جنود المشاة الفرنسية للتدريب والخبرة العسكرية، فكان لزاما على التاج الملكي استئجار مرتزقة أجانب لينضموا إلى صفوف الجيش الفرنسي، وهذا الإجراء بحد ذاته كان يستغرق وقتا طويلا؛ إذ كان هناك مخزون كافٍ من المدافع في باريس وغيرها، إلا أنه يحتاج إلى مئات الجنود بعربات كبيرة وصغيرة لحمل الذخيرة والآلاف من الرواد، لذا تطلب الإعداد لعملية التعبئة هذه عدة أسابيع، مما سمح للهيغونوت أخذ زمام المبادرة العسكرية، وتمكنوا من احتلال عدداً من المدن في وادي لوار تورز (Tours)، بلوا(Blois)، أنجيه (Angie) وسقطت بيزنسون

---

(١) Philip Conner, Huguenot Hrartland, Montauban and Southern French Calvinism during the Wars of Religen ,Aldershot,2002,P:25.

(Beesonson) كما حققوا من ناحية اخرى مكاسب كبيرة أيضا بسقوط ليون في التاسع والعشرين من آب عام ١٥٦٢[٣٣٤].

بعد ذلك أقدم كونديه إلى تعيين بعض القادة لتأسيس نوع من الحكم الإداري ليوحي بذلك إلى الكنيسة والبلاط الملكي بسيطرة الهيغونوت الفعلية على بعض مفاصل فرنسا، فعين الجنرال جاك دي كروسول (Jacques de Croswell) برتبة فريق في جيشه المرابط في ولاية لانجدوك والجنرال سيمفورين دوراس (Simphorin Duras) في ولاية غويانا (Guyana) والبارون ديس أدريس (Dis Idris) في جزيرة داوفين (Dauphin) والكونت دي تنده (De Tende) وباول دي موفان (Paul de Moyvan) في ولاية بروفانس، حتى أصبح بليز دي مونلوك (Belize de Monlock) قائد القوات الملكية في غويانا بموقف حرج للغاية بسبب السرعة التي سقطت بها المدن الفرنسية، قائلا: **"لقد أخذنا الهيغونوت على حين غرة، لذا كانت معجزة أن تنجوا هذه البلاد، نظرا لانتشار عناصر استخباراتهم السرية في ربوع المدن"**[٣٣٥].

وفي هذه الأثناء أتم البلاط الملكي عملية التعبئة العسكرية وتجهيز القوات، إذ تم جمع ما يقارب ٢٨٨ سرية عسكرية من مختلف فئات المجتمع بلغ مجموعها ٤٨٠٠٠ جندي، شكل نحو ٦٢% منهم من الفرنسيون و٢٠% من المرتزقة الألمان والباقي من الأجانب، وفي السابع من أيلول عام ١٥٦٢ غادر الجيش الملكي باريس بقيادة الجنرال سانت أندريه (St. André) ومونبنسيه (Montparnasse) متجها نحو الجنوب مستعيداً مدينة بلوا ومارسيليا (Marseille) ومدن أخرى على طول لوار وبواتيه، وفرض الجيش بعد ذلك حصاراً على بيزنسون التي تم الاستيلاء عليها في الثلاثون من أيول، الأمر الذي أدى إلى قطع الطريق أمام الهيغونوت في اورليانز عن قواتهم المتمركزة في ميدي بيرينه (Midi Perinha) [٣٣٦].

---

[٣٣٤] Mack Holt, Op,Cit,P:153

[٣٣٥] Tilley,Op.Cit.,P:26.

[٣٣٦] Lincolin Bruce, Discourse and the Construction of Society,Oxford,1989.P:93.

انتصارات متلاحقة وقتئذٍ حققها الجيش الملكي، وبناءً عليها قررٌ للزعماء الكاثوليك بالتوجه إلى منطقة روان (Rawan) التي سيطر عليها الهيغونوت في وقت سابق، والتي تعتبر آنذاك عاصمة نورماندي وثاني أكبر مدينة في فرنسا ديموغرافياً، وبالفعل تم محاصرتها لمدة خمسة أيام، دون اقتحامها؛ إذ كان اقتحامها يتطلب وفرة من الجيش من حيث العدة والعدد. وبين انتظار الامدادات الفرنسية، تم الاستيلاء على حصن سانت كاترين (Saint Catherine) شرق المدينة من قبل القوات الملكية[٣٣٧].

وبعد وصول الدعم الفرنسي البالغ ثلاثمائة ألف جندي احتدمت المعارك على الأسوار، مما جعل الملكة كاترين في موقف الضغط على كونديه للتفاوض على تسوية وانهاء هذا القتال الذي أنهك الجميع، إلّا أنّه أصر بعدم الرضوخ بقبول التفاوض ـ على اعتبار أنّ الدفاع عن المعتقد الديني فوق جميع المصالح ـ، فانقسم أهالي روان اجتماعياً وايدلوجياً بين مؤيد لكونديه ومعارض، ولأجل ذلك أمر الجنرال سانت أندريه الجيش الملكي باقتحام المدينة والاحتدام مع البروتستانت في الحادي والعشرين من تشرين الأول، مما أسفر عن موت أنطوني دي بربون ملك نافار الذي خلفه الكاردينال لويس دي بربون (Luis de Bourbon) في قيادة الجيش، وكان هذا الاقتحام له من الأثر النفسي الكبير مما جعل الكثير من الهيغونوت يهربون الى خارج روان ومن كل فرنسا عن طريق البحر، وتسلل آخرون إلى باقي مناطق النورماندي التي كانت تحت سيطرتهم، وبذلك خسر الهيغونوت أغلب مواقعهم[٣٣٨].

بعد أن تمت السيطرة التامة للجيش الملكي على مراكز الهيغونوت، أقدم القادة الملكيون على طرد سكان المدينة لمدة ثلاثة أيام، ونهب منازل الهيغونوت، ومصادرة ممتلكاتهم كغنائم حرب وتوزيع أموالهم على الجنود الكاثوليك، مكافاة لهم على مشاركتهم في الحرب، حتى أن أهالي باريس قاموا بشراء الغنائم من الجنود المرتزقة. لم ينتهي

---

(٢) Philip Conner,Op,Cit, P:38.

(٣) اندرو ملر، المصدر السابق، ص٢٦٧.

الأمر بالنسبة للجيش الملكي الفرنسي إلى هذا الحد، فبمجرد سقوط روان، توجهت الأنظار إلى النقطة المهمة لتجمعات البروتستانت في نروماندي، وهي مدينة اورليانزر، لكن دخول فصل الشتاء حال دون إرسال الكثير من القوات الملكية إلى المدينة، وأُرجِعوا إلى ديارهم، باستثناء مرابطة بعض الحاميات العسكرية في المدن البروتستانتية الفرنسية حول اورليانز[٣٣٩].

بعد ذلك قرر قائد القوات الملكية فرانسوا دي غيز التوجه إلى لوهافر واخراج القوات الإنجليزية منها، ولكنه تراجع بمجرد سماعه أنّ كونديه غادر أورليانز متجها نحو باريس، فعاد الدوق غيز بقواته إلى العاصمة على الفور وأمر السكان بإخلاء الضواحي وقام بتوزيع قواته خلف أسوار المدينة، وكذلك بتجديد التحصينات الحدودية للعاصمة، لتطويق قواته كونديه والقضاء عليهم داخل العاصمة، ولكن من الملفت للنظر أن غيز لم يدرك خطورة اجراءاته هذه على سكان العاصمة والبلاط الملكي، عند اندلاع الحرب الأهلية المذهبية داخل أسوارها، وهو الأمر الذي ادركته الحكومة الفرنسية، لذا بادرت إلى التفاوض مع كونديه لعقد هدنة بينهما لحين التوصل إلى معاهدة تضمن سلامة ومصالح الطرفين، غير أن قوات الأخير قامت باختراق المعسكر الملكي والتوجه نحو بلدة شارتر (Chartres) في العاشر من كانون الأول عام ١٥٦٢، ولكن لعدم امتلاك هذه القوات الستراتيجية العسكرية الكاملة، نتيجة هجومهم المفاجئ دون تخطيط مسبق، وشعور الجنود الالمان بالقلق لأنهم لم يتقاضوا رواتبهم، الأمر الذي تسبب بانشقاق كبير في صفوف قوات المدفعية البروتستانتي[٣٤٠].

فضلاً عن ذلك كانت البلدة محصنة بشكل يصعب اختراقه، لذا أخذ زعماء الهيغونوت يبحثون عن هدف آخر، فقرر كونديه العودة إلى باريس، لكن الأميرال كوليجني أقترح عليه التوجه إلى نورماندي وضم قواته إلى قوات الإنجليز في لوهافر، وقد

---

(١) Lincolin Bruce,Op.Cit,P.125.

(٢) جان ايف موا، مختصر تاريخ الكنيسة، ترجمة: ناشد ساورس، ط٤، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٨٧.

وافق الجميع على هذا المقترح واتجهت قوات الهيغونوت نحو الشمال الشرقي الفرنسي، ولكن بعد عبورهم نهر أور (Or River) إلى مدينة تونون (Tonon) واجهوا الجيش الملكي في الريف المفتوح جنوب مدينة تور، والذي يضم حوالي ١٩.٠٠٠ جندي، وفي التاسع عشر من كانون الأول عام ١٥٦٢ عبر الجيش الملكي نهر أور وشكل خط المواجهة جنوب تور بين قريتي إبيناي (Ebenay) وبلينفيل (Plainville) وسمعت فرق الكشافة طبول الهيغونوت على بعد حوالي ميلين من الجنوب، بعد أن اقنع كوليجني كونديه بالتقدم، وتواجه الطرفان في معركة تُعد واحدة من أكثر المعارك دموية في القرن السادس عشر عُرفت بمعركة درو (Battle of Drew) [٣٤١].

يمكننا أن نجمل هذه المعركة في أربعة مراحل تطورت فيها العمليات الحربية الميدانية وتناوبت بين الخسارة والانتصار، واختلاف مواقف الدول الاوربية في تقديمها المساعدات المالية والعسكرية لكل الاطراف المتحاربة داخل فرنسا، وكما يلي:

المرحلة الأولى: هاجم فرسان الهيغونوت مشاة جيش الملك وتم اختراقهم، في حين توجه كوليجني بقواته نحو الكونستابل مونتمورينسي وتمكنوا من أسره، مما اثار الذعر في نفوس الجيش وهبوط الروح المعنوية لكافة الجنود الذين لم يلبثوا أن هربوا وأفرغوا الجناح الأيسر بأكمله. فيما بقي الجناح الأيمن للجيش صامداً تحت قيادة غيز وسانت أندريه[٣٤٢].

المرحلة الثانية: وقع العبء الأكبر في المعركة على الجناح الأيمن واضطر السويسريون إلى مواجهة هجوم فرسان كوليجني، الذين انضم إليهم لاندسكنيشت(مشاة ـ مرتزقة ألمان)، المعسكرين في قرية بلينفيل، عند ذلك حاول السويسريون استعادة بعض الأسلحة، لكنهم تقهقروا نحو قرية إيبيناي بعد أن تمكن فرسان الهيغونوت من تفكيك تشكيلتهم العسكرية، وأخذ الفرسان الألمان يرددون "**النصر...النصر**" وتوجهوا عبر

---

(١) Tilley,Op.Cit.,P:١٥٨.

(٢) Green, Op. Cit, P. 144.

السهول باتجاه نوسمينت من أجل نهب أمتعة الجيش الملكي، وبذلك فقد مشاة الهيغونوت دعم سلاح الفرسان الذين تفرقوا في جميع أنحاء السهل، لذا حاول كوندي وكوليجني إعادة حشدهم(٣٤٣).

المرحلة الثالثة: شنَّ فرانسوا دي غيز وسانت أندريه هجوماً عسكرياً لاجتياح الهيغونوت من قرية بلينفيل بعد أن لحقت بهم وحدة من قوات الدرك الإسباني واقتحموا صفوف مشاة الهيغونوت، ووقع كوندي في الأسر، وتراجعت فرقة الفرسان التي انهكها كثرة القتال وفقدوا التنظيم والعزيمة إلى غابات الجانب الشرقي الفرنسي، وبدا الجيش الملكي واثق ومطمئن للنصر، واقترب غيز من قرية بلينفيل لضمان استسلام جميع قوات الهيغونوت المتبقية، وبذلك دخلت المعركة في مرحلتها الأخيرة.

المرحلة الرابعة: خرج كوليجني من الغابة ومعه حوالي ألف فارس وأصبح الهيغونوت مستعدون للنصر من جديد، لكنهم تعرضوا لوابل من نيران جنود القربينة التابعين لغيز حتى حلول الظلام، أصبح من الصعب معرفة الصديق من العدو، عندها أضطر كوليجني وفرسانه إلى التراجع والانسحاب من الميدان الذي بات يعج بجثث القتلى والجرحى(٣٤٤).

نتائج المعركة.

كانت تلك ليلة مريرة اعقبت آلاف القتلى من الطرفين، إذ أصبحت ذات أثر سلبي حتى على الجرحى، مما زاد من حجم الخسائر البشرية، كما يشير إلى ذلك الدكتور أمبرواز باريAmbrose Parry الطبيب الفرنسي المرافق للجيش الملكي قائلا: "**لاحظت وجود سلسلة من الجثث مغطاة في جميع أنحاء الأرض، تقدر بنحو عشرة ألاف قتيل أو يزيد، جميعهم حُصدت أرواحهم في أقل من ساعتين**" وعلى الرغم من اختلاف الآراء في بداية الأمر بخصوص تحديد المنتصر في معركة درو، إلا أنّه

---

(١) Willston Walker, Op. Cit, P. 356.
(٢) Lars P. Qualben, Op. Cit, P. 264.

سرعان ما بدا واضحاً بأن التاج الملكي قد حسم المعركة لصالحه، ولكن الثمن كان باهضاً؛ إذ تشير التقديرات إلى أن عدد القتلى بلغ ستة الاف(٦,٠٠٠) جندي من القوات الملكية، منهم من يحمل رتبة كولونيل ومعظمهم من الضباط[٣٤٥].

بينما قدر عدد قتلى الهيغونوت بـ ثلاثة الاف(٣,٠٠٠) قتيل دون احتساب الألف وخمسمائة (١,٥٠٠) جندي من قوات لاندسكنيشت الذين استسلموا لغيز عند محاصرتهم في قرية بلينفيل، بينما كان وضع فرقة المشاة الهيغونوت في غاية الصعوبة، وهذا ما وصفه بعض الجنود الإسبان من الجيش الملكي مردداً أحدهم: "**لقد قمنا بملاحقتهم وإبادتهم بالكامل**"، كما كتب جندي آخر قائلا: "**وألحقنا بهم مجازر كبيرة وقتلناهم مثل الغنم**"، وأضاف آخر: "**دون أن نخسر الكثير من الرجال، كسرنا شوكتهم وقتلنا ثلاثة الاف منهم**"، وفي المحصلة النهائية لهذه المعركة قد يكون إجمالي عدد الضحايا من كلا الجانبين حوالي عشرة الاف(١٠.٠٠٠) مقاتل. والخسارة الأكبر للجيش الملكي هي مقتل الجنرال سانت أندريه بعد أن تم أسره[٣٤٦].

بعد انتهاء الحرب والتي كانت حرباً مذهبية أهلية طاحنة، وهزيمة وانسحاب البروتستانت إلى أورليانز، كان أمام جاسبارد دي كوليجني (Gaspard de Collegene) اعادة تنظيم الجيش وفرسانه من المتبقين، وكان أمامه إما استئناف القتال، أو الذهاب للسلم، في حين كان الطرف الملكي ـ وهو منتصر ـ نفس الفكرة؛ إذ تم تعيين فرانسوا دي غيز برتبة فريق بعد أسر مونتمورينسي، ورأى بأن الجيش بحاجة ماسة للراحة وإعادة تشكيلهم عسكرياً ومعنوياً، فاضطر إلى تشكيل وإنشاء سبعة عشر سرية عسكرية جديدة، وهكذا كان الوضع الديني والسياسي في فرنسا كما هو عند البروتستانت في غاية الإحراج والصعوبة؛ إذ كتب فرانسوا دو لا نويه قائد أحد الفرق

---

(١) جون لوريمر, المصدر السابق, ص٢٠٧.

(٢) عبد العزير الشناوي, المصدر السابق, ص٣٩٨.

البروتستانتية ضمن قوات كونديه في مذكراته ذلك واصفاً الحالة العامة[٣٤٧]، وانعكاساتها على الكنيسة والبلاط: "**إن المعركة كانت غير عادية، فقد أُسروا القادة من كلا الجانبين، وأتاح الوضع الجديد لكاترين دي ميديشي فرصة التفاوض على السلام، إذ استمعت إلى مطالب كوندي الذي ضغط من أجل عقد اجتماع مجلس وطني ديني في غضون ستة أشهر، لكن الأدميرال كوليجني- الذي حل محل كوندي كقائد بروتستانتي بعد أسر الأول- أراد مواصلة القتال وفي كانون الثاني عام ١٥٦٣ غادر دانديلو حاكم أورليانز إلى نورماندي حيث استعاد بعض البلدات، وفي الثالث من شباط عام ١٥٦٣ فرض غيز حصاراً على أورليانز، وبعد ذلك بثلاثة عشر يوماً، تم اغتياله على يدَّ بولتروت دي مير أحد النبلاء البروتستانت**"[٣٤٨].

ومن الجدير بالذكر هنا وبعد مقتل كوندي أصبح هناك انقسام وزعزعة في الجانب البروتستانتي؛ إذ اتهمت أرملته وأفراد عائلته كوليجني بالتحريض على قتله، ومن الطبيعي أن يعود انقسام القادة البروتستانت بالفرح والبهجة على الكنيسة والبلاط الملكي، لكن عائلة شاتليون لم تكتفِ بإلقاء اللوم على كولجيني فحسب، بل أصبحت تطالب بالثأر لكونديه من آل غيز، والتاج الملكي عموماً[٣٤٩].

من هنا وبسبب ما سال من الدماء والخراب الذي حلّ بالبلاد، وخشية من تفاقم الصراع إلى اندلاع حرب أهلية أخرى تنهك الشعب الفرنسي وتربك الوضع السياسي، حاول التاج الملكي انهاء الحرب الدينية بالتوقيع على اتفاقية سلام أمبواز Peace Amboise في الثاني عشر من آذار عام ١٥٦٣، ويعود فضل المبادرة فيه إلى الملكة الأم كاترين دي مديتشي التي كان اول تدخل رسمي لها بإدارة أمور المملكة، محاولةً إزالة أسباب الصراع المذهبي عن طريق حل سلمي يحفظ سلامة جميع رعاياها

---

(١) R.S. Knecht, Op,Cit,P:147.

(٢) Robert M. Kingdon, Geneva and the Consolidation of the French Protestant Movement,(1564-1572) Geneva, 1967, P: 117.

(349) Denis Crouzet, Les guerriers de Dieu: La violence au temps des troubles dereligion, vers 1525-vers 1610, vol.2 (Seyssel, 1990), P432.

المسيحيين، إذ نص المرسوم على[٣٥٠]:

١- العفو العام عن جميع الجرائم التي ارتكبها الهراطقة الهيغونوت سابقاً، شريطة ان يرضوا بالعيش كالكاثوليك الصالحين.

٢- لا يُطلب من العدالة إلا الهيغونوت الهراطقة، والمتآمرين. كما اضيف له بند آخر في السادس عشر من آذار نفس العام، يقرَّ للبروتستانت بحق "**الالتماس الجماعي**"، أي السماح لهم بعقد الاجتماعات الخاصة والعامة لمناقشة مصالحهم المشتركة وإقامة العبادات الدينية وممارسة طقوسهم العامة والخاصة. وفيما يخص البند الثاني(لا يُطلب من العدالة إلا الهيغونوت الهراطقة)، أي لا تطلب الحكومة من محاكم التفتيش إلا ملاحقة الهيغونوت المتعصبين(الهراطقة) ومحاكمتهم، حفاظاً على السلام العام.

٣- سُمح للنبلاء البروتستانت بالعبادة في ملكياتهم أو في منازلهم.

٤- فرضت قيوداً على العبادة البروتستانتية، فلم يستطيعوا ممارسة طقوسهم العبادية إلا في ضواحي بلدة واحدة لكل مقاطعة خارج مدينة باريس.

٥- ألزامهم بإعادة جميع ممتلكات الكنيسة التي استلوا عليها أثناء المعارك الحربية.

٦- تعهدت الملكية بإطلاق سراح جميع أسرى الحرب والسجناء الدينيين من الهيغونوت.

وما يتبقى أمامنا إلّا السؤال: هل حققت فعلاً اتفاقية سلام أمبواز سعي البلاط في إحلال الأمان والتعايش السلمي بين مسيحيي فرنسا؟!

عند استقراء الأحداث وتطورات الشارع الفرنسي بعد الحرب الأهلية المذهبية، نجد ان اتفاقية أمبواز جاءت بنتائج عكسية ولم تحظى بقبول الجميع؛ إذ أصبحت هناك معارضة للبروتستانتية للسلام، فقد تذكّر البروتستانتيون مرسوم كانون الثاني لعام ١٥٦١ الذي سمح لهم بالعبادة في أي مكان خارج المدن المسورة، فبدأوا يندبون ذلك المرسوم

---

(١) Henri Hauser, Op,Cit,P:187.

محاولين التنصل من تطبيق بنود امبواز، وشكلوا عصابات صغيرة قامت بتدمير كنائس أورليانز التي كان من المفترض أن تعود للسلطات الملكية الكاثوليكية. أما في روان فقد رفض المجلس النيابي الامتثال لبنود مرسوم السلام(امبواز)، ولم يسمح لأي شخص من الهيغونوت الذين شاركوا في الحرب المذهبية والاستيلاء على المدينة بالعودة إليها. وبالرغم من كل ذلك وتزعزع هذا السلام إلا أنه سيّر الحال لمدة أربع سنوات قد تكون سنين حذرة جداً ـ وكما سنذكر لاحقاً ـ، مما مكن التاج الفرنسي من محاولة طرد الإنجليز من أراضي فرنسا[٣٥١].

لم يمض سلام أمبواز خلال هذه الأربع سنين دون ردة فعل من الكاثوليك وزعمائهم، فقد جاءت مقاومة المجالس التشريعية المحلية للمدن الفرنسية عنيفة على نتائجه بحق طائفة الهيغونوت، فقد أدت تصريحات مجلس بورغونيا Burgonie الفرنسي الصادرة عن المستشار الكاثوليكي جان بيغا Jean Bega إلى نشوء جدال طائفي تتجدد خلاله الحروب المذهبية في عموم المدن الفرنسية؛ لأنه يوضح اختلاف التوجهات السياسية والدينية بين جماعة السياسيين من الكاثوليك المتعصبين[٣٥٢]، إذ عبروا بوضوح عن مجمل نظريتهم التي جاءت إحياءً للصراعات الدينية التي شنتها المملكة الفرنسية ضد الألبنجنزيين في القرن الثاني عشر، إذ تضمن الخطاب: "**هل أحد سمع أم قرأ منذ سابق الأيام وحتى يومنا هذا أن رعايا هذه المملكة انقسموا بسبب الدين؟ فمن تراهم الذين يزعمون أن باستطاعة ملك مسيحي أن يسمح بقيام طائفتين مختلفتين في مملكته من دون أن يؤدي ذلك إلى خرابها؟ ومن أي زمان يريدون**

---

[١] أرسلت الحكومة الفرنسية في الأول من تموز جيش كبير بقيادة المارشال بريساك Brissack والكونستابل مونتمورينسي لحصار لوهافر وإخراج القوات الإنجليزي التي دخلتها ضماناً للحصول على ميناء كاليه بمساعدة الهيغونوت وفق الاتفاق المعقود بينهما بداية عام ١٥٦٢, وبعد قصف استمر ثلاث ليال استسلم القائد الإنجليزي إيرل وارويك Earl Warwick وسلم المدينة للقوات الفرنسية في السابع والعشرون من تموز عام ١٥٦٣.

[٢] D .William Hanna, The Wars Of The Huguenots, New York,1872,P:88.

الإتيان بالشواهد؟ بل في أي مكان يريدون العثور عليها؟ ما دام لم يقم أي إمبراطور في القسطنطينية ولا في روما ولا حتى ملك على عرش فرنسا منذ اعتناق الأمراء للدين المسيحي إلا واجتهد لإبقاء رعاياه في كنف الديانة التي يعتنقها"[٣٥٣].

في هذا الخطاب نستشعر بانّه خطاباً استُعرض فيه تاريخاً طويلاً من الدروس والعِظات، عبر استدعاء سيرة أبرز مؤرخي تاريخ المسيحية القديم من سقراط (Socrates) إلى سوزومين (Suzumin) وأوسابيوس (Eusebius) وروفينيوس (Rufinius) وكاسيودور (Kasiodor) وغيرهم، ليشهدوا على فقدان التسامح بين أبناء الديانة الواحدة نتيجة اختلافهم حول بعض العقائد حتى أخذوا يطلقون على فئة من المسيحيين بـ الهراطقة والمنشقين بين ابناء الديانة الواحدة.

لم يبقَ هذا الكلام التوعوي المعبّر دون رد وتفنيد! بل تولى التعليق عليه ودحضه أحد المناصرين للبروتستانت المتحمسين لقرار أمبواز في دفاعه له عام ١٥٦٣، إذ كتب مقاله بعنوان: "**دفاع عن قرار الملك حول التهدئة في مملكته ضد تنبيه جمعية بورغونيا**"، والذي اعتبره من الهيغونوت وسيطلق عليه جان بيغا اسم السيد المدافع، مما يدل على أنه لم يعرفه بغير هذه التسمية، تضمن مقاله بالنص: "**لقد سمح القرار الملكي بوجود مذهبين، لكن السماح هنا لا يعني الإقرار، فالله يسمح بوجود الخطيئة ويدعهم يعيشون، حتى ولو لم يكن راضيا عنهم، شأن الملك الذي يسمح بإنشاء البيوت العامة للنساء السفيهات والعاهرات بالرغم من رفضه الفجور والدعارة، وما الغاية من هذا السماح، إلا لتجنب شرور أكبر في المملكة، تلك هي الحال أيضا بالنسبة إلى السماح بعقيدتين في فرنسا**"[٣٥٤].

ومما يمكن ملاحظته هنا إن هذه الطريقة التي تجيز التسامح الأهلي، لا تتعارض مع العقيدة الكاثوليكية التي أعتمدها القديس توما الإكويني Thomas Aquinas

---

(١) R.S. Knecht, Op,Cit,P:1. ٥٨

(٢) Nancy .L.Roelker, Op, Cit,P:115.

(١٢٢٥-١٢٧٤) من قبل في تبريره التسامح مع اليهود والوثنيين، وسيراً على نهجه، اعتمدها اللاهوتيون بدورهم أمثال إراسموس الروتردامي Erasmus of Rotterdam (١٤٦٩-١٥٣٦)، لتبرير التسامح مع البروتستانت، ومن جاء بعده من المصلحين، الذين يؤمنون بأنّ الأمة كالعائلة جماعة متميزة عن المجتمع الديني، ويمكنها أن تشمل تنوع المذاهب الدينية، دون أن يتسبب ذلك في اضمحلالها، فنذكر نص يوضح ذلك[٣٥٥]، عطفاً على ما ذكره الكاتب المجهول الآنف الذكر: "**إذا ما استطعت، أن أبين لكم أن تنوع المذاهب الدينية لا يتنافى مع السلام في العائلة التي يمكن أن يحيا أفرادها في تآلف وانسجام داخل البيت الواحد، فستعترفون لي بإمكان قيام ذلك في المملكة الواحدة، ويقيني أنكم سترددون مع القديس بولس ما هو معلوم لديكم جميعا من أنه:(إذا كان لأخ امرأة غير مؤمنة ارتضت أن تساكنه، فلا يتخلى عنها، وإذا كان أخ له امرأة غير مؤمنة وهي ترتضي أن تسكن معه فلا تتركه)، فتنوع الدين لا يمنع الحديث المشترك واستتباب النظام بين الأفراد البشريين إذا كانوا مرتبطين بشركة الزواج أو غير ذلك من العلاقات الاجتماعية**" [٣٥٦].

يظهر من خلال ذلك، أن الكاثوليك المتعصبين قد تخلوا هم أنفسهم عن فكرة إعادة الوحدة الدينية إلى المملكة بالقوة، لكنهم حصروا حرية الضمير بالعبادة الداخلية والعبادة الخاصة، حفاظا على وحدة العبادة العامة، وفق البنود التي لخصها مقال السياسي المجهول، تحت عنوان "**خطاب موجز حول الحالة الحاضرة والوسائل الناجحة لمعالجة الاضطرابات التي نخشى حدوثها في المستقبل**" والصادر في آذار عام ١٥٦٤، تضمن المقال ثلاثة مرتكزات أساسية للحفاظ على السلام في الملكة الفرنسية[٣٥٧]، تتمثل في:

---

(١) Samuel Smiles, The Hugunnots London Jojn murray, Albemarle Street ,1876,P:21.

(٢) Robert M. Kingdon, Op,Cit,P:157.

(١) Samuel Smiles,Op,Cit,P:77.

١-ضمان الحرية الدينية بتدارك الانحرافات المتطرفة في المحاكم الكنسية وحكام المقاطعات؛ لقطع السبيل على كل ما من شأنه أن يبعث على الشك والريبة ويؤدي إلى خلافات مذهبية بين الرعايا.

٢-السماح بممارسة شعائر المذهبين علنا في كل مكان، وعدم السماح بلزوم الحياد والامتناع عن ممارسة إحدى العقيدتين، فإذا ما تم الاحتفال بالعقيدتين في وضح النهار، فإنه يمكن تلافي نشوء التجمعات غير المشروعة والثورية، وتكاثر الفرق السرية وما شابه، ودرأنا الخطر الأهم وهو الإلحاد.

٣-إنشاء غرفة تحقيق مشتركة من كلا المذهبين في كل مجلس محلي، تتألف من القضاة الأكثر اعتدالا من كلتا العقيدتين، لمعرفة الأسباب المدنية والمذهبية التي تستدعي مثول المتهمين أمام المحكمة المختصة بالشأن الديني[٣٥٨].

ومما يمكن ملاحظته على الكاتب أنّه يسعى إلى تفعيل الوسائل السلمية التي تنمي لدى جميع رعايا الملك الشعور بالثقة والأمان، وهذا ما سيفعله الملك شارل التاسع مع والدته عند زيارتهما في اذار عام ١٥٦٤ لمقاطعة روان لتهدئة أوضاع البروتستانت والسماح لهم بالعودة والعيش في مساكنهم، ليتفرغ البلاط الملكي للتوسع الخارجي وكان الهدف من ذلك ذو شقين: **الأول:** هو تقديم الملك نفسه لشعبه. **الثاني:** للحد من استقلال المجالس النيابية في الاقاليم والسلطات البلدية في المقاطعات الفرنسية، فأخذ شارل يتدخّل في شئون كل بلدة تقف في طريق تقدمه وتمكن تحقيق توازن بين الأحزاب الدينية، وبحلول الأول من آيار عام ١٥٦٦عاد البلاط الملكي إلى باريس وبدت فرنسا أكثر سلاما واستقرار بين جميع الفئات المسيحية.

---

(٢) Mack Holt, The French Wars of Religion(1562–1629), Second Editio, Pares, 1892,P:53.

المبحث الثالث

استئناف طرفي النزاع للحروب المذهبية الأهلية

(١٥٦٧-١٥٧٢)

توقعت الحكومة الفرنسية بأنها ارست دعائم السلام وانهت الخلافات المذهبية بين فئات المجتمع الفرنسي بتوقيع مرسوم امبواز، وفي الحقيقة لم يكن هذا الاتفاق وكما اثبتت الأحداث اللاحقة سوى هدنة صغيرة بين الطرفين ليعيدوا ترتيب قواتهم من جديدة لان الأرض كان خصبة لاستقبال الموجة الفكرية من الخارج الذي لا زال يعيش ثورة الإصلاح والتغيير بزعامة البروتستانت الذين اصبحت لهم مراكز قوى في العديد من دول أوربا الغربية.

مفاجأة (مو) والحرب المذهبية الثانية (١٥٦٧-١٥٦٨).

شهد عام ١٥٦٦ حركة كالفينية قد تكون نوعية في تأثيرها أدّت إلى اندلاع انتفاضة خطيرة في هولندا الاسبانية، ولأجل توخي ما يؤول إليه حال كل انتفاضة من دمار او فتنة، أمر ملك إسبانيا فيليب الثاني Philip II (١٥٥٦-١٥٩٨)، دوق ألبا بسحق الثورة انطلاقاً من ميلانو ناحية الشمال على طول ما يسمى بالطريق الإسباني، مما جعل الجانب الفرنسي في حذرٍ كبير على أنّه محاولة غزو من الصديق الإسباني، أو الكالفينية الاسبانية لأراضي ألبا الفرنسية؛ على اعتبار ان الطريق الإسباني يطلّ على مشارف الحدود الشرقية لفرنسا، وكأجراء دفاعي أوعز الملك شارل التاسع لستة آلاف جندي من المرتزقة السويسريين، لحماية الحدود الفرنسية من الاضطرابات الإسبانية، الوضع الذي أربك زعماء الهيغونوت وأثار قلقهم خشية استخدام هذه القوات ضد اتباعهم، في تلك المناطق سيما وأن مرسوم أمبواز لم يكن إلا هدنة قصيرة للمذاهب الدينية داخل فرنسا؛ إذ إنّ الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية لم تكن قد ألقت السلاح فعلا، ومن جانب آخر لم تكن فرنسا قد حققت سوى هدنة مؤقتة بين القوى المتنافرة، كان

فيها الحكم الملكي عاجزاً عن السيطرة على تلك القوى، بدليل حصول انقسام جديد بين القوى المتصارعة في فرنسا(الكاثوليك والبروتستانت) في عام ١٥٦٧ بسبب حدثين خطيرين أديا إلى استئناف الحرب المذهبية الأهلية في المدن الفرنسية[٣٥٩]:

الحدث الأول، كان في مدينة نيم (Neem) الفرنسية في الثالث من أيلول عام ١٥٦٧، عندما أقدمت مجموعة من المتطرفين الكاثوليك، قبيل عيد القديس ميشال (Michel)، على ارتكاب مجزرة بشرية مريعة في ساحة الأسقفية أسفرت عن مقتل ثمانين شخصاً ما بين علماني وقس وراهب بروتستانتي، **وأما الحدث الثاني،** فهو قرار زعماء الهيغونوت بتوجيه ضربة استباقية وتنفيذ مخططهم السابق بالسيطرة على البلاط الملكي أثناء تواجده في مقاطعة مونسيو (Monceau)، لذا حاول كونديه، في الرابع والعشرين من أيلول عام ١٥٦٧ إلقاء القبض على الملك شارل التاسع وأمه بطريقة مفاجئة أثناء انعقاد المجلس الاستشاري للبلاط في مدينة مو(Mo) ، وبالفعل اقتحمت قوات كونديه قصر الاجتماع واحكموا محاصرتهم للمجتمعين بحيث لم يتمكن أعضاء المجلس من الهروب إلا في اللحظة الأخيرة وتمكنوا من الاحتماء خلف أسوار المدينة[٣٦٠]، لكن سرعان ما اكتشفت كاترين دي ميدتشي تعبئة الهيغونوت.

فأوعزت إلى الملك شارل التاسع، في السابع والعشرون من أيلول عام ١٥٦٧ بتوجيه القوات السويسرية المرابطة في مدينة شاتو- تييري بالانضمام إلى القوات الملكية المتواجدة في مدينة مو، لصد قوات الهيغونوت، ولكن وجد الجيش الملكي أن طريقه مسدوداً من قبل الهيغونوت، لذا اضطر الملك إلى التفاوض مع كونديه لأنهاء الاضطرابات وفتح الطريق أمام قواته لتأمين عودته مع الوصية إلى باريس، غير أن تلك المفاوضات لم تسفر عن فائدة تذكر، وزادت الأمور تعقيداً بمحاصرة كونديه لمدينة باريس بجيشه الذين أضرموا النار في طواحين الهواء قرب البوابة الشمالية لباريس بعد

---

(١) Catherine Charlotte, Lady Jackson, Op,Cit,P:212.

(٢) David Criswell, The Rise and Fall of the Holy Roman Empire,Baltimore,2005, P:221.

أن نصبوا مخيمات عسكرية في مدينة سان دوني (Saint–Denis)، فاضطرب أهالي باريس لهذه الأحداث كثيراً، الأمر الذي تطلب استدعاء الجنرال آن دي مونتمورينسي (Anne de Montmorency) بقوات المشاة من بيكاردي وليون، في ذات الوقت أصدر الملك أوامره إلى مجلس مقاطعة أورليان (Orléans) ولاروشيل(La Rochelle) بمحاربة الهيغونوت في أراضيهم، لتضييق الخناق على قوات كونديه والحيلولة دون وصول الامدادات من أنصارهم في هذه المقاطعات.

في ظل الاجراءات الآنفة الذكر، تمكن الجنرال مونتمورينسي من تأمين طريق العودة للملك ووالدته حتى وصولهم باريس في الرابع من تشرين الأول عام ١٥٦٧، والذي تعهد بمطاردة الهيغونوت في ديارهم أينما كانوا، وقد وصفت الملكة كاترين الاجراء الذي أقدم عليه الهيغونوت، والمعروف بمفاجأة **مو**، بـ "**أعظم الشرور التي ارتكبت في العالم**"[٣٦١]، كما شكّلت مؤامرة كونديه نقطة تحول حاسمة في موقف الملكة كاترين تجاه البروتستانت بعد سلام أمبواز، جعلتها تضمر لقادتهم عداوة خفية وعميقة، فبينما كتبت إلى السيد دو غورد (Du gourd) الحاكم العام لمقاطعة دوفينيه (Dauphin)، عشية مؤامرة كونديه، رسالة تضمنت: "**بأن يدع الرعايا هناك يعيشون بسكينة وهدوء محافظين على القرارات والقوانين وفق ما جاء به اتفاق أمبواز**"، وإذا بها تكتب رسالتها إلى الحاكم نفسه بعد أيام، عبارة جازمة تطالبه فيها "**بأن يقطّع كل الذين يحاولون مساندة الهيغونوت إرباً من دون أن يترك أحداً، لأنه بقدر ما يزيد عدد القتلى يقل عدد الأعداء**"[٣٦٢].

جاء موقف الملك الفرنسي من الهيغونوت، بأن طلب من قادتهم في السابع من تشرين الأول عام ١٥٦٧ المثول أمام البلاط الملكي والاعتراف بأنهم متمردون، وهنا لا بدَّ من توضيح إقدام الملك على هذا الاجراء بدل من إبادتهم، وذلك لأن الوضع في

---

(١)Mack Holt, The French Wars of Religion(1562–1629), Second Editio,Pares,1892,P:53.

(٢) Catherine Charlotte,Op,Cit,P:235.

مضطرب في الكثير من المدن والمقاطعات الفرنسية نتيجة انعكاس توتر العلاقة بين ابناء الشعب أنفسهم(الهيغونوت والكاثوليك) من جهة، وعلاقة الهيغونوت مع السلطة الملكية، لذا لم يكن الظرف مناسب لإعلان الحرب ضد المتآمرين على الملك واندلاع حرب أهلية جديدة، لكنه سيضطر في النهاية من محاربتهم لأن زعماء الهيغونوت رفضوا الامتثال لأوامر الملك، بل زادت الأمور تعقيداً عندما كوندي مطالبه السابقة لعام ١٥٦٢، والمتمثلة بطرد جميع آل غيز عن مجالس الحكم في المملكة واستبعاد الملكة الأم من السلطة والدعوة الى عقد مؤتمر ديني وطني عام يكفل حقوق جميع المذاهب الدينية.

يتضح مما تقدم أن الهيغونوت وضعوا الملك على المحك معهم، إذ جاء رد البلاط في العاشر من تشرين الثاني عام ١٥٦٧، عندما شنّ مونتمورينسي بقواته المتكونة من ستة الاف(٦.٠٠٠) جندي مشاة وثلاثة الاف(٣.٠٠٠) جندي من سلاح فرسان وثمانية عشر مدفع، هجوماً عليهم والذين امتدّوا في خطّ واحد بين قريتي سان أوين –(Saint Ouen) وأوبرفيلير (Oberplier) وبدأت معركة سانت دينيس (Saint Denis) بقصف المدافع الملكية لمراكز الهيغونوت[٣٦٣]، ومع تقدم ميسرة الجيش الملكي، وضع كوليجني المتطوعين الباريسيين عديمي الخبرة في الخلف، ثم هاجم كونديه بقواته البالغة أربعة الاف(٤.٠٠٠) جندي من المشاة وألفين(٢.٠٠٠) جندي من سلاح الفرسان، مخترقا قلب الجيش الملكي حتى أصيب مونتمورينسي بجروح خطيرة وأصبح الأمير اليكسندر ادوارد فالويس دوق أنجو شقيق الملك شارل التاسع، قائداً للجيش الملكي، وعلى الرغم من نجاح كونديه في بادئ الأمر، إلا أنه لم يكن يمتلك قوات كافية لفرض الحصار على باريس، فترك معسكره متوجهاً شرقاً لضم قوّات المرتزقة الألمان المحاربون إلى جانب الهيغونوت بقيادة جون كازيمير (John Casimir)، في هذه الاثناء انطلق جيش الملك

---

(١)Denis Crouzet, La nuit de la Saint-Barthélemy, Un rêve perdu de la Renaissance, Paris, 1994,P:57.

بقيادة دوق أنجو ليعسكر في بلدة فيتري-سور- سين(Vitry-sur-Seine)، بانتظار انضمام قوات جديدة إليه من المرتزقة السويسريون بقيادة الكاردينال آومالي (Aomali) ونيفيرز(Nevers) والتقى الطرفان في الثاني والعشرون من تشرين الثاني عام ١٥٦٧ بالقرب من شالون ـ سور مام (Chalon-sur-Mame)، لكن الهيغونوت تمكنوا من الفرار في جنح الظلام لعدم قدرتهم على مجابهة الجيش الملكي المتفوق عليهم في العدة والعدد[٣٦٤]. الأمر الذي عده الجيش الملكي انتصاراً حاسماً لهم، لذا تفرقت القوات السويسرية وبعض فرق دوق أنجو لا سيما بعد إصابة قائدهم مونتمورينسي.

أما قوات الهيغونوت، فقد مثل انسحاب المرتزقة من الجيش الملكي فرصة ذهبية لكونديه الذي ضم قواته في الحادي عشر من كانون الثاني عام ١٥٦٨ إلى جيش جون كازيمير في بونت-أ-موسون (Pont-A-Muson) ، عازماً على محاصرة باريس وتعويض خسارتهم السابقة، في الوقت الذي لم يكن فيه البلاط الملكي مستعداً لخوض هذه الحرب بعد تفرق قوات المملكة، لذا تردد الملك في بدء القتال لأنه مدركاً للخسائر التي تتكبدها المملكة بسبب عدم تكافؤ القوى، لذلك عمد إلى فتح باب المفاوضات مع كونديه وتأجيل التكتيكات العسكرية على أمل أن يؤدي حلول فصل الشتاء إلى انحسار الهيغونوت وصعوبة خوضهم المعارك، وبالفعل لم يجد الطرفان بداً من ترك القتال والركون إلى السلام، ففي الثالث والعشرون من آذار عام ١٥٦٨، تم التوقيع على سلام لونجومو (Longomu)، الذي أعاد مرسوم "**أمبواز**" بدون الإضافات التي تقيد العبادة البروتستانتية وجاء في بنوده[٣٦٥]:

١-وعد الملك، الهيغونوت بالعفو الكامل عن كل ما ارتكبوه من جرائم بحق المسيح الكاثوليك.

٢- تعهد الملك بمساعدة الهيغونوت في دفع أجور فرسان جون كازيمير.

---

(١)Mack Holt, Op,Cit,P:155.

(٢) N.M.Sutherland, The Huguenot Struggle for Recognition, New Haven,1980, P:44.

٣- أن يلتزم الهيغونوت بحلّ جميع القوات المرتزقة وإعادتهم إلى ديارهم.

يُفترض مع إبرام سلام لونجومو إنهاء الخلافات القائمة بين الكنيسة والبلاط الملكي الفرنسي ضد المسيحيين من الهيغونوت الذين يُعتبرون من رعاياهم، لكنه بالفعل قد ذهب السلام مهب الريح! فكانت للملك أيدولوجيته الخاصة في التعامل مع الرعايا؛ فأبدى كامل المرونة والعطف تجاههم، متحيناً الفرصة المؤاتية للانتقام مع الملكة كاترين ـ والتي كانت هي كذلك تمتلك نفس الهوى إن لم يكن أكثر ـ فهي كذلك كانت تفكر بالانتقام منذ لحظ إبرام هذا السلام، ولم ترع السنوات التي كان مستشارها دي لوربيتال ينصحها ويشجعها على اتباع سياسة التسامح تجاه المصلحين من البروتستانت والهيغونوت، والذي كانت له وقفة فيها من الحكمة والسياسة التي من شأنها إحلال السلام إلى حد ما.

فبالرغم من اصرار الملكة على الانتقام كانت هناك بعض الأسباب التي أدّت بها إلى الهدوء المؤقت والتريث، من أهمها:

١- استنزاف طاقات وقوى الجيش آنذاك.

٢- كثرة العصابات المسلحة للكاثوليك في الكثير من مناطق فرنسا.

٣- التنظيم العالي وكثرة البروتستانت والاستعداد للتسلّح.

٤- هروب كونديه وكوليجني إلى مدينة لاروشيل لتجهيز قواتهما والاستعداد لأي طارئ.

ولأجل ذلك وبُغية الهدوء (المؤقت) اعتمدت الملكة بعض الأساليب التي من شأنها أن تعيد التوازن ولو قليلاً لصالح قواها، وهكذا عاد البلاط الملكي إلى سياسة العنف والاضطهاد من جديد، مما ساهم بشكل فعّال ومؤثر في كثرة الانقسامات الدينية والحروب المذهبية بين أبناء البلد الواحد (فرنسا)، لكن المؤمّل وقتئذٍ أن يحدث هدوء نسبي يجعل بعض الرعايا تتفق مع الملك لإحلال شيء من السلام.

ولأجل هذه السياسة اعتزل مستشار الملكة الحياة السياسية وقرر الاستقالة التي وافق عليها الملك عشية السابع والعشرين من نيسان عام ١٥٦٨، والذي دعا الملك من عزلته مرة أخرى عبر مذكرة أوجز فيها ما يجول في خاطره من اتخاذ التهدئة وترك الأجواء الملتهبة في المملكة، بعدما أصدر الملك قراراً يمنع كل ممارسة علنية للعبادة البروتستانتية بسبب استئنافهم للأعمال الحربية. وبعد الجهود المضنية التي حاول من خلالها بعض الرعايا (الهيغونوت) اثبات الولاء للتاج الفرنسي، لم يكف المستشار دي لوربيتال من مواصلة سعيه للتوفيق بين أعضاء المملكة المنقسمين في أيدولوجياتهم الدينية والإيمانية بحملهم على العيش سوياً فيما بينهم وبين الكاثوليك [٣٦٦] فقال في مذكرته للملك: "**فكما إن الأب لا يدع ولديه المتخاصمين يتقاتلان... بل يسعى إلى التوفيق بينهما وعمل ما من شأنه أن يجعلهما دعامتين وطيدتين لشيخوخته، كذلك الملك لا يمكنه، من منطلق محبته العارمة ورأفته الأخوية، أن يطيق إصراره بمثل هذه الضراوة والمكر على إبادة قسم كبير من رعاياه إذا كان في الإمكان إعادة هؤلاء إلى واجبهم والتوفيق في ما بينهم فإن خلاص المملكة يتوقف على ذلك**".

والمُلاحظ هنا إنّ هذا المستشار كان يبعث مفهوم الاعتدال السياسي للجميع بما فيهم الملك نفسه، بالرغم من ولاءه وإخلاصه للملك! إذ رسم دي لوربيتال لوحة فنانة مبهرة احتوت على مفاهيم عدّة؛ السياسة، والاعتدال، والولاء، واحترام الدين بشتى طقوسه، ولا ينافي أحدهم الآخر.

كان يتمنى المستشار ان تستمر هذه الأفكار والرؤى، وبالفعل سرعان ما تشكّل حزب "**السياسيين المتعدلين**" في سنة ١٥٦٨، بنشاط الجنرال آن دي مونتمورينسي (Anne de Montmorency) الذي كان يشاطر المستشار الكثير من مفاهيم الاعتدال، حتى أصبح أولاده كُل مِن حاكم مدينة باريس فرانسوا دي

---

(١) Mack Holt, Op,Cit,P:147.

مونتمورينسي(François de Montmorency)، وحاكم مقاطعة اللونغدوغ (Longgood) هنري دي مونتمورينسي(Henry de Montmorency)، قادة الحزب الفعليين. ومن هنا أيضاً نعرف حجم الانسجام والوئام والمتبنيات الفكرية بين المستشار والقائد بحيث دفع أولاده لقيادة الحزب المعتدل. كذلك شمل الحزب أمير مدينة ميرو(Miro) والقائد العام للسويسريين شارل دو دامفيل (Charles de Damville)، وغيوم (Clouds) أمير توريه(Torre)[٣٦٧]. وبدا يكبر هذا الحزب شيئاً فشيئاً بانضمام المريدين لهذه الأفكار والتطلعات، ومن الجدير بالذكر ان عائلة كوشيه بكبار قضاتها والعسكريين والسياسيين ورجال دين قد انضموا لهذا الحزب. وبذلك اصبح الحزب ذو مكانة اجتماعية وسياسية واقتصادية كبيرة في عموم فرنسا. لكن هذا الحزب شكّل سبب مباشر في حدوث ثورة مسلحة ساهمت باستئناف الحروب المذهبية الفرنسية من جديد والتي استمرت سنتين (١٥٦٨ ـ ١٥٧٠)[٣٦٨]، وكما سيأتي بيانه.

وبذلك يمكن الاستنتاج بأنه من الصعب تطبيق هذه البنود على يدَّ الملكة كاترين؛ بسبب دسائس الأحزاب السياسية والدينية وزعمائها، بالرغم من مهارتها وجرأتها، فقد عرفت المملكة فترة سلام نسبي عقب صلح لونجومو[٣٦٩]، الذي لم ير فيه الرأي العام أكثر من هدنة مؤقتة؛ فالكاثوليك يشكلون عصابات مسلحة في كل مكان من فرنسا، والبروتستانت ينظمون أنفسهم بالطريقة نفسها، وذلك لأن أطراف الصلح لم تكن جادة في تطبيق بنوده، لذا توجه كونديه وكولونيي إلى مدينة لاروشيل لتجهيز قواتهما والاستعداد خشية انطلاق الحرب بصورة مفاجئة، والتي ستحدث فعلا

---

(١)Arthur Tilley, The French Wars of Religion ,London, Macmillian Company,1989,P:17.
(٢) D .William Hanna, Op,Cit,P:133.
(٣) Ibid, P.119.

نهاية عام ١٥٦٨ وهي الحرب المذهبية الأهلية الثالثة التي تشهدها مدن فرنسا في القرن السادس عشر[٣٧٠].

الحرب المذهبية الثالثة (١٥٦٨-١٥٧٠):

في الثالث والعشرون من آب عام١٥٦٨ وصل كونديه وكوليجني إلى لاروشيل لإعادة جمع قوات الهيغونوت، بعد أن وردته أخبار تفيد بأن القوات الملكية أخذت تتجمع وتستعد قرب باريس وبورغوندي، لذا تطلب الأمر من كونديه أن يكمل استعداداته العسكرية سريعاً، فطلب مساعدة انصار الهيغونوت من الإنكليز والهولنديين الذين صولوا إلى لاروشيل في الثامن عشر من أيول عام ١٥٦٨، كما انضم إليه قوات من نورماندي بقيادة الجنرال روبيرت دي انديلوت وقوات بريتاني بقيادة هنري دي نافار، فبادر الهيغونوت بتنفيذ خطة استباقية بأن وسّعوا المنطقة العازلة بينهم وبين القوات الملكية من خلال الاستيلاء على عدد من المدن المحصنة في مقاطعة بواتييه حتى وصلوا مدينة ميدي بيرنيه، إذ ألتقى كونديه بحشود الهيغونوت الذين تجمّعوا من مدن داوفين (Dauphin) وبروفانس ولانجدوك بقيادة الجنرال بول دي موفانس وجاك داكيه[٣٧١].

وفي الخامس من نيسان عام ١٥٦٩ انطلق جيش الهيغونوت بقيادة كونديه وكوليجني وصلوا إلى نهر تشارينت(Charente River) ، وبين محاولتهم السيطرة على الجسور وتجنب الاشتباك مع القوات الملكية، إلا أن جيش دوق أنجو بقيادة الجنرال تافانيس(Tavannes) واجههم على الضفة المقابلة، عابراً النهر لمدينة شاتونوف (Chateauneuf) وحاصر كوليجني الذي قُتل عدد كبير من جنوده اثناء المواجهة، الأمر الذي استدعى مجيء كونديه لمساعدة كوليجني، قام كونديه بالهجوم على ٣٠٠ من جنود دوق أنجو وتواجه الطرفان في معركة سُميت بـ جارناك (BattleGarnak)، إلا أنه لاقى هزيمة ساحقة على يد عدد كبير من القوات الملكية، انتهت بقتله على يد

---

[١] عبد العزيز الشناوي, المصدر السابق, ص٣١٦.

[371] Charles butler, op, cit, p.437.

حارس اليكسندر دوق أنجو بعد أن استسلم له، حينها لم يبقى امام كوليجني ألذي أصبح القائد العام للهيغونوت إلّا التقهقر غرباً حفاظاً على سلامة قواته من المشاة وحتى يتمكن من إعادة جمع انصاره ليثأروا لزعيمهم كونديه[٣٧٢].

أما دوق أنجو فقد قرر مطاردة كوليجني والقضاء عليه، لكنه توقف خارج مدينة كونياك (cognac)؛ في انتظار وصول سلاح المدفعية من باريس عبروا نهر لوار متجهين غرباً عبر بلدة بيري(Perry)، وفي الثاني عشر من حزيران التقى بجيش الهيغونوت في ميناء بريست(Brest)، وكان الطرفان متعادلين الكفة ومتكافئان من حيث القوة، إذ تمركزت قوات دوق أنجو في مرتفعات مدينة لاروش لابيل (LaRouche) (LaBelle)، بينما بقيت كتيبتي مشاة بالوادي في الأسفل، هاجم كوليجني هذه القوات وتمكن من سحقهم انتقاماً مما حدث في معركة جارناك، وبينما أراد كوليجني متابعة انتصاره بالزحف نحو باريس، تم إقناعه من قبل انصاره بمحاصرة بواتييه بدلاً من ذلك، وهكذا بدأت عملية بواتييه في الرابع والعشرون من تموز عندما قرر دوق أنجو جمع قواته مع فرسان هنري دي غيز ومدفعية الكونت دو لود(Du Lod)، لحماية باريس والتصدي لكوليجني، وبهذا أنشأ الملكيون معسكر قوامه نحو ٢٦.٠٠٠ جندي استقر في مدينة شينون(Chinon) ، الأمر الذي دفع كوليجني في السابع من أيول إلى رفع حصار بواتييه، استعداداً لملاقاة الجيش الملكي، وفي الثالث من تشرين الأول ألتقى المعسكران(الملكي والهيغونوت) في مدينة مونكونتور(Moncontor)، والتي مُنيَّ فيها جيش كوليجني بخسائر كبيرة تقدر بـ(١٠.٠٠٠) مقاتل، على العكس من الجيش الملكي الذي لم يخسر نصف هذا العدد[٣٧٣].

---

(372) Michel de Montaigne, The Complete Essays, ed. and trans.Loondon, 1993, P342.

(373)Thierry Wanegffelen, Ni Rome ni Genève: Des fidèles entre deux chaires en France au XVIe siècle (Paris, 1997), P452.

وعلى الرغم من الضغط الذي تعرض له اليكسندر دوق أنجو من البلاط الملكي لمطاردة العدو، إلا أنه فضل سياسة الغزو التدريجي للبلدات التابعة للهيغونوت، آمراً قواته بالتوجه نحو لاروشيل بعد أن استولى على نيور وفرض حصاراً على سان جان دجيلي، حتى أدت هذه المعارك إلى إصابة جيش دوق أنجو بالأمراض والتي هرب بسببها الكثير من قواته، ومع اقتراب فصل الشتاء أصبح موقف دوق انجو العسكري حرج جدا لذا قرر العودة إلى باريس، في الوقت هذه الذي انسحب فيه كوليجني إلى جنوب فرنسا، إذ وجد الأخير أمامه فرصة كبيرة لإعادة تشكيل قواته ودخول العاصمة باريس، تمثلت هذه الفرصة بالخلاف الدائر بين التاج الفرنسي وحاكم مقاطعة اللونغدوغ هنري دي مونتمورينسي وقائد القوات السويسرية الملكية شارل دي دامفيل زعماء حزب السياسيين المعتدل، بسبب عدم امتثال الملك شارل التاسع لآرائهم المطالبة باتباع سياسة معتدلة مع الهيغونوت تنطلق من سماحة الكتاب المقدس لأن البروتستانت يشكلون نسبة كبيرة من رعايا الملك الفرنسيين وبالتالي لم تنعكس قسوة المملكة تجاه الهيغونوت عليهم فقط بل تشمل البلاد جميعا نتيجة قيام الحروب الأهلية، من هذا المنطلق قرر هنري دي مونتمورينسي شارل دي دامفيل مساعدة الهيغونوت سراً ضد قوات الملك، فعرضوا على كوليجني دعمهم العسكري ومساعدته في الحصول على مدن غويانا(Guyana) ولانجدوك وإدارتها، وبفضل تلك المساعدة تمكن الهيغونوت من محاصرة تولوز لمدة شهر استمر خلال الثاني والعشرون من كانون الثاني حتى العشرون من شباط عام١٥٧٠، اسقطوا خلاله سلسلة من الحصون الممتدة على ساحل المحيط الأطلسي مكنتهم من التحكم بنوافذ نهر اللوار، كذلك احكموا قبضتهم على عدد من المدن والمعاقل المحصنة التي تمتد من الشمال من بيرين إلى بيرجيراك (Bergerac) وأنغوليم (Angolim) في الجنوب الغربي الفرنسي[٣٧٤].

---

(374) N.M.Sutherland, Op, Cit, P.316.

ولكن سرعان ما أدرك كوليجني أن الملك لن يعقد أي سلام طالما لم يكن الخناق مضيّقاً عليه في جنوب غرب فرنسا، فقرر أن ينقل الحرب إلى باريس، فتوجهت قواته نحو كاركاسون(Carcassonne)، ومنها اتجه نحو مدينة شالون سور ساون (Chalon-sur-Saone))، فشكل هذا الموقف أزمة كبيرة للتاج الملكي، فطلب الملك شارل التاسع من الحكام مونتمورينسي ودامفيل وفرانسوا دي فييلفيل، التصدي لقوات كولجيني عند المرور عبر اقاليمهم، لكنهم استقبلوا طلب الملك بفتور كبير لا سيما وأنهم المتسببين بتفوق الهيغونوت على الملك، حتى انعكس موقفهم هذا بين النبلاء والمستشارين الملكيين وشكل انقساما عقدّياً سياسياً حول إدارة الحرب مع أم ضد الهيغونوت، وعندما اقترب كوليجني من باريس في السابع والعشرون من حزيران، تعالت الأصوات المعتدلة للضغط على الملك من أجل التفاوض مع كولجيني وانقاذ باريس من نيران الحرب الاهلية المذهبية، أما كوليجني لم يرغب في تكرار سيناريو سلام لونجومو؛ لذا سعى هذه المرة للحصول على ضمانات جادة وقوية، فكانت النتيجة توقيع اتفاق "**سلام القديس جيرمان**" في الثامن من آب عام١٥٧٠، والذي عده الهيغونوت تقدماً كبيراً مقارنةً بالتسويات السابقة، إذ نص على:

١- السماح للهيغونوت العيش بأمان لمدة عامين في أربع مدن آمنة وهي: لا روشيل، مونتوبان(Montoban) ، لاشاريتيه(Lachartier)، وكونياك.

٢- أقرت المملكة حق الهيغونوت بممارسة طقوسهم العبادية علناً في المدن الفرنسية، عدا مدينة باريس والبلاط الملكي.

٣- يمنح الهيغونوت حق التمثيل في المجلس الاستشاري الملكي، فتم تعيين الزعيم كوليجني عضواً في المجلس الاستشاري الفرنسي.

وبذلك يمكننا القول، أنّ سلام سانت جرمان وضع نهاية لثلاث سنوات من الصراع المذهبي بين الكاثوليك والبروتستانت، ولكن بنوده لم ترضي الكاثوليك المتعصبين والبابوية[٣٧٥].

هنا لابدَّ من التساؤل، هل أقرت الملكة هذه المعاهدة رغماً عنها؟ أم إنها كان تسعى فعلاً إلى إحلال السلام الديني المذهبي والتعايش السلمي بين الطوائف الفرنسية؟

وللإجابة على هذا التساؤل لابدَّ من النظر إلى طبيعة الظروف التي أحاطت بالمملكة والبلاط الفرنسي في النصف الثاني من القرن السادس عشر؛ فمن المؤكد أن الحرب المذهبية الأهلية كانت قد أنهكت البلاد وسببت لها العجز الاقتصادي وللخزينة الضيق المالي، فلم تر الملكة كاترين مخرجاً من هذه الظروف، إلا بعقد اتفاق جديد مع المصلحين البروتستانت، والواقع أن إبرام معاهدة السلام، قد ارتبط عند كاترين بسياسة الزواج السياسي المنظم، فهي لم تتوان عن التخطيط لبعض الزيجات التي تقربها إلى المصلحين، فقد استغلت كاترين دي مديتشي الوضع السلمي لترتيب الزواج بين ابنتها مارجريت وزعيم الهيغونوت الشاب هنري دي نافار، بينما كانت خطتها هي صدع التسامح الديني للأمة، فإذا كان الأمر كذلك، فهذا ينم عن إخفاق كارثي؛ لأن الزواج سوف لا يحظى بشعبية كبيرة من الكاثوليك والبروتستانت، فباريس مدينة كاثوليكية متعصبة، إذ كان فيها العنف ضد الهيغونوت حدثاً يومياً، فمن كل ذلك يتبين لنا من سياسة الملكة، اضعف مبدأ التسامح الديني الأهلي الذي أقره البلاط الفرنسي؛ لأنه مبني على مصلحة الملكة ومنفعة حكومتها، فهمها تقوم بمصالحات وتسويات ما هي إلا امور وقتية، وسرعان ما ستعمد إلى اضطهادهم بعد سنتين للأسباب الدينية ذاتها، إذ باتوا يشكلون عقبة أمام مصالحه، وهكذا طبقت في سياستها الخاصة تلك الدروس العملية التي نادي بها مكيافيلي.

---

(375) Lincolin Bruce, Discourse and the Construction of Society,Oxford,1989.P:93.

الفصل الرابع

تفاقم الأزمة الأهلية الفرنسية واستمرار الحروب المذهبية حتى صدور مرسوم نانت(١٥٧٢-١٥٩٨)

المبحث الأول: الممارسات الوحشية للبلاط الفرنسي بحق طائفة الهيغونوت وانعكاسها على استمرار الحروب المذهبية (١٥٧٢-١٥٧٩)

المبحث الثاني: التدخل الخارجي في فرنسا ودوره في المرحلة الأخيرة من الحروب المذهبية(١٥٧٩-١٥٨٨)

المبحث الثالث: تغيّر أيدولوجية الحروب المذهبية وإقرار مرسوم نانت (١٥٨٨-١٥٩٨).

المبحث الأول

الممارسات الوحشية للبلاط الفرنسي بحق طائفة الهيغونوت وانعكاسها على استمرار الحروب المذهبية(١٥٧٢-١٥٧٩)

ساهمت الحكومة الفرنسية بسياستها القمعية في استمرار الحروب المذهبية في فرنسا، نتيجة تعصبها للكاثوليكية، فاسحة المجال بشكل واسع للدول الأوربية المجاورة في التدخل بشؤونها الداخلية من خلال دعم طائفة دون أخرى.

الحرب المذهبية الرابعة: مجزرة سان - بارثولوميو(١٥٧٢-١٥٧٤):

مذبحة تستهدف القضاء على المذهب البروتستانتي بإقصاء طائفة الهيغونوت، إذ أخذت كاترين دي مديتشي بممارسة دورها السياسي الدموي الثاني، وكان سلاحها القتل والزواج السياسي[٣٧٦]، وقد وجهت أنظارها إلى هنري أمير نافار ودعته إلى بلاطها وعرضت عليه الزواج من ابنتها مارغريت، ونجحت في تنفيذ خطتها وأعلنت ان الامير صار ابناً لها، ولم تكن أمه مرتاحة لهذا الزواج ولكن للاعتبارات التي أعلنت عن سبب هذا الارتباط جعلتها توافق عليه، إذ بينت كاترين ان زواجا كهذا سينهي الحروب المذهبية القائمة بين طوائف الديانة الواحدة والاعتداءات المستمرة على البروتستانت لتحفظ فرنسا من سفك الدماء[٣٧٧]، وفي الحقيقة لم يكن هذا الزواج إلا ستاراً لما يدبر وراءه من اهلاك البروتستانت بالرغم من تصريح الملك شارل التاسع: **"أنا أزوج أختي ليس لأمير نافار فقط، ولكن لأي احد من جماعة البروتستانت، وان هذا الزواج سيكون أقوى عامل لحصول الصلح بين رعاياي ودليلا أكيداً على حسن نيتي تجاه البروتستانت"**[٣٧٨].

---

(١) Denis Crouzet, La nuit de la Saint-Barthélemy, Un rêve perdu de la Renaissance,Paris, 1994,P:57.
(٢) Mack Holt, Op,Cit,P:155.
(١) N.M.Sutherland, The Huguenot Struggle for Recognition, New Haven,1980,P:44.

وفي ذات الوقت أخذت كاترين وابنها يدعوان زعماء البروتستانت للقدوم إلى باريس ضيوفا في حفلة الزواج، كما واستقبل شارل ملكة نافار بمظاهر الود والترحاب فكان يناديها خالتي العظيمة والمحبوبة، وقامت بتوزيع العطايا والهدايا بين أشراف البروتستانت وقادتهم، كما دعاهم الملك شارل الى قصر اللوفر قبل وقوع المذبحة بليلة الى حفلة فاخرة، لذا كان هنري يشك في نيات كاترين وولدها شارل، حتى أن أبنتها الصغيرة قالت لأمها انها تخشى أن تتعرض اختها لسوء فيما لو افتضح الأمر، ولكنها كانت تفضل ان تضحي بابنتها ولا تخفق خطتها ويفشل تدبيرها، ولكن من خلال قراءة الحوار الذي دار بينه وبين أمه نستشف مدى الحقد لتدبير مؤامرة إجرامية بحق هؤلاء، فقد تحدث مع والدته[٣٧٩] بـ :

قال شارل مبتسماً: أماه أترينني قد أجدت تمثيل دوري؟

فأجابت: حسنا ولكن ما قيمته إذا لم يستمر؟

فرد قائلاً: اسمحي لي ان استمر وسترينني أتصيدهم[٣٨٠].

وبالفعل تصيدَّهم، اذ لم تكد ملكة نافار تدخل في ضيافة كاترين حتى أصيبت بحمى شديدة استمرت تسعة أيام انتهت بوفاتها، ولم يكن ابنها قد وصل بعد إلى باريس حتى تظاهرت كاترين بالحزن كما ندب شارل وفاة ملكة نافار، وبسبب ذلك تأخر حفل الزفاف قليلا ثم أستمرت الاستعدادات لإنجازه، وجاء كبار البروتستانت والكاثوليك من أنحاء أوروبا لحضوره، وتم الزواج ولكن أصيب[٣٨١] الادميرال كوليجني برصاصة من نافذة القصر، كالعادة أظهرت الملكة مقتها لهذه الاعمال[٣٨٢]، وبينما كانت ابنة كاترين تؤكد للأميرال هنري حزن أمها وأخيها لهذه الاعمال الشيطانية، كان شارل ووالدته يتباحثان في جلسة سرية بشأن هنري، هل يقتلانه أو يبقيان على حياته وفي النهاية قررا

---

(٢) Jean Hippolte Mariejol, Op, Cit, P: 1٧٩.

(٣) Denis Crouzet,Op,Cit,P:69.

(٤) ينظر ملحق رقم (١) صورة توضح مقتل الأدميرال كوليجني.

(١) N.M.Sutherland,Op, Cit, P: 77.

سجنه واجباره على ترك عقيدته البروتستانتية، ولما حان وقت تنفيذ المؤامرة[٣٨٣]، تردد شارل فقالت له أمه: **"أجباناً أنت ؟ فقال حسنا فلنبدأ"**، ولإحكام خطتهما دون اخطاء فادحة، صدرت الأوامر الملكية السرية للكاثوليك في جميع أنحاء فرنسا بأن يلبسوا صليباً أبيض على القبعة الحمراء، وأن يضعوا على أذرعهم رقعة قماش بيضاء لتمييزهم في الليل، وعندما يدق الجرس في الساعة الثانية عشر بعد نصف الليل من برج دار العدالة في باريس فذلك يعني الاشارة المتفق عليها فيباشرون بذبح البروتستانت في جميع أنحاء فرنسا ولا يفرقون بين النساء والأطفال والكبار والصغار[٣٨٤].

وعند حلول يوم عيد القديس بارثولوميو الموافق الرابع والعشرين من آب عام ١٥٧٢ وفي تمام الساعة الثانية عشر ليلاً أعطى ناقوس الخطر الصادر من كنيسة سان جيرمان إشارة الانطلاق لواحدة من أكثر المذابح دموية[٣٨٥] في التاريخ الأوروبي، فقد ملئ الشوارع لعدة أيام صدى كلمة اقتل اقتل، ذُبح فيها الآلاف من الهيغونوت في باريس وبلدات أخرى، بتشجيع من السلطات الملكية، وبالتأكيد إن مثل هذا الحدث يكون له تأثير قوي على مسار الحروب المذهبية الأهلية، فقد أضعفت القضية البروتستانتية بشدة في الشمال الفرنسي حتى أنقذ العديد من الهيغونوت أنفسهم بالتخلي عن عقيدتهم الإنجيلية, إذ تحول في روان وحدها ٣.٠٠٠ بروتستانتي إلى الكاثوليكية, في حين فضل آخرون الهجرة إلى إنجلترا، أما في الغرب والجنوب فقد نجت حركة الهيغونوت وسيطر زعمائها على عدد من المدن المحصنة، كما كان للمجزرة بالغ الأثر في توتر العلاقة بين من الهيغونوت والتاج الملكي، إذ اعترف الملك بمسؤوليته عن قتل قادتهم واقدامه على حبس زعيمهم هنري دي نافار في المحكمة الفرنسية واجباره على ترك عقيدته البروتستانتية.

---

(٢) Philip Conner,Op,Cit, P:٨٧.

(٣) William Monter, Judging the French Reformation ,Heresy Trials by Sixteenth Century Perliament, Cambridge, 1991,P:135

(٤) ينظر ملحق رقم (٢) صورة توضح بعض تفاصيل المذحبة.

أقلقت هذه الاحداث أبنة كاترين التي سمعت صوت عند بابها ينادي (نافار... نافار) فحسبته زوجها هنري، فأمرت الخدم أن يفتحوا له الباب فاذا هو بروتستانتي يلوذ بها وقد خر راكعاً عند قدمها والجند الكاثوليك يلاحقونه, فتوسطت له فتركوه, وقد ألقيت الجثث من النوافذ حتى تكدست بها الطرقات والشوارع وجرت الدماء أنهاراً في اغلب المدن الفرنسية[٣٨٦]، وكان يلعب بالرؤوس الآدمية في الطرقات كـ الكرة, واستمرت هذه المذبحة أسبوعا وقدرت ضحايا البروتستانت بمائة ألف شخص, وقد فزع البروتستانت في عموم أوربا من جراء هذه الاحداث، فلم يكن لمذبحة سانت بارثولوميو[٣٨٧] مثيل على مر التاريخ, وفي صباح[٣٨٨] يوم المذبحة أرسل الملك شارل بعض الجند إلى ملك نافار ليحضروه إليه، فأمره أن يحقن دمه بترك العقيدة البروتستانتية وأعطاه ثلاثة أيام مهلة ليحسم الأمر، وانتهى بتحقيق إرادة الملك[٣٨٩].

وجاء ضمن محاولات الملك شارل التاسع السيطرة على اوضاع البلاد واخماد الفوضى، محاولته السيطرة على لاروشيل بالطرق السلمية، لكنها منيت بالفشل نتيجة مقاومة سكان لاروشيل ورفضهم القبول بالملك كحاكم عليهم، لذا سرعان ما أصبح جليا أن المدينة يجب أن تؤخذ عنوة, فعهد بقيادة العمليات العسكرية إلى الدوق أنجو، لحصار لاروشيل الذي كلّف خزينة الدولة(٥٣٤.٠٠٠) جنيه فرنسي، وفي العاشر من كانون الثاني عام ١٥٧٣ شرع المارشال بيرون (Marshal Byron) في حصار لاروشيل حتى يصل إليه اليكسندر دوق أنجو، لكن جهوده باءت بالفشل بسبب سوء الأحوال الجوية الذي تسبب بتمرد بعض قواته ورغبتهم بالعودة إلى فرنسا، فضلاً عن مقاومة سكان لاروشيل، غير إن وصول دوق أنجو مع (٢٥.٠٠٠) جندي في الحادي عشر من شباط قد أنقذ موقف

---

(١) Jean Hippolte Mariejol, Op, Cit, P: 184.

(٢) ينظر ملحق رقم (٣) صورة توضح الجرائم التي ارتكبت بهذه المذبحة.

(٣) ينظر ملحق رقم(٤) صورة توضح تجوال الملكة الأم صباح اليوم الثاني من المذبحة.

(٤) James.B.Wood, The Kings Army Warfare Soldiers and Society During ther Wars of Religion in France,1562-76,Cambridg University,2002,P:197.

الجيش الملكي وغيّر ميزان القوى لصالهم، إذ تمكن من حصار لاروشيل عن طريق حفر الخنادق حول أسوار المدينة وإغراق سفن المقاومة في الميناء الذي تمكن دوق انجو من اغلاقه والسيطرة عليه بالكامل في العشرون من نيسان عام ١٥٧٣.

وقد عادت العمليات العسكرية التي تطلبها حصار لاروشيل بنتائج سلبية على قوات دوق أنجو، فقد أدى اغلاق الميناء وحصار المدينة مع وجود مناوشات مستمرة بين الجيش واهالي المدينة إلى أن اصبح جنود دوق أنجو غير قادرين على إطعام خيولهم، فلم يصمدوا أمام نقص البارود وقلة سلاح المدفعية، لذا عادت قوات الدرك إلى فرنسا، وعند ابلاغ الملك بذلك، عزز قواتهم في الثالث والعشرون من آيار بـ(٦٠٠٠) من المرتزقة السويسرية، إلا انهم كانوا قليلي الفائدة لانهم غير مجهزين عسكرياً فاضطر دوق انجو بتسليحهم بالرماح فقط، مثل هذا الارباك في الجيش الملكي فرصة كبيرة لسكان لاروشيل، فقاموا في الثلاثون من آيار بتدمير أربعة مدافع من جيش دوق أنجو واستولوا على عدد من الجنود حاملي البيارق وأصبح موقفهم أقوى من السابق، أما انجو فأرجع فشل هذا الهجوم إلى جُبن الجنود الفرنسيون ويحملهم مسؤوليته الكاملة، مخاطباً الملك: "**بعد رؤية الذي رأيته ذلك اليوم، أشعر بالخجل كوني فرنسياً**"، وبعد هذا الفشل اشتكى للملك من عدم كفاية المدافع والعمال والمؤن الغذائية، وفي ذات الوقت علم دوق أنجو أنه انتخب ملكاً لبولندا، مما أعطاه ذريعة مناسبة لإنهاء الحصار والعودة بشرف.

تزامن ذلك مع فشل القوات الملكية بقيادة دامنفيل بالسيطرة على مدينة نيم المعقل الرئيسي للهيغونوت في لانجدوك، مقابل عجز الخزينة عن تلبية احتياجات العمليات الحربية التي بلغت ١٤.٨ مليون جنيه فرنسي ولم يكن متاح سوى (٤.٥) مليون جنيه فقط، يضاف إلى ذلك الخسائر العسكرية للقوات الملكية والتي وصلت(٦.٠٠٠) ضحايا المعارك وربما نفس العدد مما تسبب فيه المرض والهروب من الخدمة، فكان من الصعب على التاج الملكي تعويض هذه الخسائر لضباط مدربين وذوي خبرة، كما إن الحصار أفرغ المملكة من الأسلحة والذخائر، فلم يعد الملك قادراً على تحمل تكاليف

العمليات العسكرية واسعة النطاق، فأصدر في الخامس والعشرون من حزيران عام ١٥٧٣ قرار ملكي يعيد إلى بروتستانت فرنسا حرية الضمير والمعتقد ويسمح لهم بالعبادة الخاصة فقط لمدن لاروشيل ونيم ومونتوبان والحرية في ممارسة الطقوس العبادية فيها، وهذا الحق سيشمل في شهر آب مدينة سان سير (Saint–Cyr).

أما موقف الكرسي الرسولي من مجزرة سان – بارتيليمي، فقد كان البابا غريغوري الثالث عشر Gregory XIII (١٥٧٢–١٥٨٥)، قد حل خلفا للبابا بيوس الخامس Pius V (١٥٦٦–١٥٧٢) وراح يعمل بنشاط يضاهي نشاط سلفه، من أجل إحياء الكاثوليكية والتقدم إلى الأمام في هذا الاتجاه، فهو يمثل العقيدة المسيحية العالمية وكان يرى أن الوضع الديني في الكنيسة الكاثوليكية خطيراً جداً، ففي إنجلترا ملكة بروتستانتية تعمل بجهد كبير مع فريق من المستشارين المتحمسين والمتعصبين إلى مضايقة مجتمع لا يزال كاثوليكي في معتقداته ومؤسساته، أما في الأراضي المنخفضة فيرتبط انتشار البروتستانتية بحركة الثورة الوطنية ضد السيطرة الإسبانية، أما في فرنسا فقد بدأ الهيغونوت يظهرون بمظهر قوة مالية عسكرية قادرة على إسقاط الملك، ليس ذلك فحسب, بل على اقحامه في حرب مفتوحة ضد إسبانيا في الأراضي المنخفضة[٣٩٠].

هكذا كان التسامح الديني يبدو خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر وكأنه مشروع تتشابك فيه الزعامة الروحية بالزمنية بطريقة غامضة، فلم يكن بإمكان البابوية، أن تتفق مع السياسيين الفرنسيين وفق مفاهيمهم في التسامح الأهلي الديني مع المصلحين والهيغونوت، لقد كانت وجهة نظرهم تتناقض كليا مع وجهة نظر الدولة والبلاط الملكي والكرسي الرسولي، لذا لم يكن التسامح مع الهيغونوت ممكنا بالنسبة إلى الكنيسة البابوية[٣٩١]، أما البابا غريغوري الثالث فقد تلقى خبر إبادة الهيغونوت الفرنسيين

---

(١) Robert M.Kindon, Op,Cit,P:163.

(١) إذ كتب البابا بيوس الخامس إلى الملكة – الأم في الثامن والعشرين من آذار عام ١٥٧٢, يطلب منها شن حرب كبيرة عليهم، والتصدي لأعداء الكنيسة الكاثوليكية بشكل علني وشامل

في الثاني من أيلول بفرح وسرور كبيرين، حتى أن الكاردينال فيرال(Verral) سفير فرنسا لدى البابوية، نصحه بانتظار الخبر الرسمي الذي صدر في الخامس من الشهر ذاته عن طريق البلاط الملكي، فلم يكن ذهاب البابا إلى مدينة بازيليك (Basilica) لكنيسة القديس مرقس وتأديته نشيد الشكر، عند اختتام المجمع، إلا فرحاً من شعوره بالخلاص من الهراطقة[٣٩٢]، كما بينت ذلك رسالة معتمد الإمبراطور غالياتزو كوزانو (Galatezo Cuzano)، المرسلة في اليوم التالي إلى الإمبراطور ماكسيميليان الثاني(Macmillan) II (١٥٦٤-١٥٧٦)، إذ ورد ما يلي: "**عند انتهاء مجمع الكرادلة رغب البابا في الانطلاق برفقة الكرادلة في موكب حبري عظيم إلى كنيسة القديس مرقس حيث أصعدوا نشيد شكر لله سيدنا الذي أنقذ دفعة واحدة ليس ملك فرنسا والكاثوليك فحسب، بل أيضا مملكة فرنسا، كما أنقذ الكرسي الرسولي من الخطر العظيم الذي كان يتهدده، فقد كان الأميرال عازم، بمعاونة المتآمرين معه، على توقيف الملك وقتله مع جميع أفراد العائلة المالكة ثم إعلان نفسه ملكاً كي يتمكن من مساعدة الثوار في الفلاندرز بشكل أفضل، ليتحول بعدها إلى إيطاليا فيهدم روما والدولة الحبرية العظيمة**"[٣٩٣].

يتبين لنا أن البابا غريغوري الثالث عشر قد اطلع فيما بعد على حقيقة الأمر ولم يعد يولي أدنى اهتمام لفكرة التآمر الهيغونوتي، فلم يريد أن يتابع إلا النتائج الإيجابية والاحتفال بها من دون معرفة ظروف مأساة الاضطهاد، هذه النتائج تتمثل في هزيمة الثوار السياسيين والانتصار على الهرطقة وعودة مملكة فرنسا إلى الوحدة الدينية الكاثوليكية المنشودة، لذا أمر بإقامة الاحتفالات العامة في روما وصك ميدالية تذكارية لهذا الحدث العظيم[٣٩٤]، وهذا ما أكده الزعيم البروتستانتي المونسينيور مارتان(Martin) بقوله: "**هذا ما كان يحلم به غريغوري الثالث عشر، لقد سالت دماء كثيرة في هذه**

---

(٢) Linda .C.Taber, Royal Policy and Religious Dissent Within the Parlement of Paris(1559-1563),unpublished Phd Thesis, Stanford University,1982,P:265.

(٣) Linda .C.Taber,Op,Cit,P:271.

(١) James Westhall Thompson, The Wars of Religion in France(1559-1576), New York,1909,P:326.

الأيام الأخيرة، مرت عشرون سنة والناس في مملكة فرنسا يتذابحون بلا هوادة، ألم يكن من الأوفر لهم، بل من الأكثر إنسانية، أن يصار إلى التخلص منهم دفعة واحدة؟ خصوصا أن ذلك يكفل إنقاذ حياة الكاثوليك"[٣٩٥].

أما الملكة كاترين فإنها اعتقدت بقضائها الصارم على كوليجني وبعض زعماء البروتستانتية، تخدم مصلحة الدولة وتنقذ مكانتها الشخصية، لكن ما فعلته في الواقع، هو أنها أطاحت دفعة واحدة بإنجاز التسامح المذهبي الذي عملت لأجله طوال اثنتي عشرة سنة، وما مجزرة سان – بارتيليمي إلا انتفاضة مروعة صدرت من حكم ضعيف في مواجهة التهور السياسي الخطير الذي أقدم عليه الحزب الملكي بقيادتها[٣٩٦]، إذ ظلت الدولة والدين مرتبطين في عصر الإصلاح أوثق ارتباط، وأن التعصب كاد أن يكون هو القاعدة العامة في فرنسا الكاثوليكية كما في ألمانيا البروتستانتية في الأوساط الاجتماعية على اختلافها وتنوعها، لا تقبل بسوى ديانة واحدة في الدولة، على أن مملكتي فرنسا وبولندا – وهما بلدان كاثوليكيان– كانتا السباقتين إلى خوض تجربة التسامح المذهبي الديني الرسمي تجاه الطقوس الدينية للمصلحين وجميع الطوائف الاجتماعية المكونة لمجتمع الدولة[٣٩٧]، ولأن هذا القرار يتعارض مع العقيدة السائدة فكان يتطلب الصمود أمام تبعاته والحاجة تدعو إلى التمتع بمقدرة سياسية عالية لاستدراك تفاقم الفشل ومواصلة القيام بمهمة هي عرضة للخطر على كافة المستويات، وهذا ما جاهدت الملكة كاترين لتحقيقه طيلة اثنتي عشرة سنة، رغم ذلك فهي لم تتمكن من أن تمنع وقوع الحروب المذهبية الأهلية بين ابناء المدن الفرنسية، فقد هدمت إنجازها بارتكابها الجريمة السياسية في الرابع والعشرين من آب، وجعلت من محاولات التهدئة المذهبية في المستقبل مهمة شاقة إلى حد كبير[٣٩٨].

---

(٢) Ibid,P:312.
(٣) William Monter,Op,Cit,P:142.
(٤) Robert M.Kindon, Geneva and the Coming of the Wars of Religon in France(1553-1563),Genave,1956,P:59.
(١) James.B.Wood, Op,Cit,P:207.

الحرب المذهبية الخامسة(١٥٧٤-١٥٧٦):

أمام ذلك لم يكن غريباً أن تشكل مجزرة سان – بارتيليمي، تحولاً جذرياً في السياسة الفرنسية على الصعيد الداخلي والخارجي، إذ تجددت الحروب المذهبية مع البروتستانت بحلول عام ١٥٧٤، في الغرب الفرنسي وتحديداً في مدينة لاروشيل والسانتر والسان سير وأخيراً في اللونغدوغ، ففي شباط ١٥٧٤ دبر الهيغونوت مؤامرة لتحرير أمير نافار، تتلخص بقيام الهيغونوت في شمال نورماندي بانتفاضة ضد الملك شارل التاسع تتزامن مع انتفاضة الهيغونوت في بواتو ووادي الرون، لإرباك الوضع العام إلى الحد الذي تفقد فيه الدولة السيطرة على الوضع ويضطر الملك إلى الامتثال لمطالب الهيغونوت بالأفراج عن زعيمهم هنري نافار.

وبالرغم من صعوبة وضع المملكة المالي والعسكري، وجه الملك نداءً إلى المجس الاستشاري ورجال الدين والنبلاء الفرنسيين بضرورة حمل السلاح، وعلى أثر ذلك استطاع تجميع ثلاثة جيوش: جيش في نورماندي بقيادة الجنرال ماتينيون(Matignon) وآخر في بواتو بقيادة الجنرال مونبنسيه(Montparnasse) والثالث في دوفين بقيادة هنري دي بوربون(HenrydeBourbon) حيث استطاعوا استعادة المدن التي سقطت في يد الهيغونوت، بما في ذلك مدن دومفرونت (DomFront) وسانت لو (St. Louis) وكارنتان(Carrentan) في نورماندي ومدن فونتين(Fontaine) وبوسينيان(Bosinian) في بواتو. وبذلك فشلت مخططات الهيغونوت بتهريب هنري نافار.

لم يستسلم الهيغونوت بعد اخفاق محاولتهم الأولى، ففي نيسان ١٥٧٤ كُشف عن مؤامرة أخرى لإخراج هنري نافار من البلاط الملكي، اخفق فيها الهيغونوت مرة أخرى، وفي الثلاثون من آيار توفي الملك شارل التاسع وأعلنت والدته كاترين دي مديشي نفسها وصية على الحكم في انتظار عودة نجلها اليكسندر ادوارد فالويس دوق أنجو من بولندا

والذي قرر العودة إلى فرنسا عن طريق كراكوفيا(Karkovia) في الثامن عشر من حزيران عام ١٥٧٤ ليعتلي عرش فرنسا، ووصل في الخامس من أيلول إلى باريس وتوج ملكا في كاتدرائية ريمس(Cathedral Reims) بأسم الملك هنري الثالثHenry III (١٥٧٤-١٥٨٩)، والذي شكل مجيئه فرصة سانحة لتجديد نشاط السياسيين لتوحيد جهود الهيغونوت والكاثوليك بزعامة الحاكم دامفيل الساخطين على الحكم القائم[٣٩٩].

إلا ان الملك باشر أعماله بمحاولة فصل دامفيل عن حلفائه من الهيغونوت، غير أن موقف الحاكم جاء في بيان رسمي وجه فيه اللوم إلى مستشاري الملك على كل الكوارث التي لحقت بفرنسا، ويعد هذا البيان واحداً من بين عدة بيانات أطلقها النبلاء والتي عرفت باسم "**المذنبون**" الذين شكلوا قوة جديدة سياسية أكثر منها دينية، إذ عقب مذبحة القديس بارثولوميو اعتقد كثير من النبلاء الكاثوليك أن الصراع الديني أصبح في يد قوى شريرة في الحكومة كانت تهدف إلى تدمير الحريات الفرنسية القديمة، وامتعض بعض النبلاء الكاثوليك بسبب المحسوبية الملكية في توزيع الهدايا والأوسمة، لذا تحدث بيان "**مذنبون**" حول سوء التنظيم الشامل للقضايا المالية والإدارية والسياسية، والوضع المتردي لجميع الطبقات في المملكة الفرنسية معترضا على تجاوزات الحكم والحاشية الملكية، كما طلب إلى البروتستانت التضامن مع المواطنين الصالحين والمعتدلين من الكاثوليك لإتمام مشروع الوحدة على أساس المصلحة الوطنية العامة[٤٠٠].

ولإقرار المشروع الآنف الذكر، عقد الهيغونوت جمعية عمومية في مدينة ميو في الثالث عشر من تشرين الأول عام ١٥٧٤، وتم انتخاب المارشال دو كوندا -الذي كان حينها هارباً في الإمبراطورية الرومانية المقدسة-، رئيسا لهذه الجمعية، كما اعترفت بـ مونتمورينسي ودامفيل زعيما للكاثوليك والسياسيين المعتدلين المنتمين إلى الجمعية

---

(١) James.B.Wood, Op,Cit,P:329
(٢) E. Armstrong,Op,Cit,P:72.

للاتحاد مع المصلحين الهيغونوت، فما كان من المارشال إلا أن وافق على هذه القرارات وأخذ يعمل كرئيس للهيغونوت والسياسيين الكاثوليك المنضمين إليهم في الجمعية[٤٠١].

كان لابد أن تنشأ عن هذه المستجدات حرب جديدة، لم تكن دينية فحسب، بل إقطاعية سياسية أيضاً، ضد الحكم الملكي المعروف باستبداده وخضوعه لتأثير كاترين المتعطشة للدماء، ومن الجدير بالذكر، إن تنفيذ فكرة التعاون بين الهيغونوت والكاثوليك من أجل غايات سياسية وإصلاح ديني، لم تعد بعد مضي سنتين على مجزرة سان – بارتيليمي، مجرد إعلان بل أصبحت حقيقة واقعة، إلا أن هذا النوع من الاتفاقيات لم يحصل إلا بعد تنازلات متبادلة على مستوى الحرية الدينية والمصالح السياسية والاقطاعية, لذا وجه دامفيل دعوة إلى مؤيديه[٤٠٢]، من مدينة مونبلييه في الثالث عشر من تشرين الثاني عام ١٥٧٤، يؤكد فيه الولاء المطلق للملك ويدين انقسام المملكة الديني وجميع الحروب الأهلية المذهبية المبنية على أساس الدين واختلافاته، لا سيما مجزرة سان – بارتيليمي، ودعى للعودة إلى وحدة الإيمان بالطرق السلمية بقوله: "**لا يحسم الخلاف الديني القائم في هذه المملكة بقوة السلاح، بل بمجمع مقدس ومفتوح، ولا فرق في أن يكون عاماً أو وطنياً**"[٤٠٣].

لذا طالب الهيئة التمثيلية العليا بالانعقاد من أجل تسوية هذه الأمور وتحقيق السلام الديني المذهبي، وقد تم بالفعل عقد الاجتماع في نهاية كانون الأول عام ١٥٧٤، في مدينة نيم برئاسة المارشال الذي أقسم يمين الوفاء لمضمون دستورهم الصادر في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٥٧٥، والمتضمن لمئة وأربعة وثمانين مادة، وهو دستور ثوري يؤسس لجمهورية مستقلة تستقبل جميع الطوائف الدينية[٤٠٤]، وهذا ما اكده

---

(١) Lurtia, Sacred Boundaries, Religious Coexistence and Conflict in Early Modern France,Washington, 2003,P:189.
(٢) Linda .C.Taber,Op,Cit,P:272.
(٣) James Westfall Xhompson, Op,Cit,P:139.
(١) Natalie Zemon Davis, The Rites of Violence Religious Riot in Sixteenth-Century France, Past & Present, 1973,P:51.

الزعيم البروتستانتي ج. أ. دو تو C. a. Du du "**إن دستور الهيغونوت يؤسس لجمهورية من نوع جديد، تملك جميع مقومات الحكم، منفصلة عن باقي الدولة، جمهورية لها قوانينها الدينية وإدارتها المدنية وسلطتها القضائية ونظامها العسكري وتضمن حرية التجارة وجباية الضرائب وإدارة المالية العامة**"[٤٠٥].

في ذات الوقت، أعلن النواب الكاثوليك والبروتستانت وحدتهم ضمن الدستور على أساس أنهم فرنسيون أصليون للحفاظ على التاج والوطن والدولة كأمة مشتركة، من أجل عودة السلام الديني ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق عقد مجمع وطني، وختموا دستورهم بملحق ضمنوه: "**أما في ما يتعلق بتنوع الديانات، وما دام لم يحن بعد لدى الله أن نجتمع حول العديد من النقاط، فإنا، نحن المشاركين في هذه الجمعية، فردا فردا، نؤكد باحترام متبادل ألا يسيء بعضنا إلى ديانة بعض ولا يعتدي عليها، فيظل كل واحد منا، من هذه الناحية، متمتعا بحرية الضمير والمعتقد ولا يمنع الآخر من ممارسة عبادته المعتادة**"[٤٠٦].

هكذا توحدت الخطابات السياسية والدينية بالأسلوب والأهداف وأخذ السياسيين المتحالفين من البروتستانت والكاثوليك يوحدون جهودهم لمجابهة النظام الملكي المستبد، فلجأ الزعيم كوندا إلى مدينة ستراسبورغ الفرنسية وأخذ يجمع المتطوعين من القوات الأجنبية في معسكره تمهيداً للقيام بعملية اجتياح عسكري لمدينة باريس، كما إن شقيق الملك فرانسوا دي الينكون(François de Alincón) دوق أنجو هرب في الثالث عشر من أيلول عام ١٥٧٥ من البلاط الملكي في باريس إلى درو مدينة (Dreux) في أقصى الشمال الفرنسي، إذ لم يعد يشعر بالأمان بين حاشية الملك، ومن هناك أصدر بياناً رسميا كرر فيه مطالب دامفيل السابقة، وقد أعطى هروبه شرعية للمتذمرون من خلال التحالف مع الأمير (إلينكون) والذي اصبح القائد العام لفريق الثوار ضد المملكة في مدينة

---

(٢) James Westfall Xhompson,Op,Cit,P:89.
(٣) Natalie Zemon Davis, Op,Cit,P:178.

درو، وفشلت مساعي الملكة – الأم في التوفيق بين الملك وأخيه وذهبت جهودها أدراج الرياح لا سيما بعد طلبهم المساعدة من الجيش الألماني[٤٠٧].

وبذلك ازدادت أزمة الملك هنري الثالث سوءً يوماً بعد يوم، إذ اندلعت انتفاضة للهيغونوت ضده في نورماندي، وفي الخامس من شباط عام ١٥٧٦، هرب هنري دي نافار من البلاط الملكي واقام في الجنوب الغربي مملكته الخاصة وبدأت بتجهيز جيشه، أمام هذه الظروف وجد الملك نفسه عاجزاً عن انقاذ عرشه ومملكته ولم يجد بداً من طلب المساعدة من والدته مرة أخرى، حيث التقت بالينكون وغيره من المتذمرون بالقرب من نهر السين، وقد أثمر اللقاء عن توقيع مرسوم بوليو(Boulio decree) في السادس من آيار عام ١٥٧٦، الذي أصبح يعرف باسم "**سلام المونسنيور**" لأن الملك أجبر عليه من قبل ألينكون الذي كان يحمل لقب "**المونسنيور**" أي شقيق الملك، وقد نص المرسوم على:

١- اكتسب الهيغونوت حرية العبادة في جميع ربوع فرنسا باستثناء باريس أو داخل البلاط الملكي.

٢- السماح لهم بالالتحاق بجميع المهن ودخول والمستشفيات والمدارس.

٣- تقرر إقامة محاكم تضم قضاة من كلا المذهبين.

٤- يحق لكلا العقيدتين أن يكون ممثلين في جميع المجالس النيابية.

٥- أدينت مذبحة سانت بارثولوميو كجريمة مفجعة رعايا المسيح، وتم إعادة تأهيل ضحاياها.

٦- مُنح الهيغونوت ثمان مدن فرنسية كمناطق عيش آمنة لهم.

٧- استعاد الينكون لقب دوق أنجو، كما استعاد كلا من كوندا ودامفيل مناصبهم كحكام في بيكاردي ولانجدوك على التوالي.

---

(١) Lurtia, Sacred Boundaries, Op,Cit,P:309.

الحرب المذهبية السادسة(١٥٧٦-١٥٧٩):

اجبر تطور الأحداث الداخلية في الجانب السياسي والديني الملك على عقد سلام المونسنيور، والذي وجد فيه الكاثوليك اجحافاً بحقهم وتجاوزاً على عقيدتهم المسيحية، لذا جاءت ردود الأفعال ازاء هذا المرسوم متباينة في شدة رفضها له، كما اختلفت الوسائل المستخدمة لاستنكاره بين اللافتات واطلاق الشعارات واللجوء إلى تشكيل تكتلات خاصة لمضايقة البروتستانت الهيغونوت وعدم السماح لهم التمتع بمزايا المرسوم، هذا على الصعيد الشعبي، أما على الصعيد الرسمي للبلاط الملكي والكنيسة تراوح بين شدة معارضة المجلس النيابي الفرنسي ومحاولة الملك السيطرة على البلاد وتحقيق الأمن لرعاياه والحد من تدخل الدول الأوربية بذريعة دعم الكاثوليك الفرنسيين في الداخل، كما ستوضح التفاصيل في ثنايا هذا المبحث.

أثار سلام المونسنيور سخط كاثوليكي واسع النطاق على مختلف الأصعدة، فعلى المستوى الشعبي داخل باريس، ظهرت اللافتات التي تشجبه في جميع أنحاء باريس وعادت التحالفات الدفاعية الكاثوليكية المتعصبة إلى الظهور، فكان لزاماً على الملك هنري الثالث أن يطبقه من خلال تسجيله في المجالس النيابية، أما بالنسبة للوضع خارج باريس فقد أخذت مقاطعة بيكاردي زمام المبادرة في معارضة مرسوم السلام وألتمس حاكمها جاك دي هوميريس من الملك عدم تسليم المقاطعة إلى كوندي أو السماح للهيغونوت بدخولها، وسرعان ما أنضم إليه نحو مائة وخمسون من النبلاء لدعمه ومساندته في هذه المعارضة[٤٠٨]، ولذات الغرض أنشئت منظمة تُعرف "**باسم تحالف بيرون**"(Peron Alliance) ، تهدف إلى ضمان حماية المدينة والمحافظة على عقيدتها الكاثوليكية، وتقدم اعضاء المنظمة في بيان رسمي باقتراح يتضمن إنشاء ميليشيا ترابط مع النبلاء ذوي التوجه المماثل في الأقاليم الأخرى، وفي غضون فترة زمنية قصيرة،

---

(١) D .William Hanna, Op,Cit, P:329

أصبح التحالف على مستوى البلاد، إذ قام النبلاء في عدة مقاطعات بجمع الأموال وحشد الجنود للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية[٤٠٩].

أمام تطور الأوضاع الداخلية والحماس العقائدي، وجد الملك هنري نفسه في وضع حرج محفوف بالمخاطر، لا سيما وأنه اعتبر في قرارة نفسه مرسوم السلام بمثابة إذلال لمكانة التاج وهيبة الكنيسة الكاثوليكية، لذا تطلع إلى منظمة بيرون وأصبح عضواً في تحالفها العسكري الديني، لاستغلال نفوذهم في مجلس الولاية الذي اجتمع في مدينة بلوا (Blois) في تشرين الثاني لمساندته عسكرياً ولوجستياً وتزويده بالسبل اللازمة لإعادة تأكيد سلطته في التاج الفرنسي[٤١٠]، إلا أن الملك وجد من الدعم دون مستوى طموحه لأن غالبية النواب عارضوا مرسوم السلام الحالي, وفي ظل هذه الأجواء حاول الملك أن يخرج من تحالف بيرون عن طريق إقامة تحالف خاص به، وتطبيقاً لذلك أرسل في الثاني من كانون الأول عام ١٥٧٦ إلى جميع حكام الأقاليم والمقاطعات وثيقة للتحالف معه وطالبهم بالتوقيع عليها، وفيها قراره بإقامة قوة مسلحة في كل مقاطعة وتم جمع الأموال اللازمة لسد نفقاتها، ونصب نفسه رئيساً للتحالف الكاثوليكي، هادفاً بذلك إلى إعادة تأكيد سلطته الملكية والحد من صلاحيات المتطرفين الكاثوليك ومحاولتهم العمل بشكل مستقل[٤١١].

في غضون ذلك، صوّت أغلبية النواب في الجمعية الوطنية العامة في فرنسا لصالح إعادة الوحدة الدينية في جميع أنحاء المملكة، وفي الحقيقة جاء هذا الأمر مناسباً للملك الذي احتاج إلى ذريعة لخرق اتفاق السلام مع الهيغونوت، لذلك لم يتردد بأن أعلن في الثالث من كانون عام ١٥٧٧ بأنه لم يعد يتقبل عقيدتين في مملكته ويعتزم القضاء على الهرطقة، وبسبب افتقاره إلى المال لخوض حرب جديدة، كان يأمل أن تصوت الجمعية

---

(١) Jean Hippolte Mariejol, Op, Cit, P: 1٧٩.
(٢) James Westfall Xhompson, The Wars of Religion in France(1559-1576),Chicago, London, 1909,P:47
(٣) Denis Crouzet,Op,Cit,P:69.

الوطنية في فرنسا على فرض ضرائب جديدة لكنهم فشلوا في تحقيق ذلك[٤١٢]، إذ ألقت لجنة التحقيق باللوم في الضائقة المالية التي تمر بها المملكة الفرنسية على إسراف الملك الخاص، ولم يقتصر هذا الموقف على اعضاء البرلمان بل شمل رجال الدين الذين منحوه مبلغاً زهيدا ولم يرفدوا الخزينة بما تحتاج لذات السبب، وبناءً على ذلك أبلغ الملك في الأول من آذار عام ١٥٧٧ مجلس الجمعية بأنه غير قادر على استعادة الوحدة الدينية، لكنه تمكن من عزل دامفيل عن الهيغونوت، وقرّب حاكم لانجدوك الذي جدد ولاءه للملك مما أضعف قوة الهيغونوت، لذا بدأوا في إعادة تسليح قواتهم في مدينة بوتو (Bhutto) وجوان ليس بينس (Joan Les Pines)[٤١٣].

وعلى الرغم من موقف الجمعية الوطنية في فرنسا الرافض لمساندة الملك، تمكن الأخير من انشاء جيش جديد تألف من عشرين سرية لقوات الدرك وستون فرقة من قوات المشاة وثمانية عشر مدفعاً وستة مدافع أصغر وكميات كافية من البارود، وعشرة الاف طلقة نارية، وتم تعيين أنجو لقيادة تلك القوات، لكن القائد الحقيقي كان دي ديفرز، علماً أن هذه القوات بإمكان الملك الاحتفاظ بها في الميدان لمدة شهر واحد فقط؛ لأنها من المرتزقة الألمان والسويسريون، وفي الخامس والعشرين من نيسان عام ١٥٧٧ فرض الجيش الملكي حصاراً على مركز تجمع الهيغونوت في مدينة لا شاريت –سور– لوار، واستسلمت المدينة في الثاني من آيار وتم طرد حاكمها[٤١٤].

في حين استُقبل أنجو استقبال الأبطال عندما عاد إلى البلاط الملكي، وفي الثامن والعشرين من آيار انضم إلى الجيش الملكي الذي أصبح قوامه خمسة الاف جندي، وبذلك تمكن من فرض الحصار على مدينة إيسوار(Iswar) وأوفيرني (Overny)، على الرغم من تحذير حاكم المدينة من العواقب الوخيمة للمقاومة، وأمر الملك هنري شقيقه

---

(١) William Monter, Judging the French Reformation ,Heresy Trials by Sixteenth Century Perliament, Cambridge, 1991,P:135

(٢) N.M.Sutherland,Op, Cit, P: 77.

(٣) Jean Hippolte Mariejol, Op, Cit, P: 184.

بمعاقبة إيسوار بسبب عصيانها، امتثل أنجو لتلك الأوامر وباشر بنهب المدينة بلا رحمة بعد استسلامها في الثاني عشر من حزيران وفي هذه الأثناء اشتكى ديفرز يشتكي من انعدام ذخيرته الحربية إلى الملك الذي لم يكن قادر على مساعدته، الأمر دفع جنوده إلى الانسحاب والتراجع إلى ليموزان وتم استدعاءهم إلى العاصمة وبذلك اصبح النصر بعيد المنال على الطرفين[٤١٥].

وعلى الرغم من فقدان لا شاريت وايسوار إلا أن الهيغونوت تمكنوا من الاحتفاظ بعدة معاقل في الجنوب، فضلاً عن نافار وكوندي اللذين بقيتا محتفظتان بمعظم قواتهما، وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة برواج المطلة على ساحل المحيط الأطلسي وبدأوا يتلقون مساعدات من إنجلترا، تزامن ذلك مع أزمة البلاط الفرنسي المالية التي سببتها كثرة الحروب الأهلية المذهبية تجاه الهراطقة الهيغونوت، أمام ذلك اضطر الملك هنري الثالث إلى التخلي عن خطته الحربية تجاههم، الأمر الذي ساهم في عودة البروتستانت إلى حمل السلاح مجدداً مهددين البلاط الملكي بالحرب، أمام هذه التطورات اصبح الملك ووالدته مضطرا إلى التفاوض مع زعماء البروتستانت للتوصل إلى اتفاقية سلام معهم[٤١٦].

نتج عن تلك المفاوضات التوقيع على اتفاقية بيرجيراك (Bergerac) في الرابع عشر من أيلول عام ١٥٧٧ والتي تمخض عنها صدور قرار بواتييه (Poitiers) الجديد للمصالحة مع البروتستانت في الثامن من تشرين الأول نفس العام، ولم يكن هذا القرار ملبياً لجميع مطالب المصلحين، ذلك لأنه لم يسمح للبروتستانت بالعبادة في جميع أنحاء المملكة، بل في ضواحي مدينة واحدة من كل مقاطعة، إضافة إلى المقاطعات الكبرى التي كانت تتمتع فعلياً بهذا الحق قبل آخر ثورة مذهبية مسلحة، أما باريس فقد بقيَّ محرم على البروتستانت ممارسة طقوسهم العبادية في كنائسها، ما عدا الطقوس والعبادة

---

(١) James.B.Wood, The Kings Army Warfare Soldiers and Society During ther Wars of Religion in France,1562-76,Cambridg University,2002,P:197.

(٢) William Monter,Op,Cit,P:142.

الكاثوليكية، كما تضمن بواتييه الإعلان عن حل جميع التحالفات، كاثوليكية كانت أم بروتستانتية[٤١٧].

وعلى الرغم من أن تلك التسوية قلّصت بشكل كبير حرية العبادة البروتستانتية، إلا أنها منحت المملكة ثماني سنوات تنعم فيها بالراحة والاستقرار، باستثناء مدة قصيرة خلال(١٥٧٩ – ١٥٨٠)، فاستغل الملك هنري الثالث مرسوم السلام لدعم سلطته في التاج الفرنسي، وكانت الضرورة تستوجب قيام حكم قوي يعمل على إحلال السلام الداخلي وفرض تطبيق قرارات البلاط الملكي على الرأي العام الذي كان رافضاً لفكرة التسامح مع الهراطقة، لكن الملك هنري الثالث كان يفتقر إلى الحزم الذي يخوله فرض نفسه بقوة على الأحزاب والطوائف في المجتمع الفرنسي، ومن الجدير بذكر هنا، أن قرار بواتييه كان محكوماً عليه بالفشل في ظل حكمه الضعيف وسيطرة البلاط على إرادته.

---

(١) John Bossy, "The CounterReformation and the People of Catholic Europe," Past & Present,1970, P:62.

المبحث الثاني

التدخل الخارجي في فرنسا ودوره في المرحلة الأخيرة من الحروب المذهبية(١٥٧٩-١٥٨٨)

وجدت الدول الأوربية المجاورة فرصة سانحة للتدخل في شؤون فرنسا، لإبعاد شرارة الحروب المذهبية عن بلادها من جهة، وللتوسع على حساب المملكة الفرنسية من جهة أخرى وهذا ما تحقق لها في المرحلة الأخيرة من الحروب المذهبية التي شهدتها فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر.

الحرب المذهبية السابعة(تشرين الثاني ١٥٧٩ ـ تشرين الثاني ١٥٨٠):

شهدت باريس حالة من السلام السياسي والديني منذ السابع عشر من أيلول عام ١٥٧٧، إلا أن الواقع ولا سيما في الجنوب كان مشتتاً أقرب إلى الفوضى، وبات أمرا طبيعيا لأي من النبلاء المستقلين أن يشن حربا بقواته الخاصة لمصلحته الشخصية، من ذلك ثورات الفلاحين التي اندلعت على نطاق واسع في فيفارايس (Vavares) وداوفين، وغالباً ما يفترض أن الاضطرابات التي يثيرها الفلاحين هي انعكاس لطبيعة الصراع الديني أكثر من كونها حربا اقتصادية، ومن الطبيعي ان تكون لها تداعيات خارجية، ففي بداية عام ١٥٧٩، اندلعت انتفاضة شعبية في رومان والتي كان سببها في المقام الأول الاحتجاج على الامتياز الأرستقراطي الخاص بالإعفاء الضريبي لرجال الدين الإكليروس وفي نفس الوقت، قاتل النبلاء بعضهم البعض في أجزاء مختلفة من فرنسا[٤١٨].

وفق ما تقدم أصبحت فرنسا على اعتاب حرب أهلية جديدة سيما وأن الوضع في الجنوب لا زال محفوفا بالمخاطر، فأخذت الملكة كاترين تسعى إلى تهدأت الأوضاع في الجنوب خشية تطورها، ففي الثامن والعشرين من شباط عام ١٥٧٩، وقّعت كاثرين دي

---

(١) Robert M.Kindon, Geneva and the Coming of the Wars of Religon in France(1553-1563),Genave,1956,P:59.

ميديشي معاهدة في نيراك (Nirak) مع الهيغونوت، في الوقت الذي شهد الشمال الفرنسي بوادر الحرب الدينية السابعة والتي ألقي باللوم فيها على مارغريت دي فالوا بسبب مؤامراتها الغرامية مع هنري دي نافار، ومن هنا سميت بـ "**حرب العشاق**"، التي أبدى فيها الكاثوليك مقاومة كبيرة[٤١٩].

وعلى الرغم من ذلك تمكّن كوندا من طرد حاكم بيكاردي وأصبح حاكماً عليها، واستمر في مواصلة حروبه التوسعية حتى دخل مدينة لافيير (Lavir) في تشرين الثاني عام ١٥٧٩ واستولى عليها، حتى وصل إلى أراضي الجنوب وتصادم مع هنري دي نافار الذي اقتحم مدينة كاهور (Cahors) التابعة للهيغونوت، إلا أنّ الحرب لم تتحول إلى صراع كبير؛ لأنّ العديد من الهيغونوت تواروا بعيدا عن الأنظار باستثناء عدد قليل من الريف الفرنسي، كما بقيت لانجدوك هادئة بالكامل، لكن المناوشات بين الهيغونوت والكاثوليك لم تتوقف بشكل نهائي حتى تشرين الثاني عام ١٥٨٠، عندما بادر الملك هنري الثالث إلى التفاوض مع فرانسوا دوق أنجو وكوندا، والانتهاء بعقد اتفاق سلام فليكس(Flex)، الذي سمح للهيغونوت بالاحتفاظ بمدنهم الآمنة لمدة ست سنوات أخرى[٤٢٠].

وهكذا استمر الوفاق الودي على الصعيد الديني والسياسي بين الكنيسة والملك هنري الثالث ودعاة الإصلاح من بروتستانت وكاثوليك، ولكن بحلول عام ١٥٨٤ شهدت فرنسا سلسلة أزمات زاد في اضطراب الوضع السياسي في باريس وشكلت الدوافع الرئيسية لآخر الحروب المذهبية في فرنسا، إذ لم يكن للملك هنري الثالث ابناً يرث عرشه وتوفي شقيقه الأصغر ووريثه الوحيد فرانسوا دي أنجو في العاشر من حزيران عام ١٥٨٤ تاركاً الطريق صوب العرش خاليا للمرشح في قائمة الترتيب الأسري[٤٢١]، والذي

---

(١) James.B.Wood, Op,Cit,P:207.

(٢) Robert M.Kindon, Op,Cit,P:163.

(١) إذ كتب البابا بيوس الخامس إلى الملكة – الأم في الثامن والعشرين من آذار عام ١٥٧٢, يطلب منها شن حرب كبيرة عليهم، والتصدي لأعداء الكنيسة الكاثوليكية بشكل علني وشامل

كان هنري دي نافار الابن السادس للقديس لويس التاسع وأكبر زعماء الهيكونوت باعتباره اقرب الفرنسيين إلى الملك، مما يعني أن التاج الفرنسي سيؤول إلى عائلة بوربون، إلا أنّ امكانية جلوس ملك بروتستانتي على عرش فرنسا العريقة في كاثوليكيتها، لم يلق قبولا لدى غالبية الكاثوليك، فكان ابعد مما يمكن لعامة الفرنسيين وحتى للمعتدلين منهم ان يتصوره او يقبلوا به، إذ كانوا يقولون: "**إنه لأسهل علينا أن نموت ألف مرة من أن نتقبل ملكاً من الهيغونوت**"(٤٢٢).

بيدَّ أن هذا الأمر كان بمثابة مأساة هزت الضمائر المسيحية، حتى السياسيين لم يكونوا قد واجهوا فرضية الملك البروتستانتي هذه في معالجتهم مسألة التسامح المذهبي مع المصلحين، فقط الكاتب بودان من أعلن عن ذلك، بقوله: "**أن تبدل ديانة الأمير لا يؤدي إلى تغير الدولة**"، التوجه الذي عارضه الرأي العام الفرنسي الكاثوليكي، فقد أصدر مجلس الاكليروس الفرنسي في الرابع من أيلول عام ١٥٨٤ قراره والذي عُمم في مجلس الهيئة التمثيلية المجتمعة في مدينة بلوا (Blois)، والمؤكد على ضرورة قيام ملك كاثوليكي هي شريعة أساسية للمملكة يفوق الشرائع السلالية القديمة أهمية، كما إن قسم التتويج الذي يتعهد فيه الملك محاربة الهراطقة كان يفترض تعلق الأمير التام بإيمان الكنيسة الرومانية وعقيدتها(٤٢٣).

وعلى أساس ما تقدم سعى الكاثوليك وبكل قوة إلى منع وصول بروتستانتي إلى العرش الفرنسي، ففي تشرين الثاني عام ١٥٨٤، شكّل هنري دي غيز وإخوته شارل دي ماين والكاردينال فرانسوا دي غيز، تحالفاً كاثوليكياً في مدينة نانسي (Nancy)وهي هيئة دينية سياسية عُرفت بأسم العصبة الكاثوليكية(٤٢٤)(Catholic League)، تحت رعاية البابا غريغوري الثالث عشر Gregory XIII(١٥٧٢-١٥٨٥) وملك اسبانيا فيليب الثاني،

---

(٢) Judith Pollmann, "Countering the Reformation in France and the Netherlands,Clerical Leadership and Catholic Violence, 1560-1585, Pares,February ,2006,P:83.

(٣) Philip Benedict, Rouen during the Wars of Religion Cambridge, 1981,P:137.

(١) William Monter,Op,Cit,P:241.

لتثبيت ركائز العقيدة الكاثوليكية في فرنسا وبزعامة هنري دي غيز الذي أخذ على عاتقه مهمة النضال الفكري والديني بالقوة العسكرية لإعادة كل الفرنسيين دون استثناء إلى العقيدة الكاثوليكية والولاء التام لكنيسة روما وإلغاء الكنائس الفرنسية المخالفة للكاثوليكية، وكذلك مجابهة الملك والبلاط الفرنسي لسياستهما المتهاونة مع الهيغونوت خاصة وان هؤلاء فقدوا بعض تأييد المحايدين من الكاثوليك لتعاونهم المستمر مع الانكليز والالمان[٤٢٥]، كما تهدف إلى إبقاء هنري دي نافار خارج مظلة العرش الفرنسي.

ومن ذلك الحين اخذت الحروب الدينية في فرنسا ابعاداً جديدة شديدة الخطورة، وباتوا الفرنسيون في متاهات مظلمة بسبب تداخل هذه الأحداث المتشابكة وتواليها حتى بات لا يُعرف لها قرار، فالملك هنري الثالث اظهر خلال سنوات حكمه المنصرمة، الكثير من الضعف والتردد وعدم المعرفة في معالجة قضايا السياسة الخارجية والداخلية كما أنه تطرف في مجابهة رعاياه المصلحين من البروتستانت والكاثوليك، مما افقده كل محبة واحترام في قلوبهم وجعلهم يفقدون كل أمل في الخلاص على يديه، ومما زاد الأمور سوء، أنه في الوقت الذي بات فيه أشد الحاجة لنصائح امه وخبرتها في شؤون فرنسا الدينية والسياسية، اقعدها المرض وافقدتها الشيخوخة عن ممارسة دورها المنشود[٤٢٦].

أمام الضعف الكبير الذي اصاب بلاط الحكومة الفرنسية، اتجهت انظار معظم الفرنسيين الكاثوليك نحو زعيم العصبة الكاثوليكية هنري دي غيز المصمم على اقصاء البروتستانتية من فرنسا باعتبارهم سبب كل ما حل بها من مشاكل لعدة سنين، وكان الأخير قد اشتد مركزه بمساندة إسبانيا عندما طلب مساعدة الملك فيليب الثاني الذي يشترك معه في عداءه للبروتستانتية، في الحصول على التاج الفرنسي، وفي الحادي والثلاثين من كانون الأول عام ١٥٨٤، عقد معه معاهدة جوينفيل (Gwynville) والتي

---

(٢)Wilfred Cantwell Smith, The Meaning and End of Religion,A New Approach to the Religious Traditions of Mankind, New York, 1963,P:49.
(٣)John Bossy,Op,Cit,p:117.

بموجب شروطها وافق الملك على دعم الكاثوليك وقرارهم بإقصاء البروتستانت من فرنسا[٤٢٧].

كما انضم الكثير من النبلاء لهذه الانتفاضة بما في ذلك نيفيرز وبريساك ومعظم أتباع الراحل دي أنجو، كما أخذ يفكر بارتقاء عرش فرنسا إذا ما تمكن من إبعاد هنري دي نافار عنه، وبدأت العمليات العسكرية دفعة واحدة، وبعد حشد القوات في شمبانيا (Champagne) في التاسع من آذار عام ١٥٨٥، استولى غيز على شالون (Chalon) بينما استولى شارل دي ماين على ديجون (Dijon) وماكون (Macon) وأوكسير (Auxerre)، وبوصفهم حاكمي شامبانيا وبورغوندي، ساندوا اتباعهم وشرعوا في تجنيد المزيد من الجنود، في ذات الوقت سيطر أفراد آخرون من آل غيز وهم: ميركوير (Mercuer) وإلبوف (Elbow) وأوميال (Omyal) على بريتاني، ونورماندي وبيكاردي، وسرعان ما أصبح جزء كبير من شمال فرنسا في قبضة آل غيز[٤٢٨].

وفي الثلاثين من آذار أصدر آل غيز بياناً رسميا في بيرون إلى الملك انذاراً أخيراً يبررون فيه قيامهم بهذا التمرد، مطالبين بإقصاء الديانة البروتستانتية من فرنسا، وقد جاء فيه "**إن الهراطقة، ولاسيما رعاع كالفن، لا يطيقون التساوي بالكاثوليك الحقيقيين ولا حتى التعايش معهم...إذ لا سبيل إلى الراحة ولا إلى التحالف ولا إلى الصداقة مع الهيغونوت ما لم نحاربهم في كفرهم، فإما أن تهجروا فرنسا وإما أن تعتنقوا مذهبهم الجائر**"[٤٢٩].

وفيما كانوا يناضلون من أجل العقيدة الكاثوليكية، أعربوا عن خشيتهم من أن يُستبعدوا من الحصول على عطايا ملكية في حال استعاد البروتستانت العرش الفرنسي،

---

(١)Linda .C.Taber, Royal Policy and Religious Dissent Within the Parlement of Paris(1559-1563),unpublished Phd Thesis, Stanford University,1982,P:265.

(٢) Denis Crouzet, Les guerriers de Dieu,La violence au temps des troubles de religion, (1525- 1610), 2 vol,2,Seyssel, 1990, P:87

(١) Denis Crouzet,Op,Cit,P:194.

ونظراً لافتقار الملك لوسائل معارضة التحالف، لجأ مرة أخرى إلى والدته كي تسانده في محنته، فدخلت في مفوضات مع آل غيز، إلا أنه كان غير صادق معها حتى ينتهي من تجهيز قواته، وفي أوائل شهر آيار بلغ كاترين أن قوات أومال احتلت القرى حول ريمس (Reims) وبلغت قوات غيز خمسة وعشرون الف(٢٥.٠٠٠) بين جندي وفارس باستثناء قوات إلبوف وبريساك التابعة له أيضاً، أمام المرحلة الحرجة التي وصل إليها التاج الفرنسي اذعن الملك هنري الثالث فعلياً للتحالف وعقد معهم معاهدة نيمور (Nemore) في السابع من حزيران عام ١٥٨٥[٤٣٠].

تعهد الملك هنري الثالث في تلك المعاهدة بدفع أجور القوات التي انتفضت ضده وتنازل عن عدداً من البلدات الآمنة إلى قوات التحالف وكان لآل غيز نصيب الأسد فيها، كما تضمنت بنوداً تتعلق بطقوس البروتستانت الدينية، إذ أن الملك لم يستطع تجاهل بيان آل غيز، لما أصبحوا عليه من قوة وسيطرة على مراكز مهمة من فرنسا، وخشية من تفاقم الأوضاع الداخلية أصدر الملك في الحادي عشر من حزيران عام ١٥٨٥ مرسوماً ملكياً جاء متوافقاً مع تطلعات آل غيز وحلفاءه، جاء فيه: " ... **أمرنا أن يلتزم رعايانا العيش، من الآن فصاعدا، بحسب الديانة الكاثوليكية الرسولية الرومانية، أما الذين ينتمون إلى الديانة الجديدة فإما أن يرحلوا وإما أن يرتدوا إلى الديانة الكاثوليكية الرسولية الرومانية، على أن يكون اعترافهم بها خلال ستة أشهر من تاريخ صدور هذا المرسوم، وفي حال رفضهم مثل هذا الاعتراف نريدهم أن يخلوا المكان ويذهبوا خارج مملكتنا والبلاد التابعة لولايتنا**"[٤٣١].

فقد أقر الملك وفق هذا المرسوم حظر ممارسة العبادة البروتستانتية وبذلك عادت الديانة الكاثوليكية هي الديانة الوحيدة في المملكة من جديد، كما أمر جميع القساوسة الهيغونوت بمغادرة المملكة وخيّرت أتباعهم إما أن يتخلوا في غضون ستة أشهر عن

---

(٢) Linda .C.Taber,Op,Cit,P:271.
(١) E. Armstrong, The French Wars Of Religion, London, 1904, P:59.

المذهب البروتستانتي أو الهجرة من فرنسا، كما منعهم من تولى المناصب وتم تجريدهم من جميع وظائفهم العامة وإلغاء المجالس المشتركة في البرلمان[٤٣٢] وفرض عليهم تسليم المدن الآمنة التي في حوزتهم وتم استبعاد هنري دي نافار من العرش الفرنسي، نلاحظ من هذه البنود أنها تطبيق لمطالب العصبة الكاثوليكية في إنذارها الأخير للملك[٤٣٣].

فكانت هذه التطورات مدعاة لانطلاق الحرب المذهبية الثامنة والأخيرة والتي دامت ثماني سنوات، إذ تميزت بالتدخل الاجنبي المتمثل بإسبانيا وإنكلترا فيها بشكل كبير، والملاحظ على مجرياتها، إن فرنسا لم تمر منذ حرب المائة عام بأزمة كهذه والتي اجتازتها بصعوبة بالغة لأن وحدتها واستقلالها السياسي وسلامتها القومية والدينية كانت عرضة للخطر.

من اكثر الأمور التي يتمسك بها الإنسان هو المعتقد الديني، وعندما يجد من يهدد هذه العقيدة ويطلب منه تركها، حينها يكون مستعد للجود بنفسه لأنه يعد تلك المبادئ رمزاً لكرامته وعنوانا لوجوده، ويكون الأمر أكثر تعقيداً عندما يتنوع التكوين الاثيني لأبناء البلد الواحد، وهذا ما شهدته فرنسا طيلة النصف الثاني من القرن السادس عشر رغم تعدد المحاولات التي بذلتها الحكومة الفرنسية بين الترغيب والترهيب لكنها لم تتمكن من الوصول إلى حل حقيقي يقضي على النعرات المذهبية بين أبناء الطائفة الواحدة، وهنا سنتطرق إلى المرحلة الأخيرة من سلسلة الحروب التي درات في مقاطعات فرنسا والتي تميزت بتدخل دول الجوار فيها بمساندة الأطراف المتحاربة ضد بعضها البعض، والدليل على ذلك وأحد الأسباب المهمة لقيام هذه الحرب، هي محاولات الكاثوليك بقيادة آل غيز وسعيه للتحالف مع إسبانيا لإقصاء البروتستانت ووصوله للعرش الفرنسي، رافقها اجراءات ملك فرنسا المتوافقة مع الرؤيا المطروحة وهذا ما أدى إلى خلق حالة العداء.

---

(٢) Gregory Hanlon, Op,Cit,P:242.

(٣) James Westhall Thompson, The Wars of Religion in France(1559-1576), New York,1909,P:326.

الحرب المذهبية الثامنة(١٥٨٦ – ١٥٨٨):

تكلمنا في المبحث الثاني عن إجراءات الملك التعسفية التي أرضى فيها آل غيز وكسب تأييدهم، والتي نتج عنها ردة فعل مغايرة لمواقف البروتستانت السابقة، ففي العاشر من آب التقى هنري دي نافار وكوندا مع دامفيل وجددوا ولائهم له، وأصدروا بيان رسمي مشترك في السابع من تشرين الأول عام ١٥٨٥، اتهموا فيه آل غيز بمحاولة الاستيلاء على العرش وفي ذات الوقت أكدوا فيه على ولائهم للتاج الملكي وأوضحوا أنه لم يكن لديهم خيار آخر سوى خوض القتال إذ ما تفاوض معهم الملك وقبل ولائهم وتراجع عن تنفيذ قراراته الأنفة بحق الهيغونوت[٤٣٤]، ألا أن الملك لم يقبل رجعتهم بل وصفهم بأنهم خونة، وطلب من رجال الدين أن يجهزوا له جيشاً يتألف من أربع فرق لمحاربة الهيغونوت، كما بينَّ لهم بأن هذه القوات ستكلف الخزينة مليوني فرنك فرنسي شهريا، لذا يتوجب عليهم مساعدته من خزينة الكنيسة، فوافق رجال الدين مضطرين على بيع أراضي الكنائس التي تبلغ قيمتها خمسون ألف(٥٠.٠٠٠) كرونة سنوياً، كما وافق البابا سيكتوس الخامسCactus V (١٥٨٥–١٥٩٠) على نقل أراضي من أملاك الكنيسة إلى التاج الفرنسي بقيمة مئة ألف(١٠٠.٠٠٠) كرونة إلا أن الحرب نشبت قبل أن تصل أي من هذه الأموال إلى خزينة الملك [٤٣٥].

وبهذا يكون الملك قد استعد لإعلان الرحب، إذ كلف في الأول من آذار عام ١٥٨٦، زعيم العصبة الكاثوليكية هنري دي غيز بقيادة خمسين سرية مشاة وخمسة الاف(٥.٠٠٠) فارس، وأرسل جيش ملكي آخر بقيادة المارشال دومون Dumont إلى أوفيرني ولانجدوك[٤٣٦]، في غضون ذلك حصل البروتستانت على مساعدة ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى التي دفعت لهنري لزعيم الهيغونوت دي نافار كل ما يحتاجه من

---

(١) James Westhall Thompson,Op,Cit,P:312.
(١) Henry.M.Baird, The Huguenots and Henry of Navarre, Vol.I, New York,1903,P:159.
(٢) William Monter,Judging the French Reformation ,Heresy Trials by Sixteenth Century Perliament, Cambridge, 1991, P135.

الأموال، الفرصة التي استغلها جون كازيمير الوصي على حكم ولاية راينلند بالاتينات (Rhineland Palatinate) الألمانية في حشد جيش قوامه ثمانية الاف(٨,٠٠٠) فارس لمساعدة الهيغونوت تحت غطاء الجيش الإنجليزي، في حين حاصر هنري غيز بنفسه بلدات سيدان وجاميتز (Jammets)، كما غيز القائد أوما(Omali) للاستيلاء على بلدات الهيغونوت في بيكاردي، جاءت ردة فعل الهيغونوت بأرسال جون كازيمير في آب عام١٥٨٦ القائد بويلون(Bouillon) للسيطرة على مقاطعة لورين، كما جاءه أسناد من بلدة دوهنا (Dohena) الحدودية بقيادة البارون فابيان فون (Fabian von)، ودخل الجيش شمبانيا من خلال لورين وانضم إليهم جنود بروتستانت من لانجدوك[٤٣٧].

ومن الطبيعي أمام هذه الاضطرابات أن يجد الملك هنري الثالث نفسه فاقد السيطرة على مملكته ومن والواجب أن يحاول المحافظة على التاج الفرنسي قبل كل شيء، ففي غضون ذلك أرسل الكاردينال جويز (Joyce) لمحاربة زعيم الهيغونوت هنري نافار في الغرب الفرنسي بجيش قوامه ستة الاف(٦.٠٠٠) من الجنود المشاة وألفي(٢.٠٠٠) فارس، وبعد جمع المزيد من القوات في بلدة سوميور، ثم انتقل إلى بواتو شارنت Poitou–Charentes في نهاية شهر تموز عام ١٥٨٧، بالمقابل كان جيش نافار أقل من أن يخاطر بالمواجهة ويخوض معركة لذلك تراجع إلى صمام أمانه بلدة لاروشيل، واجتاح جويز بوتو حاصدا بالسيف كل حامية تابعة للهيغونوت[٤٣٨].

إلا أنه سرعان ما تسبب انتشار الأمراض بهروب الجنود في تفكك جيش جويز، وفي الخامس عسر من آب عام ١٥٨٧عاد إلى باريس مخلفا وراءه بقايا جيشه في تورين بقيادة قائد معسكره لافاردين (Lavardine) ، أما جيش هنري نافار فعقب ظهوره من لا روشيل بقوة مئتان (٢٠٠) فارس وثلاثمائة(٣٠٠) جندي من حاملي القربينة، لاحق قوات

---

(٣)Linda .C.Taber, Royal Policy and Religious Dissent Within the Parlement of Paris(1559-1563),unpublished Phd Thesis, Stanford University,1982,P:265.

(١) Sutherland, The Huguenot Struggle for Recognition, New Haven,1980,P.44.

القائد لافاردين إلى بلدة شينون، إلا أنه افتقر إلى المدفعية اللازمة لإقصائه ومع ذلك فقد تمكن من استعادة بوتو في أقل من أسبوعين[٤٣٩].

أخذت الأحداث تتطور بشكل سريع وعلى الصعيدين الداخلي والخارجي, لذا لم يرى الملك بدا من ضرورة تدارك الأمور وانقاذ المملكة، فقرر النزول بنفسه إلى الميدان الحربي, فغادر في الثاني عشر من أيول عام ١٥٨٧ العاصمة باريس للانضمام إلى جيش الكاردينال إبيرنون (Iberonne) واتخذ موقعاً في بلدة جين(Gene) المطلة على مشارف نهر لوار لمنع الألمان من بلدة دوهنا من التحالف مع هنري نافار، وفي هذه الأثناء جمع القائد جوييز جيشاً جديداً في بلدة تور قبل استئناف العمليات العسكرية في بوتو، ويبدو أن الهجوم الملكي أخذ قوات هنري نافار على حين غرة ولم يكن كل ما خطط له في هذه المرحلة قد حصل، ولذا طلب من جيش دوهنا أسناده ليخف ضغط قوات الملك عن كاهل جيشه، لكن سرعان ما سئم الألمان من الزحف العسكري الطويل كما نفذت منهم الإمدادات والمؤن[٤٤٠].

ومع قدوم فصل الشتاء، تراجع نافار إلى ميناء جويين (Joeyen) وخطط لحشد المزيد من الجنود وتوحيد صفوفه مع دامفيل، وحاول جوييز اعتراضه إلّا أنّ نافار تمكن من الهروب، واستمر في ملاحقته حتى هاجمه في العشرين من تشرين الأول عام ١٥٨٧ وبالرغم من أنه لم يكن في وضع عسكري جيد، إلا أنه قبل التحدي وواجهت الجيوش المتخاصمة بعضها البعض عند بلدة كوتراس (Coutras)، وكان الجيشان متساويان تقريباً من حيث العدد ولكل منهما قوات قوامها أربعة الاف(٤,٠٠٠) جندي من المشاة، ويمتلك الهيغونوت ألف ومئتان(١,٢٠٠) من الفرسان فيما يملك جوييز ألف وخمسمائة(١,٥٠٠)، فقد تميز محاربوا الهيغونوت بأنهم مخضرمين[٤٤١].

---

(٢) James Westhall Thompson,Op,Cit,P:326.
(٣)Ibid,P:312.
(١) E. Armstrong, The French Wars Of Religion, London, 1904, P.59.

فيما يتألف جيش جوييز من نبلاء شباب قليلي الخبرة متلهفون لإظهار شجاعتهم وبسالتهم، وقبل بدء المعركة أدى الهيغونوت صلواتهم وأنشدوا المزمور[٤٤٢] رقم ١١٨، ثم أطلقت مدافعهم النيران التي أحرقت صفوف مشاة جوييز فيما هاجم سلاح الفرسان الملكي قوات نافار لكي يفسح المجال عبر عدة نقاط لمواجهة الهجوم المضاد من فرسان نافار، واثناء هذه المواجهات لقي جوييز وشقيقه كلود(Claude) مصرعهما في الهجوم فيما فر بعض رفاقهم، وحسبما ذكر مورناي (Mornay) قائد فرقة المشاة في الجيش الملكي، قُتل في المعركة التي استغرقت ساعتين، ألفان من الجيش الملكي في الميدان من بينهم ٣٠٠ من النبلاء، وفقد الهيغونوت مائتين من النبلاء وحوالي ٣٠ فارس، وفي هذه الأثناء أخذ جيش دوهنا الذي تقدم نحو بوس(Boss) بالانهيار[٤٤٣].

أما المرتزقة السويسريون عادوا باتجاه المدينة ليهزموا مرتين على يد هنري غيز، كانت الهزيمة الأولى في السادس والعشرين من تشرين الأول، والهزيمة الثانية في الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٥٨٧، ولكن الملك من جانبه سعى إلى انهاء المعارك وحقن الدماء؛ لأنه أيقن النصر سيبقى متأرجحاً ولم يحسم بين الطرفين، فطلب من المرتزقة السويسريون العودة إلى ديارهم، لكنهم لم يوافقوا على ذلك إلّا مقابل الحصول على أجرهم لأربعة أشهر، فوافق الملك على منحهم مرتباتهم، وفي الثامن من كانون الأول عام ١٥٨٧ وافق الألمان المحاربين إلى جانب البروتستانت، أيضاً على المغادرة مقابل مبالغ نقدية وتحت فرق حراسة مشددة، وفي الثالث والعشرين من كانون الأول عاد الملك إلى باريس منتصراً[٤٤٤].

ولكن لا شيء بإمكانه إخفاء حقيقة أن الملك لم يكن راغب بعودة آل غيز إلى البلاط، فحاول ابعاد هنري غيز سيما بعد أن انتهت المصلحة ومعه وتمكن الملك من استعادة

---

[٢] عبد العزيز الشناوي, المصدر السابق, ص٣١٨.

[٣] James Westfall Xhompson,Op,Cit,P:47

[١]Robert Jean Knecht,The Rise and Fall of Reformation France 1483-1610,Black well, 2001,P.239.

عرشه، فأقدم الأخير على منح الكولونيل إبيرنون منصب حاكم لمقاطعة نورماندي، بينما كان غيز يطمح أن يكون هو الحاكم كـ مكافأة له على هزيمة الألمان والسويسريون، لذا قرر مطالبة الملك بامتيازات تعوضه عن تكاليف الحرب، لهذا الغرض التقى في أوائل عام ١٥٨٨ التحالف في بلدة نانسي وعرضوا على الملك عدداً من المطالب من بينها طرد إبيرنون من الحكومة، وهو الأمر الذي رفضه الملك بشدة وبذلك يكون العداء بين الطرفان قد عاد من جديد[٤٤٥].

---

(٢) E. Armstrong, Op,Cit, P.72.

المبحث الثالث

تغيَّر أيدولوجية الحروب المذهبية وإقرار مرسوم نانت (١٥٨٨-١٥٩٨).

وبطبيعة الحال أن تؤثر سياسة الملك تجاه رعاياه، سلباً على النسيج الاجتماعي الفرنسي وتنعكس على الأوضاع الاقتصادية بقوة وتؤثر في مجرى الحياة العامة على الصعيد الداخلي والخارجي، إذ ارهقت سنوات الحرب الطويلة طبقة البرجوازية الصغيرة في المدن الفرنسية وخاصة اصحاب الدكاكين والحرفيين والعاملين في المهن الحرة واظهرت التناقض الكبير بين مصالحهم ومصالح كبار النبلاء المتعاطفين في اكثريتهم مع قضية الإصلاح الديني للكنيسة والبلاط الفرنسي، ولذا انضم هؤلاء إلى العصبة الكاثوليكية وقدموا لها المساندة والدعم في المال والرجال وما ترددوا في جلب المرتزقة كقوات عسكرية لها من خارج البلاد، كما ازدادت العصبة قوة ومركزية بانضمام زعيم الهيغونوت وقواته، بعد أن التقت أهداف وتطلعات الطرفين في جميع النواحي التي اهمها خلع الملك هنري الثالث، وإجباره على الامتثال لمطالبهم[٤٤٦].

اجتاح غيز دوقية بويلون وحاصر سيدان، في حين حاول القائد اومالي إثارة القلاقل لبيرنون في نورماندي، وقد أحس الملك بالخطر المحدق به فمنع هنري غيز من دخول باريس، الأمر الذي أثار انصاره في العصبة الكاثوليكية والذين دعوه سرا، وتخطى غيز منع الملك واستقبلته باريس بحفاوة، وكان ردة فعل الملك هنري هو إدخال قواته إلى العاصمة، الأمر الذي يعد انتهاكا لحق المدينة التقليدي في الدفاع عن نفسها، وانفجر التوتر بين الملك وغيز في الثاني عشر من آيار عام ١٥٨٨ والذي سمي بـ يوم

---

(١) Lurtia, Sacred Boundaries, Religious Coexistence and Conflict in Early Modern France,Washington, 2003,P.189.

المتاريس[٤٤٧]، بعد دخول قوات التحالف إلى باريس وتدفق الحشود في الشوارع، إذ حمل السلاح سكان باريس من رجال العصبة وأقاموا المتاريس في الشوارع وحقق الهيغونوت انتصارات عسكرية عديدة في مختلف المدن الفرنسية، فقد هاجموا قوات الملك وقتلوا منهم ما يقرب من ستين رجلا ودفعوا بمتاريسهم حتى أبواب متحف اللوفر، وتمكن غيز من قمع الحشود الملكية حتى اضطر الملك للهروب في الخامس عشر من آيار إلى بلدة شارتر، في الوقت الذي أرادت كاترين دي مديتشي من جانبها إذعان الملك للتحالف معهم بدلاً من مواجهة الكارثة بمحاربتهم[٤٤٨].

لهذه النتائج وما تبعها من انتهاك لمكانة الملك هنري الثالث، وقع مجبراً على مرسوم الاتحاد في الثاني والعشرين من حزيران عام ١٥٨٨والذي بموجبه قضي بفصل إيبرنون وأكد على تطبيق بنود معاهدة نيمور واعترف مرة أخرى بالكاردينال هنري دي نافار آل بوربون على أنه الوريث الوحيد لعرش فرنسا ومنح المزيد من مناصب الحكم في المقاطعات كعطية لآل غيز وعيّن الدوق هنري دي غيز نائب المملكة العام[٤٤٩].

ولعدم ثقة التحالف الباريسي بالملك هنري الثالث أتخذوا خطوات مهمة بالدفاع عن العاصمة ضد الهجوم الملكي المحتمل، لأن هنري كان يتوق للأخذ بالثأر ممن قاموا بإذلاله وخذلانه، وفي أوائل أيلول دعا إلى عقد اجتماع للجمعية الوطنية في فرنسا في مدينة بلوا ليكتشف أن معظم النواب يؤيدون التحالف ضده، فأصبح الملك في وضع حرج للغاية وحاجة كبيرة إلى المال ليتمكن من استعادة عرشه، لذا اضطر إلى إعلان قسم الوحدة الدينية وسط احتفال مهيب في الثامن عشر من تشرين الأول عام ١٥٨٨ أثناء انعقاد الهيئة التمثيلية العامة في بلوا، وبدا فيه هنري غيز وكأنه ملكاً حقيقياً، وكانت اخته السيدة مونبانسيه Montparnasse تظهر في كل مناسبة بمكانة الملكة المتنفذة،

---

(١) E. Armstrong,Op,Cit,P:227.
(٢) Linda .C.Taber,Op,Cit,P:272.
(٣) James Westfall Xhompson, Op,Cit,P:139.

فقد استهل الحفل بخطاب قصير للملك أعلن فيه أن القرار الآنف الذكر هو دستور المملكة[٤٥٠].

بعد ذلك انبرى رئيس أساقفة كنيسة بورج (Borg) القس رينو دو بون (Renaud de Beaune) يشرح من بعده للحضور الهدف المتوخى من القسم ومقتضياته هو التخلص من رأس الفتنة ومثيريَّ الاضطرابات في البلاد ساعياً بذلك للتخلص من التحالف والقضاء على كل من يخالف العقيدة الكاثوليكية أو يتسبب بحرب أهلية مذهبية، ولما انتهى منه، تقدم الملك بإلقاء بيانه الرسمي الذي يدعو فيه البلدات والمدن الفرنسية إلى الوحدة والتوافق، إذ عالج في مقدمة البيان مسألة الوحدة الدينية في المملكة[٤٥١]، جاء فيه : "**أعرف جيدا أن ما تمكنتم من إدخاله في مقررات الهيئة التمثيلية المنعقدة في بلوا، هو المبدأ العام الذي يقضي بوجود ديانة واحدة في المملكة الواحدة لا غير، وأن أساس الدين هو التقوى التي يستحيل وجودها عند يعبد الله بطرق متنوعة، أعترف أن هذا هو الواقع الذي أرى بشديد الأسف كثيرين يشكون منه وقلة فقط، تريد معالجته...، فلنسلك السبل المتعارف عليها في هذه الأمور...، فإني شخصيا وجميع الذين يتبعون ديانتي، مزمعون على الخضوع لما سيقرره المجمع المفتوح لأنه الطريق الصحيح الذي كان متبع منذ أمد بعيد... أما الاعتقاد فليس بإمكان انتزاع شيء منا بقوة السيف، فإني أعلن أمام الله أنه أمر مستحيل, ولنا من الأحداث خير شاهد على ذلك**"[٤٥٢]،

بعد ذلك أدى الملك قسمه ثم استقبل قسم النواب، ولما جاء دور رجال الإكليروس أقسموا وأيديهم على صدورهم ـ الأمر الذي يوحي بعدم قبولهم الوحدة الدينية في المملكة

---

(١) Natalie Zemon Davis, The Rites of Violence Religious Riot in Sixteenth-Century France, Past & Present, 1973,P:51.
(٢) Natalie Zemon Davis,Op,Cit,P:87
(٣) Henry.M.Baird, Op,Cit,P:263.

ـ في حين أدى ممثلوا سائر الطبقات قسمهم برفع الأيدي، بعد ذلك خرج الجميع إلى كنيسة المخلص (Sauveur –Saint) رتلوا نشيد الشكر [٤٥٣].

وعندما رأى الملك هنري الثالث قوة مركز هنري دي غيز وسيطرته على وجدان الفرنسيين، وبهذا الصدد دون أحد المعاصرين الرأي العام السائد بقوله: "**ان فرنسا كانت مأخوذة بهذا الرجل، ومن القليل جدا أن نقول انها كانت عاشقة له فقط**"، حاول إنقاذ موقفه والعودة إلى العرش الفرنسي، إذ أعتقد إن تحقيق ذلك يكون من خلال التخلص من زعيم العصبة الكاثوليكية، فتآمر مع بعض اتباعه واستُدرَجِ غيز الى غرفة الملك في القصر في الثالث والعشرين من تشرين الثاني عام ١٥٨٨وقتله بمنتهى الوحشية على يد حارس الملك الشخصي، وفي اليوم التالي، قُتل شقيق الكاردينال دي غيز أيضا وسُجن مرشح التحالف للعرش الكاردينال هنري دي نافار آل بوربون، وفي الحال كتب الملك إلى مفوض البابا "**أنا الملك الآن وقد صممت الا احتمل السباب والاذى والاكراه**"[٤٥٤].

غير أن ذلك الإجراء لم يأت بما يرجوه الملك من النتائج، بل أغرقت أفعاله التي كانت بعيدة كل البعد عن تعزيز سلطته، المملكة في أزمة أهلية جديدة، وافقده كل ما بقي له من مكانة عند الكاثوليك الفرنسيين، واجتاحت موجة كبيرة في عموم البلاد تأييد ودعم للتحالف الباريسي مما جعل العديد من المدن تسير في ركابه، وتولى شقيق غيز شارل دي ماين زعامة حركة المقاومة ولم يكن رد فعل ضحايا القتل في بلوا أكثر عنفاً منه في باريس، إذ ندد المبشرين البروتستانت بأفعال الملك وتم اعتباره هيرودس جديد، ونشروا المنشورات التي ترفع مقام ضحايا الهيغونوت إلى منزلة الشهداء[٤٥٥].

إذ قامت في اليوم الثاني ثورة في باريس وتألفت فيها حكومة ثورية من ستة عشر عضواً يمثلون بلدات العاصمة واقضيتها، وفي الحال عقدت حكومة باريس المؤقتة

---

(١) Barbara .B.Diefendorf, Chatholics and Huguenots in Sixteenth-Century Paris, New York,1991,P.28.
(٢) Natalie Zemon Davis, Op,Cit,P:178.
(٣) Jean Hippolte Mariejol, Catherine de Medicis,Haohette,1920,P.93.

مجلساً في كانون الأول عام ١٥٨٨ اعلنت فيه خلع الملك هنري الثالث عن العرش الفرنسي وحظي ذلك بموافقة وتأييد قداسة البابا سيكتوس الخامس الذي أعلن حرمانه من حقوقه في العرش، بعد وصفه بـ القاتل، المجدف، الهرطقي، الساحر، هادر الخزينة العامة وعدو الوطن، واعترفوا بالكاردينال هنري دو نافار ملكاً على فرنسا، كما اعلنوا ماين دو غيز، نائب المملكة العام وانضم القسم الأعظم من المقاطعات إلى هذا القرار الذي صادق عليه الجميع، وبذلك سيطر آل غيز على المواقع المهمة في الحكم(٤٥٦).

تزامن ذلك مع وفاة الملكة كاترين دي مديتشي في الخامس من كانون الثاني عام ١٥٨٩ بذلك لم يبق أمام الملك هنري الثالث بداً من المصالحة مع الدوق هنري دو نافار لينتقم لنفسه من العصبة الكاثوليكية وزعمائها، وفي الثلاثين من نيسان وقع معه اتفاقاً، وألتحق معه من بقيَّ على ولائه من جنود الملكية الفرنسية وتضافرت القوات وزحفوا نحو محاصرة مدينة باريس في منتصف شهر تموز عام ١٥٨٩، وأقام هنري الثالث معسكراً في سان–كلو(Saint–Cloud)، ولكن بعد أسبوعين نفذت عليه كلمة الحق الواردة في الكتاب المقدس القائلة: "**بالحديد يقتل، بالحديد يقتل**" فأغتاله في الثاني من آب عام ١٥٨٩، راهب جزويتي كاثوليكي متعصب يدعى جاك كلمان (Jack Kellman)، قد جاء من خارج باريس مفترضاً أن يقوم بتوصيل رسالة إليه من قبل العصبة، وبموته انتهى حكم آخر ملك فرنسي من آل فالوا تاركاً العرش من غير وريث كاثوليكي يرضي جميع البلاد، وتم استقبال خبر وفاته بفرح شديد في باريس، وافترض المتطرفون الكاثوليك بوفاته قد تخلصوا من العقبة الأخيرة التي كانت في طريق تحقيق الانتصار الكاثوليكي بالحصول على التاج الفرنسي(٤٥٧).

وبذلك تكون قد انتهت المرحلة الثامنة من الحروب المذهبية الدينية التي شهدتها فرنسا منذ عام ١٥٦٢، لكنها تسببت باندلاع حرب أهلية جديدة ذات وجهة سياسية

---

(١) N. M. Sutherland, The Huguenot Struggle for Recognition (New Haven), 1980,P:354.

(٢) Durant William,The Age of Reason , Simon and Schuster , 1961,P.352.

بحتة، تمثلت بتنافس زعيم الهيغونوت هنري دي نافار وزعيم العصبة الكاثوليكية شارل دي ماين حول الوصول إلى العرش الفرنسي.

وفق التقاليد الدستورية الفرنسية وبناءً على وصية الملك هنري الثالث، أصبح سليل عائلة بوربون هنري دي نافار ملكاً شرعياً للعرش الفرنسي باسم هنري الرابع مؤسساً بذلك مملكة آل بوربون التي قدر لها أن تحكم فرنسا حتى الثورة الفرنسية، غير إن فرنسا الكاثوليكية ما كانت على استعداد للقبول بملك بروتستانتي على عرش كلوفيس، فضلاً عن ذلك، كانت لمساعي شارل دي ماين دور كبير في توسعة الخلاف بين فئات المجتمع الفرنسي حول تنصيبه ملكاً[٤٥٨]، علماً إن تلك المساعي لم تأتِ من فراغ، فقد حصل على تأييد الفرنسيين له والاتفاق حول زعامته بانضمام كل شمال ووسط فرنسا إلى العصبة الكاثوليكية، التي ازداد موقفها قوة حين أرسل قداسة البابا سيكتوس الخامس في أيول عام ١٥٨٩، الموفد البابوي لاندريانو (Landriano) إلى باريس حاملا معه مذكرتيَّ استدعاء تم لصقهما في الثالث من حزيران على جدران كنيسة نوتردام (Church Notre Dame) في باريس[٤٥٩].

تضمنت المذكرتان المطالبة بعزل المستشار بيارنيه (Bearnais) وإنزال اللعنة على كل من يبقى وفياً للملك الهرطوقي هنري الرابع، القرار الذي نتج عنه احتجاجات صاخبة في مجالس البرلمانات الملكية، أما المذكرة الثانية، فقد اصدر فيها البابا قرار الحرمان بحق هنري بوربون من وارثة العرش الفرنسي نظراً لهرطقته فكان هذا الأمر كافياً لمنع الفرنسيين من التعامل معه، بالإضافة إلى قوة مركز زعيم العصبة شارل دي ماين الذي حكم باريس بدعم وتأييد إسبانيا متمثلة بالملك فيليب الثاني ذو الميول الدائم والتدخل المستمر إلى جانب الكاثوليك أثناء الحروب الدينية الفرنسية، فكانت هذه فرصة مناسبة له لمعارضة تنصيب هنري الرابع، لا سيما وانه يسعى منذ وفاة الملك هنري

---

(١) Hayes, Political and Cultural History of Modern Europe,New York,1944,P.69.

(٢) Philip Conner, Huguenot Hrartland,Montauban and Southern French Calvinism during the Wars of Religen ,Aldershot,2002,P32..

الثالث إلى تنصيب ابنته ملكة على عرش فرنسا باعتبارها قريبة بالنسب من جهة امها للملك المتوفى[٤٦٠].

نتج عن مساندة اسبانيا للعصبة الكاثوليكية بالجنود والمال أن أصبحت أقوى من قبل، وكانت إلى جانبها مدينة باريس ومعظم المدن الكبرى مع مجالسها النيابية في المملكة، لذا عدها هنري الرابع الحاجز الأساسي الحائل دون جعله ملكاً فعلياً، وبالطبع ظل التحالف على عدائه الشديد للملك هنري الرابع وأشيد بالكاردينال هنري دي بوربون بوصفه الملك شارل العاشر، رغم أنه كان لا يزال سجينا، وتمكن هنري من التغلب على بعض القادة الذين كانوا مع هنري الثالث في سان كلو بتقديم مختلف الوعود لهم، وتعهد بتلبية تعليمات العقيدة الكاثوليكية والدعوة إلى عقد اجتماع للجمعية الوطنية في فرنسا، مع ذلك هرب الكثير من أتباع الملك الراحل بما في ذلك القائد إيبرنون ونيفير بدلاً من العمل على خدمة الملك البروتستانتي الجديد[٤٦١].

وبذلك تضاءل حجم الجيش الملكي الذي يحاصر باريس من أربعة الاف(٤٠.٠٠٠) إلى ثمانية عشر ألف (١٨.٠٠٠) جندي، فاضطر هنري الرابع بهذا العدد القليل من الجنود إلى رفع الحصار، وأيده من خارج المناطق البروتستانتية في مقاطعة ميدي بيرنيه سبع مدن كبيرة وبالرغم من حث القادة له على الثبات في جنوب نهر لوار، إلا أنه اختار أن يذهب إلى نورماندي وهذا ما مكنه من الحصول على المساعدة الانكليزية فأصبح باستطاعته مجابهة العصبة الكاثوليكية وتجدد الصراع بينهم في الخامس والعشرين من أيلول عام ١٥٨٩ وطارده ماين متوعداً إياه، إما بإلقائه في البحر أو إعادته إلى باريس في سلاسل وقيود[٤٦٢].

في تلك الاثناء كان هنري يأمل في أن يجبرهم على العبور إلى أركيس (Arkis) التي كانت محمية بخندقين موازيين ومغطاة بمدافع القلعة الداخلية، لأن الجيشان كانا

---

(١) E. Armstrong,Op,Cit,P:276.
(٢) Lurtia, Sacred Boundaries, Op,Cit,P:309.
(٣) Natalie Zemon Davis, Op,Cit,P:178.

غير متكافئين، إذ بلغ جيش ماين أربعة الاف(٤.٠٠٠) فارس وألفان(٢.٠٠٠) جندي مشاة، حين بلغ جيش هنري الرابع ألف(١.٠٠٠) فارس وأربعة الاف(٤.٠٠٠) من المشاة، وفيما قام جنود مشاة بجيش ماين بتطويق أول خندق للملك هنري وقع الجنود الذين احتجزوا فيه مرة أخرى في حالة ارتباك حيث قام سلاح الفرسان بتوجيه الاتهام إليهم بالتقصير، ونشبت معركة ضارية إلا أن السويسريون المحتجزين في الخندق الثاني للمك هنري ثبتوا في مواقعهم[٤٦٣].

الأمر الذي مكن هنري من استئناف القتال، فمع انقشاع الضباب في الصباح أطلق سلاح المدفعية النيران من قلعة اركيس مما ألحق خسائر فادحة في صفوف جيش ماين مما اضطره للانسحاب، وتلقى هنري بعدها مساعدات عسكرية وأموالاً طائلة من إنجلترا فضلا عن تعزيزات عسكرية من البروتستانت في الجنوب الفرنسي، الذين جهزوا جيش قوامه ثمانية عشر ألف مجتمعاً مع قوات المدد الإنجليزي وتحركوا صوب باريس، وفيما تتساقط بأيديهم ضاحية بعد أخرى حتى سلبهم جنود هنري وهم في مأمن من العقاب، وقام في هذه الأثناء ماين الذي عاد إلى العاصمة بتجديد تحصيناته العسكرية[٤٦٤].

لا شك ان كثرة المعارك التي خاضتها جيوش المتحاربين قد تسببت بتعب وهلاك الجند ونفاذ العدة والذخيرة فتؤثر بشكل مباشر على مجريات الحرب والنتائج المترتبة عليها، وهذا ما حصل مع هنري الرابع عندما اضطر إلى التراجع بسبب النقص الحاد في سلاح المدفعية مع نقص المال الذي أجبره على حل جزء من قواته، بعد اقتحام فاندوم (Vendome) وفي العشرين من تشرين الثاني تولى هنري إدارة القوات التي أنشأها هنري الثالث في تور بعد رحلته من باريس في العام الماضي وتمكن بها في العاشر من كانون الأول من الاستيلاء على بلدة لافال (Laval) حيث انضم إليه تعزيز

---

(١)Henri Hauser,The French Reformation and the French People in the Sixteenth century, American historical Review,Vol.4,1899,P217.

(٢) James Westfall Xhompson, Op,Cit,P:139.

عسكري بقوات بريتون حتى استأنف الملك حملته في نورماندي التي جذبت انتباهه ليس فقط بسبب قربها من إنجلترا، ولكن لأنها أغنى مقاطعة في فرنسا، وطمعاً في أن توفر له الأموال التي هو في أمس الحاجة إليها[٤٦٥].

لكن ماين أعاد بناء قواته وبدأ في استعادة الأراضي التي خسرها حتى وصل مولان (Mulan) وفرض الحصار عليها، وعندما سمع هنري بذلك فرض الحصار على درو، حينها توجه ماين لإغاثة مدينة درو تقهقر جيش هنري على طول أقليم أور، وفي الثالث عشر من آذار عام ١٥٩٠، سحب جيشه إلى بلدة إيفري (Evry) بالقرب من بلدة إفرو (Afro) التابعة لإقليم أور والمتبقي منهم فقط ستة فرق من سلاح الفرسان علاوة على بعض قوات المشاة كساتر لهم في الامام وبعض قوات المشاة بينهم كانت المدافع في المنتصف تقريبا وقاد بيرون قوات احتياط صغيرة في الخلف، فيما كان توزيع جيش ماين مشابهاً لذلك، أما من حيث العدة والعدد فكان جيش هنري يبلغ ثلاثة الاف(٣.٠٠٠) فارس وثمانية الاف(٨.٠٠٠) من المشاة بينما بلغ جيش ماين خمسة الاف(٥.٠٠٠) فارس وأثنا عشر الف(١٢.٠٠٠) من المشاة، ورغم قلة عدد جيش الملك، إلا ان جنوده لديهم ميزة وجود الشمس وراءهم، كما حثهم هنري على اتباع الريشة البيضاء الموجودة على قبعته إذا فقدوا رؤية الضباط الحاملين للبيارق، وبهذه الطريقة قال لهم رسخوا النصر والشرف[٤٦٦].

عندما أطلقت المدافع النيران من كلا الجانبين واصطدمت جثث سلاح الفرسان وبدت المعركة وكأنها متساوية تقريبا حتى اخترق فرسان هنري فرسان ماين واستولى هجوم قوات بيرون الاحتياطية من الجناح الأيسر على كل شيء تقريبا، وكانت معركة إيفري في الأساس معركة سلاح الفرسان على عكس رجال ماين المسلحين الذين فضّلوا الرمح الثقيل، في حين طبق هنري تكتيك المسدس، وهو تكتيك زُعم أنه اخترعه بنفسه،

---

(١) Linda .C.Taber,Op,Cit,P:272.

(٢) Lurtia, Sacred Boundaries, Religious Coexistence and Conflict in Early Modern France,Washington, 2003,P:189.

وكان رجاله يضيقون الخناق على العدو قبل تسديد مسدساتهم ثم يهاجمونهم باستخدام سيوفهم، وانتهت معركة إيفري بانتصار عظيم لهنري الرابع[٤٦٧].

قُتل ستة ألاف من التحالف الكاثوليكي وأسر المئات من المشاة وأربعين ضابطا من حاملي البيارق بالإضافة إلى استيلائهم على أسلحة وكمية كبيرة من الأمتعة، بعد ذلك لا أحد يعرف ما يدور في ذهن هنري الرابع، فلم يعد هناك جيش لماين، وكانت باريس بلا حماية عسكرية تقريباً، ومع ذلك اختار هنري البقاء لمدة أسبوعين في مانت لاجولي (Mant Lajuli)، وعندما تحرك في نهاية المطاف شرع في السير في منحنى بطئ مهيئ للغزو عبر بلدة كوربيل باتجاه جنوب شرق فرنسا حتى مدينة بروفينس (Provence)، براي-ديونز (Bray-Dunes) ثم نويي-سور-سين (Noy-sur-Seine) ومونترو(Montreux)، حتى توقف عند مدينة نيس، ثم بدأ في محاصرة باريس، وبما أن جيشه كان صغيرا جدا بحيث لا يستطيع تطويق العاصمة بالكامل، فقد حاول قطع الإمدادات عن طريق الاستيلاء على عدد من الجسور المطلة على نهر السين[٤٦٨].

لقد افادته الخبرة الحربية أنه من الخطأ مهاجمة باريس من الجنوب، لأن هذا يسمح للمدافعين بالحصول على تعزيزات من الشمال حيث كان التحالف هو الأقوى، لذلك أنشأ هنري مقره على تلة في حي مونمارتر(Montmartre) ناحية شمال العاصمة، وفي الوقت نفسه، قام بنشر قواته في القرى المجاورة، ووضع مدفعيته داخل نطاق المدينة، في هذه الأثناء أعاد ماين بناء قواته وحشد ألف وخمسمائة(١.٥٠٠) جندي من المرتزقة ألمان والعديد من السويسريين وجنود القربينة، وكان لديه أيضا ميليشيا من الحضر قوامها ثمانية وأربعون ألف(٤٨.٠٠٠) رجلا[٤٦٩].

---

(١) Kindon,Geneva and the Coming of the Wars of Religon in France,1553-1563,Genave,1956,P.59.
(٢)Kindon, Op,Cit,P:329
(٣) James Westfall Xhompson,Op,Cit,P:47

بينما كان جيش هنري الرابع صغيرا نسبيا، لا يتعدى أكثر من عشرين ألف(٢٠.٠٠٠)، وقد أوقع حصار باريس الذي استمر من السابع آيار حتى الثلاثين من كانون الأول عام ١٥٩٠ صعوبات مروعة على سكان المدن الفرنسية التي تحولت إلى ساحات حرب أهلية بين أبناء الدين الواحد، وقدرت الضحايا بما يقارب من ثلاثة عشر ألف(١٣.٠٠٠) بينما ثلاثون ألفاً(٣٠.٠٠٠) ماتوا جوعاً، ومع هبوط الروح المعنوية العامة حث الوعاظ الكاثوليك الشعب على مواجهة الموت بدلاً من السلام في ظل حكم ملك مرتد، ونظمت لذلك مسيرات ضخمة كمظاهرات الحماس الديني والتضامن، كان من بين هذه المسيرات تلك التي حدثت في الرابع عشر من آيار، والتي تألفت من الرهبان الكاثوليك المسلحين وقوات القربينة وحاملي المطرد(سلاح قديم) والخناجر، وعوقب أي تراجع بكل قوة من قبل هيئة الستة عشر- وهي هيئة ثورية تكونت من كبار النبلاء، تسيطر على التحالف الباريسي في تحديه للخطر الملكي -، وصاحب هذه المظاهرات موجة من عمليات التفتيش والاعتقالات التي أدت إلى فرض غرامات مالية أو السجن أو القتل للمتخلفين عن المسيرة[٤٧٠].

الخشية من البروتستانت والتدخلات الأوربية في فرنسا:

لم ينحصر تأثير هذه المواجهات والحروب الأهلية على فرنسا وشعبها فحسب، بل أنعكس على الإمبراطوريات الأوربية في الخارج، فكان أحد المراقبين الأجانب الذين كانوا يخشون أن تقع باريس في أيدي البروتستانت هو ملك إسبانيا فيليب الثاني الذي لم يتردد في توجيه قائده في البلدان المنخفضة ألكسندر فارنيزي (Alexander Varnesi) دوق بارما، بغزو شمال فرنسا بقوة قوامها أربعة عشر ألف(١٤.٠٠٠) من قدامى المحاربين الاسبان، وفي الثالث والعشرين من آب عام١٥٩١ انضم ألكسندر في مو إلى جانب ماين بقوة قوامها أثنا عشرة ألفاَ (١٢.٠٠٠)، في حين كان جيش هنري الرابع بنفس القدر

(١) E. Armstrong, The French Wars Of Religion, London,1904,P:59.

تقريباً بعد أن تلقى مؤخراً تعزيزات من جنوب فرنسا، وأقدم على سحب بعض الجنود من باريس وواجه ألكسندر في شيلي(Chilean)، لكن الأخير منع وقوع المعركة، وبدلاً من ذلك قامت قوة من الإسبان بقطع طريق الامدادات إلى باريس من خلال الاستيلاء على لاجني Lagny[٤٧١].

وفي التاسع من أيلول تقهقر هنري الرابع، وقسم جيشه إلى أربعة أجزاء وأرسلهم إلى تورين، شمبانيا، نورماندي وبورجوندي ولم يتبق سوى عدد قليل بالقرب من باريس، وفي الثاني والعشرين من أيلول فرض ألكسندر الحصار على كوربيل، وبعد سقوط المدينة في السادس عشر من تشرين الأول عاد إلى البلدان المنخفضة تاركا لماين مسؤولية قيادة قوات التحالف، أما هنري الرابع فقد أجبره نقص الأموال على تسريح جميع قوات المرتزقة باستثناء السويسريين[٤٧٢].

ومن الجدير بالذكر ان هذه المرحلة من الحروب المذهبية قد تميزت بحدوث انقسام كبير في صفوف التحالف الكاثوليكي بين الراديكاليين الباريسيين ونبلاء ماين، إذ أجبرت التجاوزات الآنفة الذكر التي ارتكبها أعضاء هيئة الستة عشر في باريس ماين على التدخل، واحتل العاصمة في الثامن عشر من تشرين الثاني عام ١٥٩١، منهيا حكم المتطرفين الكاثوليك، ومنذ ذلك الحين، كان على هنري الرابع مواجهة تحالف ماين وحده وبدلاً من مهاجمة المعقل الرئيسي للتحالف في روان شمال فرنسا، اختار هنري وقتها الاستيلاء على شارتر، ثم مدينة نيون, مشدداً بذلك حصاره الجزئي على باريس، عندها دخل ماين معه في مفاوضات لتسليم نيون بشرط أن يدفع ماين تعويض مالي قدره أربعون ألف(٤٠٠٠٠٠) كرونة، مما ساعد هنري على دفع رواتب قواته[٤٧٣].

وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني تفقد في بلدة فاندي(Vandy)، بالقرب من مدينة فردان (Verdun)، جيشا حشده في تورين من المرتزقة الألمان، وفي هذه الأثناء

---

(١) Ibid,P:312.
(٢) James Westhall Thompson, Op,Cit ,P:326.
(٣) Linda .C.Taber,Op,Cit,P:271.

عرضت إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا تقديم جنودها لمساندته شريطة أن يهاجم روان، ويبدو أن عرضها قد أثار إعجاب الملك هنري، وبعد التنقل بين باريس وشارتر، تحول فجأة غربا وأخبر إليزابيث أنه مستعد ليلبي طلبها، وفي الثاني من كانون الأول، نزلت قوة إنجليزية استكشافية تحت قيادة إيرل إسيكس (EarlEssex) في بلدة دييب(Dieppe)[٤٧٤]، وفي الرابع عشر من كانون الأول عام ١٥٩١، فرض بيرون الحصار على روان التي دافع عنها حاكمها السيد دي فيلار(De Villar)، الذي اتخذ خطوات سريعة لإصلاح تحصينات البلدة وجلب الأسلحة من لوهافر وعزز الحامية التي يبلغ قوامها ستة الاف(٦.٠٠٠) فرد، في الوقت الذي انضم هنري الرابع إلى ايسكس في بيرون في السابع والعشرين من كانون الأول، وركزوا جهودهم في الاستيلاء على فورت سانت- كاترين ولكن تم صدهم مرارا وتكرارا حتى أصبح إيسكس محبطا للغاية لدرجة أنه عاد إلى إنجلترا في كانون الثاني عام ١٥٩٢، بينما كانت الروح المعنوية لمقاتلي العصبة الكاثوليكية معززة باستمرار من خلال المسيرات والخطب الدينية التي تذكرهم بالدعم الإلهي لقضيتهم، لكن أملهم الأساسي كان معلقاً بألكسندر بارما[٤٧٥].

بينما ترك هنري الرابع كل قواته من المشاة في بيرون خارج روان خوفا من تكرار ما حدث في باريس، وانطلق بنفسه مع سبعة الاف(٧.٠٠٠) فارس ليقلق الدوق ألكسندر بغارات متكررة، حتى التقت الجيوش المتنافسة في الثالث من شباط ١٥٩٢ على نهر السين، إذ قاد هنري هجوما سريعاً بسلاح الفرسان ضد فرسان ألكسندر بارما، إلا أن الأخير تمكن من عزل هنري عن قاعدته حتى أصيب بجروح طفيفة في واقعة كوديبك (Codepec) بنورماندیا وقُتل حوالي ستون(٦٠) من نبلائه، فأضطره جيشه إلى رفع الحصار عن مدينة روان، فأستغل ذلك الملك فيليب الثاني وعمل ما في وسعه للمناداة بابنته ايزابيلا (Isabella) حفيدة هنري الثاني، ملكة على عرش فرنسا[٤٧٦].

---

(١)Linda .C.Taber, Op,Cit,P:265.
(٢) Philip Benedict, Op,Cit,P:377.
(١) Robert M.Kindon, Op,Cit,P:163.

أمام هذه المخططات انقسم رجال العصبة على انفسهم، وبينما كان هنري يتعافى من جرحه في دييب، حتى استولى ألكسندر على نيوفشاتيل (Neophacatel) قبل استئناف هنري للحرب والتوجه على روان، وفي الرابع والعشرون من شباط شنَّ فيلار هجوماً عنيفاً على حصون بيرون وبدا الطريق ممهدا بالنسبة لألكسندر لدخول روان لكن ماين أثناه عن ذلك، إذ لم يكن يرغب في أن تصبح المدينة معقلا اسبانيا خارج سيطرته بعد ترك جزء من جيشه في نيوفشاتيل، ثم عاد ألكسندر إلى بيكاردي بقوة كبيرة وتولى هو محاصرة روان، في الوقت الذي أخذت موارد فيلار تتضاءل بينما تعالت صيحات سكان روان مطالبون بـ "**السلام أو العيش**" [٤٧٧].

وعندما عاد هنري الرابع إلى بيرون في دارنيتال، استأنف حصار روان، وحذر فيلار ألكسندر من أنه بدون المساعدة لن يتمكن من الصمود وفي العشرون من نيسان، استجاب ألكسندر لنصيحة فيلار فوراً وأرسل خمسة الاف(٥.٠٠٠) فارس وأثنا عشرة الف(١٢.٠٠٠) من المشاة، مما اضطر هنري إلى سحب جيشه إلى الجنوب من روان, وفي الحادي والعشرين من نيسان دخل ألكسندر وماين المدينة منتصرين، لكن تحريرها لم ينهِ معاناة السكان إذ الريف المجاور مجرد تماما بسبب المحاصرين الذين جلبوا معهم أيضا الأمراض المعدية، وبحلول أوائل عام١٥٩٣، دُفن ما يقرب ثلاثة أضعاف عدد الأشخاص في السنة الاعتيادية، بعد ذلك هاجم ألكسندر كاوديبيك وهي بلدة تعترض الطريق إلى لوهافر، مما سمح لهنري الرابع بإعادة بناء جيشه، إذ انضم إليه الكثير من النبلاء الذين عادوا إلى منازلهم لقضاء الشتاء[٤٧٨].

وسرعان ما حشد الملك جيشا قوامه نحو ثمانية عشر ألف(١٨.٠٠٠)، وقد حاول هنري نصب مكيدة لألكسندر في دي كوكس بين نهر السين والبحر، لكن الدوق تهيء لإرسال قوارب وطوافات من روان إلى كوديبيك، وفي ليلة الحادي والعشرين من آيار

---

[٢]Alastair Armstrong, Op,Cit,P:278.
[٣]Robert.J,Op,Cit,P:386.

عام١٥٩٣، عبر جيشه نهر السين عند نقطة يعتبر فيها النهر غير سالك، وعندما وصل هنري الرابع إلى ميدان العمليات الحربية، كان العدو قد تمكن من عبور نهر السين وزحف شرقا ووصل إلى سانت كلو Saint–Cloud خلال خمسة أيام بعدها قام الدوق بتعزيز الحامية الإسبانية في باريس بطلب من مجلس الستة عشر قبل العودة إلى البلدان المنخفضة، ولكنه توفي في الثاني من حزيران عام ١٥٩٣ في مدينة أراس، وبينما كان هنري الرابع يدرك أن المتعصبون كانوا يقدمون الدين على الوطن، فأفاد من ذلك كثيراً عندما انعقد مجلس المملكة العام في باريس عام ١٥٩٣، بناءً على دعوة ماين لينتخبوا خلفا لشارل العاشر، وعدها هنري الرابع فرصة سانحة وقرر استغلالها[٤٧٩]، فكان لا بدَّ له من إيجاد وسيلة تمكنه من تحقيق أهدافه، فباعتباره سياسياً عريقاً وذو مبادئ مكيافيلية، وبينا كان فيليب الثاني مصراً في دعوته إلى انتخاب ايزابيلا ولم يقبل بزواجها بأمير فرنسي قبل أن تتوج ملكة على العشر الفرنسي، قام هنري الرابع واعلن على لسان المطران بورج (Borg) عزمه على اعتناق الكاثوليكية، وبالفعل جلس بين يدي المطران بورج الذي قام بتعميده في كنيسة سان – دوني(Saint-Denis) الفرنسية في الثالث والعشرون من تموز عام ١٥٩٣ [٤٨٠].

بهذه الإجراءات احدث هنري اضطراباً كبيراً في صفوف العصبة وهَدمت آمال فيليب في الاستحواذ على عرش فرنسا، أما التاج الفرنسي فكان يسعى إلى تحقيق السلام لذا رحب البلاط الملكي بهذه الخطوة كثيراً، واعترف قسم كبير من المملكة بـ هنري الرابع ملكاً على فرنسا، وأدى القَسّم الذي تعهد فيه: "**إبقاء الديانة الكاثوليكية الرسولية الرومانية في مملكتنا والحفاظ عليها بالكامل من دون تجديد ولا تغيير، وأن يصار إلى إرشادي بوساطة مجمع شرعي مفتوح، عاماً كان أم وطنياً، كي يأخذ بتحديداته ويعمل**

---

(١)Cathal .J .Nolan, The Age Of Wars Of Religion, (1000–1650), Vol:1, London,1984,P:117.

(٢) Judith Pollmann,Op,Cit,P:235.

بموجب مقرراته"[٤٨١]، كما رأى من الأجدر به، ألا يستمر في القتال ويكسب خضوع الباقين بالمال والمناصب، فمن ذلك أن دوق بربساك حاكم باريس سلمه المدينة مقابل مائتي الف ليرة، وتمكن هنري الرابع في آذار عام ١٥٩٤ من دخول العاصمة باريس بعد أن تلاشت معارضة العصبة الكاثوليكية لشخصه وعقيدته، وتقبل الحبر الأعظم لتوبته، وبذلك تمكن هنري من الحصول على اعتراف الأخير وكذلك إسبانيا، به ملكاً على فرنسا، فكان على هنري الرابع ان يعمل الكثير لإزالة ما خلفته الحروب الدينية الطويلة وما تركه الصراع على العرش من دمار وخراب في فرنسا[٤٨٢].

أما فيليب الثاني الذي لم يدخل في حرب فرنسا مباشرة الا كمساعد للعصبة الكاثوليكية، ولكنه غير موقفه بعد تنصيب هنري الرابع ملكاً شرعياً على فرنسا، إذ أخذ يقاتل لحسابه الخاص فأعلن الحرب ضد هنري الرابع وعندها تحولت الحرب من أهلية دينية إلى حرب دولية ونزاع بين البيت الفرنسي والبيت النمساوي، والتي استمرت ثلاثة أعوام (١٥٩٥-١٥٩٨)، وتركزت في بورغونيا، إذ هاجمها الاسبان من بلدة فرانش – كونته (Francch – his being) بيكاردي وديجون عاصمة برغنديا في فونتين وتمكن هنري الرابع من دحر حملة الاسبان لكن دون حسم نهائي لموقف إحداهما تجاه الآخر [٤٨٣].

مرسوم نانت ونهاية الحروب المذهبية عام(١٥٩٨):

ما زالت القضية الدينية بحاجة إلى حل جذري وكانت تسويتها من اصعب المشاكل التي واجهت الكنيسة الفرنسية والملك هنري الرابع، فمن الصعب تهدئة الخواطر في داخل المملكة بعد اربعين عاما من الحروب الأهلية المذهبية والعداء والقتل وسفك الدماء، فضلاً عن انفكاك الاتحاد البروتستانتي الكالفني من حول هنري الرابع بعد أن

---

(١) Cathal .J .Nolan, Op,Cit,P:178.
(٢)Jean Richard,Op,Cit,P:٣١٩.
(٣) John Acton, The Huguenots and the League ,Lecture on Modern History, New York,1906,P:72.

ارتد عن دينه ووقف منه موقفا معادياً، لذا توجب عليه صيانة حقوق الهيغونوت كطائفة مستقلة ووضع افرادها تجاه الدولة والقانون والأغلبية الكاثوليكية[٤٨٤]، فالحروب الدينية أكدت أن الهيغونوت اقوياء وشجعان متمسكون بحقوقهم وحرياتهم إلى أقصى الحدود وهم دوما على استعداد لحمل السلاح دفاعا عن عقائدهم فإذا اريد حقا صيانة السلام في فرنسا والحفاظ على وحدة الأمة فلا بد من الاعتراف بحقوقهم ووجودهم، لا سيما وأنه أصبح مستعداً لحسم مفاوضات المسألة الدينية وزعماء الهيغونوت والكاثوليك والتي نتج عنها صدور مرسوم نانت[٤٨٥] في الثالث عشر من نيسان عام ١٥٩٨ الذي انهى الصراع الطويل مع الكالفنية في فرنسا، واعترف هذا المرسوم للهيغونوت البروتستانت وضمن لهم[٤٨٦]:

١- حرية الوجدان والمعتقد والافصاح عنه علناً.

٢- حريه العبادة وممارسة الطقوس العامة والخاصة في جميع بلدات ومدن وأقضية المملكة.

٣- المساواة المطلقة مع الكاثوليك في الجوانب السياسية، الاقتصادية والاجتماعية.

٤- يحق لهم الوصول إلى جميع الوظائف في المملكة دون استثناء.

٥- إقرار مجالس نصفية في برلمانات المملكة تشمل مجموعة من القضاة نصفهم كاثوليك والنصف الآخر بروتستانت.

٦- تنازل لهم هنري الرابع عن ضمانات سياسية وعسكرية، إذ منحهم حوالي مئة بلدة وحصناً يقيموا فيها ويكون لهم فيها جيش صغير يدفع نفقاته الملك، بما في ذلك لاروشيل ومونبلييه.

---

(١) Arthur Tilley, Op,Cit,,P:.٢٧٣

(٢) ينظر ملحق(٥) يوضح البنود الكاملة لمرسوم نانت.

(٣) Robert.J,Op,Cit,P:382.

٧- سمح لهم بعقد مجلساً تمثيلياً مرة كل ثلاث سنوات للبحث في شؤونهم الطائفية ومطالبهم الخاصة، وهذا الامتياز ساعد الكالفنيين على بقائهم حزباً منظماً في قلب المملكة الفرنسية.

٨-وسمح لهم بأن تكون لهم غرفة قضائية خاصة بهم في باريس.

٩-سمحت التسوية في الحياة الدستورية لفرنسا بوجود دولة ديجو نوتية (Diego Noth) الصغيرة بجيشها وقلاعها وحكومتها القائمة داخل فرنسا، وهي خير شاهد على التسامح الديني.

١٠-نتج عن قانون التسامح الديني إعادة اليسوعيين المتعصبين الذين زاد نفوذهم في البلاط وتأثيره على التعليم، الأمر الذي أدى فيما بعد إلى تجدد الصراع مع الهيغونوت وطردهم من فرنسا ونقض مرسوم نانت.

وهكذا اعطى مرسوم نانت الهيغونوت المساواة التامة مع سائر الفرنسيين ومنحهم ايضا مكاسب ستجعل البعض ينظر اليهم وكأنهم اصحاب دولة ضمن الدولة الفرنسية، فمن المؤكد ان هذا المرسوم وضع اسس التسامح الديني الذي سيصبح فيما بعد القاعدة في الدساتير الفرنسية، ففي الواقع إن الرعايا في المانيا وانكلترا واسبانيا كانت مضطهدة تحت طائلة النفي والموت، وعليها ان تدين بديانة ملكها كاثوليكية كانت ام بروتستانتية، أما فرنسا فكانت الأولى التي تبنت نظام الحرية الدينية الذي قبل به البلاط الفرنسي، لا عن رغبة احترام حقيقي لحقوق الطوائف الدينية، بل لأنها كانت مضطرة بحكم الحنكة السياسية والدبلوماسية العالية اللذين امتاز بهما هنري الرابع، على الرغم من ذلك لم يلق المرسوم قبول الكثير من الكاثوليك، حتى اضطر هنري الرابع إلى بذل كل ما في وسعه من ترغيب وترهيب لبرلمانات المدن الفرنسية ليحصل على حق تسجيل هذا المرسوم[٤٨٧].

---

(١) Barbara .B.Diefendorf, Chatholics and Huguenots in Sixteenth-Century Paris, New York,1991,p.231.

بعد ذلك ولم يبق أمام هنري الرابع غير تصفية الجبهة الخارجية وانهاء الوجود الإسباني في الأراضي الفرنسية، فقد تمكن بمساعدة الملكة اليزابيث من طرد جيشاً إسبانياً من مدينة إميان(Eminem) وأجبر إسبانيا الدخول في مفاوضات باسم زعماء العصبة الكاثوليكية مع هنري الرابع، انتهت بعقد معاهدة فيرفان(Fairfan) في الثالث عشر من آيار عام ١٥٩٨ والتي وطدت من جديد بنود معاهدة كاتو – كامبرسيسز [٤٨٨] إذ تخلى فيها الإسبان عن مدينة كاليه وبلافيه في بريتاني، واللتين كانت إسبانيا قد استولت عليها بصفتها حليفة للعصبة الكاثوليكية[٤٨٩].

---

[٢] المنعقدة عام ١٥٥٧ بين فيليب الثاني وهنري الثالث بعد انتصار الاول في معركة سانت كنتان .....

[٣] Barbara .B.Diefendorf, Op,Cit,P:289.

توصلت الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات التي اعتمدتها الباحثة بعد استقراء الأحداث التاريخية وتحليلها، يمكن إيجازها بالنقاط الآتية:

- تواجه المجتمعات الإنسانية موجات خطيرة على مختلف الحقب التاريخية تختلف مدياتها باختلاف المؤثرات الخارجية، محاولةً اختراق المعتقد الديني والمبادئ الأخلاقية لأفراد تلك المجتمعات تحت اطار التنافس السياسي والمصالح الاقتصادية من جهة وسيادة معتقد ديني معين على بقية الأديان والمعتقدات الموجودة من جهة أخرى، هذا ما شهدته أوربا الغربية في حقبة العصور الوسطى، إذ بعد أن استبشرت المجتمعات الغربية خيراً بظهور المسيحية وانتشارها في القرن الرابع الميلادي وما بعد، لما وجدته في هذه الديانة من الحقوق والسماحة في تعاملات الحياة والأخلاق النبيلة التي تسمو بذات الأنسان عن بقية الكائنات حتى صارت الكنيسة والبابا الملاذ الآمن والمخلّص الوحيد من خطايا الدنيا والضمان الأوحد لجنّة الآخرة، لكن سرعان ما تلوث هذا الصفاء واخذت الكنيسة تبتعد عن الأخلاق الإلهية وأداء واجباتها الروحية وذلك عندما تدخلت السياسة في الدين واصبحت الكنيسة تُدار من قبل الأباطرة والملوك، عندما فسحت المجال لشارلمان بان يكون حاميا للمسيحية والذي لم يتردد بإخضاعها لسلطته ومنع البابا من التدخل في شؤون الدولة، حتى انحدرت مكانة الكنيسة في قلب الفرد المسيحي الذي أخذ ينظر إليها على أنها قلعة الظلم والاستبداد وإلى البابا بأنه سيد اقطاعي متسلط على رقاب واموال الناس.
- لم يقتصر تدهور كنيسة روما على هذا المستوى، بل بدأت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الصراعات البابوية للفوز بزعامة الكرسي الرسولي، نتيجة اختلافات عقدَّية دارت حول طبيعة السيد المسيح، فكانت هذه الخلافات ذريعة اتخذتها الكنيسة الشرقية لرفضها الاعتراف بسيادة كنيسة روما وفقاً للتقليد الرسولي وخلافة القديس بطرس، فعادت هذه الوقائع بحدوث الانشقاق الكبير في

كنيسة روما سنة ١٠٥٤ وأصبح هناك كنيستان، إحداهما الغربية الكاثوليكية والأخرى الشرقية الارثودوكسية، سلكت كل واحدة منهما طريقاً خاص بها بعيداً عن الأخرى.

- لم يتمكن ممثلوا الديانة المسيحية والقائلون بحمايتها من توحيد العالم المسيحي تحت رعاية كنيسة واحدة وبابا واحد، بل تفاقم الانشقاق الديني وتوسعت الهوّة بين أفراد الدين الواحد حتى اصبحت انشقاقات دينية وانقسامات كنسية متعددة تعصف بالكنيسة الغربية، تبلورت بانتقال مركز البابوية العالمي من كنيسة القديس بطرس في روما إلى مدينة في الجنوب الفرنسي تسمى أفينيون وهذا ما عُرف بـ "**الأسر البابلي**" الذي استمر أكثر من سبعون عاماً، كان لمجلس الكرادلة الفرنسي الدور الأكبر في حدوثه، نتيجة مطالبة رجال الدين الفرنسيين بالمزيد من الامتيازات في المجلس البابوي، يدعمهم في ذلك ملوك فرنسا المتبنين لفكرة "**أنهم الحامين للديانة المسيحية وانهم آباء المسيحيين**"، يستندون بهذه الذريعة إلى وقوف شارلمان بجانب الكنيسة بداية تأسيسها وتوفير الحماية اللازمة لها، بعد أن استمر العمل بهذه القاعدة من قبل خلفاء شارلمان حتى آل فالوا.
- لابدّ أن تعصف بالمجتمعات البشرية صحّوة فكرية توقظها من سباتها الطويل، إذ بعد أن تمادت الكنيسة باستبدادها في محاكم التفتيش وغيرها من صور اضطهاد رعاياها، خسرت كل ما يقدسها في نظر المجتمع المسيحي، لذا أخذ رجال الدين يقاتلون من أجل البقاء، فأقحم البابوات الكنيسة في الدخول بصراعات عسكرية بأسم الدين مع ملوك فرنسا تارة ومع الإمبراطورية الرومانية المقدسة تارة أخرى، انعكست بشكل مباشر على أوربا الغربية المسيحية ولم يقتصر الانقسام الديني على المعتقدّ فقط، بل انقسم المجتمع إلى احزاب تؤيد الاطراف المتنافسة وتعارض بعضها بعضاً، وتسببت بسيادة الفوضى والحروب الأهلية لاسيما في الجنوب الفرنسي الذي كان أرضاً خصبة لمعارضة الكنيسة وسياسة الملك

الفرنسي أيضاً، وساهمت بشكل رئيسي بظهور بعض المفكرين الذين نادوا بضرورة إصلاح الكنيسة من الداخل وتقييد سلطة البابا حتى أسسوا لمذهب جديد سميَّ بـ **البروتستانتي**، وبطبيعة الحال جاء هذا الأمر بتعدد الانقسامات الكنسية بتكوين كنائس جديدة منفصلة تماماً عن كنيسة روما، من قبيل الكنيسة اللوثرية والكالفنية وغيرها.

- عُدت فرنسا من أكثر الدول الأوربية تعصباً للمذهب الكاثوليكي، لذا اتخذ ساستها الحذر الشديد من تسرب أفكار مارتن لوثر إلى فرنسا، كما أقصت كالفن من أراضيها خشّية تأثيره بالمجتمع الفرنسي، وبعد تتبع إجراءات ساسة فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، ثَبُتّ فشل جميع محاولات فرنسا في الحد من قناعة المجتمع لضرورة إصلاح الكنيسة واقصاء المذاهب الدينية الأخرى والبقاء على الكاثوليكية، من قبيل تدبير المؤامرات بزعامة البلاط الملكي والضغط على البابا بأن يكون جنوده اليد الضاربة للذين أطلقوا عليهم بـ "**الهراطقة**"، وهذا ما أوقع المجتمع الفرنسي ضحيةً لسياسة ملوكها خلال هذه الحقبة، الذين استخدموا أبشع وأقسى الوسائل لقمع اتباع المذهب البروتستانتي، بل أوجدت تلك السياسة وجوهٌ عدة لتثبيت الانقسامات الدينية ووقوع الحروب الذهبية الأهلية بين المسيحيين أنفسهم والتي استمرت خلال (١٥٦٢-١٥٩٨)، راح ضحيتها ألاف الفرنسيين حرقاً وتشريداً حتى أصبحت المملكة الفرنسية في حرج سياسي ديني كبير على المستوى المحلي والإقليمي وكان لا بدّ للبلاط من ايقاف هذه الحروب وايجاد حلا يحفظ هيبة المملكة وسمعة ملوكها الدينية، تمحور ذلك بتوقيع مرسوم نانت عام ١٥٩٨ واحلال السلام الديني العالمي.

توصلت الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات التي اعتمدتها الباحثة بعد استقراء الأحداث التاريخية وتحليلها، يمكن إيجازها بالنقاط الآتية:

- تواجه المجتمعات الإنسانية موجات خطيرة على مختلف الحقب التاريخية تختلف مدياتها باختلاف المؤثرات الخارجية، محاولةً اختراق المعتقد الديني والمبادئ الأخلاقية لأفراد تلك المجتمعات تحت اطار التنافس السياسي والمصالح الاقتصادية من جهة وسيادة معتقد ديني معين على بقية الأديان والمعتقدات الموجودة من جهة أخرى، هذا ما شهدته أوربا الغربية في حقبة العصور الوسطى، إذ بعد أن استبشرت المجتمعات الغربية خيراً بظهور المسيحية وانتشارها في القرن الرابع الميلادي وما بعد، لما وجدته في هذه الديانة من الحقوق والسماحة في تعاملات الحياة والأخلاق النبيلة التي تسمو بذات الأنسان عن بقية الكائنات حتى صارت الكنيسة والبابا الملاذ الآمن والمخلّص الوحيد من خطايا الدنيا والضمان الأوحد لجنّة الآخرة، لكن سرعان ما تلوث هذا الصفاء واخذت الكنيسة تبتعد عن الأخلاق الإلهية وأداء واجباتها الروحية وذلك عندما تدخلت السياسة في الدين واصبحت الكنيسة تُدار من قبل الأباطرة والملوك، عندما فسحت المجال لشارلمان بان يكون حاميا للمسيحية والذي لم يتردد بإخضاعها لسلطته ومنع البابا من التدخل في شؤون الدولة، حتى انحدرت مكانة الكنيسة في قلب الفرد المسيحي الذي أخذ ينظر إليها على أنها قلعة الظلم والاستبداد وإلى البابا بأنه سيد اقطاعي متسلط على رقاب واموال الناس.
- لم يقتصر تدهور كنيسة روما على هذا المستوى، بل بدأت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الصراعات البابوية للفوز بزعامة الكرسي الرسولي، نتيجة اختلافات عقدّية دارت حول طبيعة السيد المسيح، فكانت هذه الخلافات ذريعة اتخذتها الكنيسة الشرقية لرفضها الاعتراف بسيادة كنيسة روما وفقاً للتقليد الرسولي وخلافة القديس بطرس، فعادت هذه الوقائع بحدوث الانشقاق الكبير في

كنيسة روما سنة ١٠٥٤ وأصبح هناك كنيستان، إحداهما الغربية الكاثوليكية والأخرى الشرقية الارثودوكسية، سلكت كل واحدة منهما طريقاً خاص بها بعيداً عن الأخرى.

- لم يتمكن ممثلوا الديانة المسيحية والقائلون بحمايتها من توحيد العالم المسيحي تحت رعاية كنيسة واحدة وبابا واحد، بل تفاقم الانشقاق الديني وتوسعت الهوّة بين أفراد الدين الواحد حتى اصبحت انشقاقات دينية وانقسامات كنسية متعددة تعصف بالكنيسة الغربية، تبلورت بانتقال مركز البابوية العالمي من كنيسة القديس بطرس في روما إلى مدينة في الجنوب الفرنسي تسمى أفينيون وهذا ما عُرف بـ "**الأسر البابلي**" الذي استمر أكثر من سبعون عاماً، كان لمجلس الكرادلة الفرنسي الدور الأكبر في حدوثه، نتيجة مطالبة رجال الدين الفرنسيين بالمزيد من الامتيازات في المجلس البابوي، يدعمهم في ذلك ملوك فرنسا المتبنين لفكرة "**أنهم الحامين للديانة المسيحية وانهم آباء المسيحيين**"، يستندون بهذه الذريعة إلى وقوف شارلمان بجانب الكنيسة بداية تأسيسها وتوفير الحماية اللازمة لها، بعد أن استمر العمل بهذه القاعدة من قبل خلفاء شارلمان حتى آل فالوا.
- لابدّ أن تعصف بالمجتمعات البشرية صحّوة فكرية توقظها من سباتها الطويل، إذ بعد أن تمادت الكنيسة باستبدادها في محاكم التفتيش وغيرها من صور اضطهاد رعاياها، خسرت كل ما يقدسها في نظر المجتمع المسيحي، لذا أخذ رجال الدين يقاتلون من أجل البقاء، فأقحم البابوات الكنيسة في الدخول بصراعات عسكرية بأسم الدين مع ملوك فرنسا تارة ومع الإمبراطورية الرومانية المقدسة تارة أخرى، انعكست بشكل مباشر على أوربا الغربية المسيحية ولم يقتصر الانقسام الديني على المعتقدّ فقط، بل انقسم المجتمع إلى احزاب تؤيد الاطراف المتنافسة وتعارض بعضها بعضاً، وتسببت بسيادة الفوضى والحروب الأهلية لاسيما في الجنوب الفرنسي الذي كان أرضاً خصبة لمعارضة الكنيسة وسياسة الملك

الفرنسي أيضاً، وساهمت بشكل رئيسي بظهور بعض المفكرين الذين نادوا بضرورة إصلاح الكنيسة من الداخل وتقييد سلطة البابا حتى أسسوا لمذهب جديد سميَّ بـ **البروتستانتي**، وبطبيعة الحال جاء هذا الأمر بتعدد الانقسامات الكنسية بتكوين كنائس جديدة منفصلة تماماً عن كنيسة روما، من قبيل الكنيسة اللوثرية والكالفنية وغيرها.

عُدت فرنسا من أكثر الدول الأوربية تعصباً للمذهب الكاثوليكي، لذا اتخذ ساستها الحذر الشديد من تسرب أفكار مارتن لوثر إلى فرنسا، كما أقصت كالفن من أراضيها خشّية تأثيره بالمجتمع الفرنسي، وبعد تتبع إجراءات ساسة فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، ثَبُتّ فشل جميع محاولات فرنسا في الحد من قناعة المجتمع لضرورة إصلاح الكنيسة واقصاء المذاهب الدينية الأخرى والبقاء على الكاثوليكية، من قبيل تدبير المؤامرات بزعامة البلاط الملكي والضغط على البابا بأن يكون جنوده اليد الضاربة للذين أطلقوا عليهم بـ "**الهراطقة**"، وهذا ما أوقع المجتمع الفرنسي ضحيةً لسياسة ملوكها خلال هذه الحقبة، الذين استخدموا أبشع وأقسى الوسائل لقمع اتباع المذهب البروتستانتي، بل أوجدت تلك السياسة وجوهٌ عدة لتثبيت الانقسامات الدينية ووقوع الحروب الذهبية الأهلية بين المسيحيين أنفسهم والتي استمرت خلال (١٥٦٢-١٥٩٨)، راح ضحيتها ألاف الفرنسيين حرقاً وتشريداً حتى أصبحت المملكة الفرنسية في حرج سياسي ديني كبير على المستوى المحلي والإقليمي وكان لا بدّ للبلاط من ايقاف هذه الحروب وايجاد حلا يحفظ هيبة المملكة وسمعة ملوكها الدينية، تمحور ذلك بتوقيع مرسوم نانت عام ١٥٩٨ واحلال السلام الديني العالمي.

أولاً: الوثائق.

1- St Michael's Depot Council of Constance 1414-1418.

2- Translated by Jotham Parsons The French text consulted was that printed as appendix IV to Roland Mousnier, L'assassinat d'Henri IV (14 mai 1610) et I'affermissement de la monarchic absolue (Paris: N.R.F/Gallimard, 1964), 294-335.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

أ. المصادر الفرنسية.

- المصادر الوثائقية الفرنسية:

3- Martha walkeree,Henry IV. Maeie de medici of the history of the reign of henry IV. king of france and navarre.from numerous unpublished sources, including ms. Documents in the ribliotheque imperiale, and the archives durotaume france, etc.Part.11,paris,1908.

4- Pierre Jeannin, "Discours apologétique fait par M. le président Jeannin, de sa conduicte durant les troubles de la Ligue, et depuis sous les règnes du feu roi Henry-le-Grand et du roi à present régnant, 1622," in M. Petitot, ed., Collection des mémoires relatifs à l'histoire de France depuis l'avènement de Henri IV jusqu'à la paix de Paris conclue en1763, vol. 16, 2nd series (Paris: Foucault, 1822).

- الكتب الفرنسية.

5- A. Thomas. Brady, “Confessionalization—The Career of a Concept,” in Confessionalization in Europe, 1555–1700, ed., John M. Headley, Burlington, VT: Ashgate, 2004.

6- Bellay,Du, Martin, sieur de Langey. Mémoires de Martin et Guillaume du Bellay. edited by V. L. Bourrilly and F.

Vindry. 4 volumes. Paris: Société de l'histoire de France,1908.
7- Casati.C.Charles,Lettres Royaux et Lettres Missves inedites,Paris,1877.
8- Charlbs casati,Lettres royaux(lettres missives inebites),Paris,1877.
9- Denis Crouzet, La nuit de la Saint-Barthélemy: Un rêve perdu de la Renaissance (Paris, 1994).
10- Denis Crouzet, Les guerriers de Dieu: La violence au temps des troubles dereligion, vers 1525-vers 1610, vol.2 (Seyssel, 1990).
11- Ferdinand lot ,la Fin du Monde Antique et le debut du Moyen Age,paris,1951.
12- J. Gaudemet, “Le célebat ecclésiastique. Le droit et la pratique du XIe au XIII siècle," Zeitschrift für Rechtsgeschichte kan.,1982.
13- J. Papalas, edsConfessionalization in Europe, 1555-1700: Essays in Honor and Memory of Bodo Nischan(Aldershot, 2004.
14- Jean Richard, "Les quêtes de l'église Notre-Dame et la diffusion du protestantisme àDijon vers 1562,Pares,1960.
15- P. Cousin, Abbon de Fieury-sur-Loire, Paris, 1954.
16- Philip Benedict, Confessionalization in France? Critical Reflections and New Evidence,”paris,1997.
17- Philip Benedict, Rouen during the Wars of Religion (Cambridge, 1981)
18- Philip Benedict, The Faith and Fortunes of France’s Huguenots, 1559-1685 (Aldershot, Hampshire, 2001).
19- Robert Knecht,The Valois kings of france(1328-1589),paris,1879.
20- Sacred Boundaries: Religious Coexistence and Conflict in Early Modern France (Washington, 2003).

21- Thierry Wanegffelen, Ni Rome ni Genève: Des fidèles entre deux chaires en France au XVIe siècle (Paris, 1997).
22- William henry brown, Babylonian oaptiyity,london,1874.
23- William watts, king Philip IV ,Copyright,1916.

ب-المصادر الأنكليزية:

24- C.W.Post, The hour and man Abiography with Genealogical supplement, Nettie Leitch cillustr a tor), Judd and Detweiler press, Washington,1963.
25- Joseph McCabe, crises in the history of the papacy,G.P. Putnam's Sons,New York, 1916.
26- Andrew pettegree,Reformation eutope1517-1559,Second Edition,London,1932.
27- Anne Curry, The Hundred Year's War 1337 – 1453, Oxford, 2002.
28- Armstrong, French wars of religionTheir politlcal aspects, London.1904
29- Arthur Tilley, The French Wars of Religion, London, 1919.
30- Arthur Tilley, The French Wars of Religion, London, Macmillian Company,1989.
31- Barbara, Beneath the Cross: Catholics and Huguenots in Sixteenth-Century Paris (Oxford, 1991).
32- Barraclough, Geoffrey, The Medieval Papacy, London, Thames and Hudson, 1968.
33- Boyce kgray Cowan (ed) ، Literature of Medieval History، New York ،1981.
34- Brian Tierney, The Crisis of Church and State 1050-1300, (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1964.
35- Brian Tierney. The Crisis of Church and State 1050-1300.Englewood Cliffs, Prentice Hall, 1964.

36- Brown, P.R.L. and (others), Trends in Medieval thought, Oxford , Basil Blackwell, 1965.
37- C.f. among many authors C. Erdmann, Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens, Stuttgart, 1935.
38- Carl Stephenson, Mediaeval History,New York ,Harper Brothers–publishers,1951.
39- Catherine Charlotte, Lady Jackson, The Court Of France In The Sixteenth Centurt, Vol.1, London,1886.
40- Charles butler, The principal states which composed the empire of charlem agne from his coronation in 814,london,1807.
41- Charles Norris Cochrane, Christianity and Classical Culture, Oxford, 1940
42- Christopher Haigh, English Reformations: Religion, Politics, and Society under the Tudors (Oxford, 1993)
43- David Criswell, The Rise and Fall of the Holy Roman Empire, Baltimore, 2005.
44- Davis , A History of Medieval Europe From Constantine to saint Louis, London, 19 -Green, Renaissance and Reformation, London, 1974.
45- Deanesy, A History of the medieval church(590-1500),london,1962.
46- Denton, J, Taxation and the conflict between Philip the Fair and Boniface VIII. Oxford University Press, Oxford, 1997.
47- Denton, J. Taxation and the conflict between Philip the Fair and Boniface VIII.
48- Diarmaid MacCulloch, The Reformation (New York: Penguin Books, 2003.
49- Don Louis Tosti, History Of Pope Boniface VIII, New York, 1911.
50- Durant, Will, The Age of faith; A history of medieval civilizationChristian, Islamic and Judaic- from Constantine to

Dante, A. D (325-1300), Simon and Schuster, New York, 1950.
51- Earle. Cairns, Christianity Through Centuries, Michigan, 1996.
52- Edward James , The Origins of France, press , 1982.
53- Eiton,The New Cambridge Modern History, VoI. II,The Reformation 1520-1559,Press, 1958.
54- Eleanor shipley Ducket , The Gateway to the Middle Ages , New York , The Mac Millan Co., 1938.
55- Elizabeth Aubrey, The Dialectic between Occitania and France in the Thirteenth Century Author, University Press, 1977.
56- F. M. Powicke, Boniface VIII in Christian Life in the Middle Ages. London, 1966.
57- F. M.Powicke, Boniface VIII in Christian Life in the Middle Ages.London, 1966.
58- Fabre, Goyau Pératé , De, Vue Generale L'histoire De La, Papaute, Rue Jacob, Paris, N.D.
59- Father Quinn, Papal Truthfulness, New York, 1879.
60- Felix Rocquain, Two Hostile Sovereigns at the Brink, In Philip the Fair and Boniface VIII: state v. papacy, ed. Charles T. Wood, (Huntington, NY: Robert E. Krieger Publishing Co., 1976.
61- Ferdinand lot, la Fin du Monde Antique et le debut du Moyen Age, paris, Editions Albin Michel,1951.
62- Fisher,Sydney Nettieton, The Middie A History,London,1966.
63- For example, John Bossy, Christianity in the West, 1400–1700 (Oxford: Oxford University Press, 1987.
64- Frederick Hartt,A History of Italian Renaissance Art ,New York,1910.
65- Frederuc Baumgartner , Henry II , Durham,N.C,1988.

66- G. Meyer von Knonau, Jahrbücher des deutschen Reiches unter Heinrich IV. und Heinrich Vol, 2, Leipzig, 1984.
67- Green, Renaissance and Reformation, London, 1974.
68- Gregory Hanlon, Confession and Community in Seventeenth-Century France: Catholic and Protestant Coexistence in Aquitaine (Philadelphia, 1993).
69- H. Daniel Rops, The Protestant Reformation, London, 1961.
70- H. Roberts Seven Volumes, History of the church of jesus Christ of latter-day An Introduction and Notes,Vol,I,London,1996.
71- H.J.Cowdrey. Popes and Church Reform in the 11th Century,NewYork, 2000.
72- Hayes,A Political and Cultural, History of Modern Europe ,New York,1944.
73- Heinrich Fichtenau , The Carolingian Empire , Trans . by peter Munz , Oxford , Basil Blackwall, 1968.
74- Henri Pirenne , A History of Europe, Vol . I,NewYork,1912.
75- Infallibility of the pope in matters of faith and morals, proclaimed by the Vatican Council; 1870.
76- J.M. Maclnnis, The Historical Order of the Books of the Old Testament, London Press,1965.
77- James westfaltlh omps, The Wars of Religion in France(1559-1576),London،1909.
78- James Given, Power and Fear in Philip IV's France,Vol.6,University of California, Irvine, 2006.
79- Jean Riviere, Bonifaces Theological Conservatism, In Philip the Fair and Boniface VIII: state v. papacy, ed. By C.T. Wood, (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1967.
80- Joel Hurstfield, The formation Crisis, London,1963.

81- John Bossy , Chrstanity in the West 1400-1700, Oxford, 1985.
82- John Bossy, "The Counter- Reformation and the People of Catholic Europe," Past & Present,Oxford,1970.
83- John Guy, Tudor England, Oxford University Press, 1990.
84- Juan de Mariana, A Treatise on the Alteration of Money, Sources in Early Modern Economics,Ethics, and Law,2 ed Christian Library Press, Action Institute, 2011.
85- Judith Pollmann, "Countering the Reformation in France and the Netherlands: Clerical Leadership and Catholic Violence, 1560-1585, Past & Present, london,2006
86- Lars P. Qualben, A History of Christian Church, New York, 1936.
87- Lotz-Heumann, Markus Riedt, "'Founding a New Church, The Early Ecclesiology of Martin Luther in the Light of the Debate about Confessionalization,london,1947.
88- Margaret Deanesly , A History of Early Medieval Europe , London , Mattuen & CO. LTD , 1960 .
89- Mark Lowry, Boniface VIII and Philip IV: Conflict Between Church and State, Senior Seminar (HST 499W), History Department Western Oregon University, June 6, 2008.
90- Martha Walker Freee, Henry IV. Marie de medici, Part:11, London,1861.
91- Maureen C. Miller, The Formation of a medieval church,Cornell University press, Ithaca, 1993.
92- Merie D .Aubigne, History of The Reformation of The Sixteeenth Century.
93- Meyer von Knonau, Jahrbücher des deutschen Reiches unter Heinrich IV. und Heinrich Vol.2, Leipzig, 1984.
94- Michel de Montaigne, The Complete Essays, ed. and trans.Loondon, 1993.

95- Natalie Zemon Davis, “The Rites of Violence: Religious Riot in Sixteenth-Century France,(Past & Present), Pares 1973.
96- Olin, John, The Catholic reformation, Fordham University press, New York, 1992. Oxford University Press, 1997.
97- P.Mack holt, The French Wars of Religion, 1562–1629,George Mason University Fairfax,Second Edition,1986.
98- Par M. devllette, Eloge Historiy de Charles V,parees,1932.
99- Philip Schaf ،history of christian church،Edition:3,Vol.8,1910.
100- Preserved Smith, The formation in Europe, New York,1962.
101- R.W. Southern Western, Society and The Church in the Middle Ages, Erdmans, 1970.. .
102- Raymond .A.Mentzer , The Legal Respose to Hersey in Languedoc ,1500-1560, Sixteenth Century Journal ,1973.
103- Richard A.Jackson, A History of the French Coronation , Chapel Hill,1984.
104- Richard Lodge. A History of Modern Europe 1453-1848, London, 1959.
105- Robert A. Barker, A Summary of Christian History, Nashville, 1956.
106- Robert M. Kingdon, Geneva and the Consolidation of the French Protestant Movement, 1564-1572 (Geneva, 1967)
107- Ruether, Rosemary Radford, the church against itself: An Inquiry into the conditions of historical existence for the eschatological community, Herder, New York, 1967.
108- S.H.Homoud, Islamic Banking, Arabian Information, London, 1985.

109- Samuel smiles,The Huguenots Their settlements, churches, and industries, in england and ireland, London,1876
110- Schafer Williams,The Gregorian Epoch: Reformation, Revolution, Reaction, Boston: D.C.
111- Mary Douglas,Purity and Danger: An Analysis of the Concepts of Pollution and Taboo (London, 1966).
112- Sophia Menache, Clement V, Cambridge University Press, Cambridge United Kingdom, 1998.
113- Southern, Western Society and The Church in the Middle Ages, Grand Rapids,Mich, Erdmans, 1970.
114- State v. papacy. ed. Charles T. Wood. Huntington, Robert Publishing Co, 1976.
115- State v. papacy. ed. Charles T. Wood. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1967 .
116- Sutherland ،The Huguenot Struggle for Recognition ، New Haven ،1980
117- Symones Deridder, A History of the University in Europe Cambridge,2003.
118- T.S.R. Boase, Boniface VIII, London, Constable, 1933.
119- Thietmari Merseburgensis episcopi Chronicon VI, 11, edited by R. Holtzmann, MGH SRG ns.1990.
120- Tierney, Brian. The Crisis of Church and State 1050-1300. Englewood Cliffs, Prentice Hall, 196٤
121- Tout Thomas Frederick, The History of England From the Accession of Henry III to the Death of Edward III 1216 – 1377, London, 2005.
122- TWilliam hanna,he Wars of the Huguenots,vol.8,New York,1872.
123- Ute Lotz-Heumann, "Confessionalization," in Reformation and Early Modern Europe: A Guide to Research (Kirksville, MO: Truman State University Press, 2007),

124- Vasiliev, History of the Byzantine Empire (324-1453), Wisconsin , 1952.
125- Vita anonyma S. Johannis Gualberti, edited by Baethgen in mghss,1938.
126- W. Goez, "Zur Persönlichkeit Gregors VII," Römische Quartalschrift, 1978.
127- Warren. Hollister, Medieval Europe, 4 th ed., New York, John Wiley son, 1978.
128- Wilfred Cantwell Smith, The Meaning and End of Religion: A New Approach to the Religious Traditions of Mankind, New York, 1963
129- Wiliam Monter, Calvini Geneva , New York ,1967.
130- William Hanna , The Wars of Huguenots , New York ,Robert Carter & Brothers ,
131- William Maehl Harvey, Germany in Western Civilization, Univesity of Alabama, Alabama, 1979.
132- William of Plaisians. Charges of Heresy Against Boniface VIII, In Philip the Fair and Boniface VII.New York,1976.
133- William, Community and Reformation in Sixteenth-Century Burgundy," Past & Present,pares,199٣
134- Willlam Henry Brown, The bi Babylonian Oaptiyity, London: Haerison and sons, st. maetins lane,1874.
135- Willston Walker, A History of The Chistian Church,New York,1970.
136- Young, East and West Through Fifteen Centuries, Vol.1, London,1916.

ثالثاً: الكتب العربية والمعربة.

١٣٧- صلاح مدني، تاريخ العصور الوسطى في اوربا، دمشق، ١٩٧٣.
١٣٨- منصور المخلصي، الكنيسة عبر التاريخ، بغداد، ١٩٩٧.

١٣٩- أحمد علي عجيبة, أثر الكنيسة على الفكر الأوربي, دار الآفاق العربية, القاهرة, ٢٠٠٤.

١٤٠- ادوار بروي وآخرون، القرون الوسطى، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٦٥.

١٤١- اسحاق عبيد, محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها, مصر, دار المعارف, ١٩٧٨.

١٤٢- اسماعيل نوري الربيعي، تاريخ اوربا في العصور الوسطى، عمان، ٢٠٠٢.

١٤٣- اسمت غنيم، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ٣٢٤-١٤٥٣، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧.

١٤٤- السيد الباز العريني، تاريخ اوربا العصور الوسطى، بيروت، ١٩٦٨.

١٤٥- جاد المنفلوطي, المسيحية في العصور في الوسطى, دار الكنيسة الأسقفية, القاهرة, ١٩٧٨.

١٤٦- جان بيرنجيه وآخرون, أوربا من بداية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر, ترجمة: وجيه البعيني, مراجعة: انطوان الهاشم, بيروت, منشورات عويدات, ١٩٩٥.

١٤٧- جان كمبي، تاريخ الكنيسة، بيروت، ١٩٨٦.

١٤٨- جفري برون، تاريخ أوربا الحديث، ترجمة: علي المرزوقي، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن،٢٠٠٦.

١٤٩- جلال يحيى, تاريخ أوربا في العصور الحديثة, الاسكندرية, الهيئة المصرية العامة, ١٩٨١.

١٥٠- جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، الجزء الثالث، ترجمة عزرا مرجان، القاهرة، ١٩٨٨.

١٥١- س . ورن هستلر، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة : محمد فتحي الشاعر، القاهرة، ١٩٨٨.

١٥٢- سيدني بانتر, تاريخ الحروب الصليبية, ترجمة: سعيد عبد المحسن, ج١, منشورات بيت المقدس, ٢٠٠٤.

١٥٣- عبد العزيز الشناوي،

١٥٤- عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى الاوربية (٤٧٦- ١٥٠٠)، بيروت، ١٩٨١.

١٥٥- عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى الاوربية، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٦٧.

١٥٦- كارلس ديفز، اوربا في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الحميد حمدي، الاسكندرية، المعارف، ١٩٥٤.

١٥٧- كانتور نورمان, العصور الوسطى الباكرة, ترجمة: قاسم عبده قاسم, عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية, القاهرة, ١٩٩٣.

١٥٨- كرستوفر دوسن، تكوين اوربا، ترجمة: محمد مصطفى وآخرين، القاهرة، ١٩٦٧.

١٥٩- كمال مظهر احمد، النهضة، بغداد، الشؤون الثقافية، ١٩٧٩.

١٦٠- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ اوربا في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٨٢.

١٦١- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، د.ت.

١٦٢- موريس بيشوب، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤.

١٦٣- نعيم فرح، الحضارة الاوربية في العصور الوسطى، جامعة دمشق، ١٩٩٥.

١٦٤- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في اوربا، الجزء الاول، لبنان، ١٩٦٧.

١٦٥- هـ.أ.فشر، تاريخ اوربا العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٤.

١٦٦- هارديل، اوربا في صدر العصور الوسطى، ترجمة الدكتورة حياة ناصر الحجي، الكويت،١٩٧٩.

١٦٧- وليام, تاريخ الحروب الصليبية, ترجمة: سهيل زكار, دار الفكر العربي, دمشق, ١٩٩٠.

رابعاً: المجلات الأجنبية:

أ. المجلات الفرنسية.

168- Elizabeth A. R. Brown, “Taxation and Morality in the Thirteenth and Fourteenth Centuries: Conscience and Political Power and the Kings of France”, Historical Studies 8, French, 1973.

169- Keith Luria, "Separated by Death? Burials, Cemeteries, and Confessional Boundaries in Seventeenth-Century France," French Historical Studies 24 (Spring 2001).

ب- المجلات الإنكليزية.

170- (magazine),J.P.Whitney,“GregoryVII”, English Historical Review,vol.34, no.134.(April 1919),P.132.

171- (Jstor),Elizabeth aubrey,"Pape Boniface VIII" Vol.16, 1997 Cambridge University Press Printed in the United Kingdom.

172- (Journal of Modern History),F.Joel,Harrington and Helmut Walser Smith, "Confessionalization, Community, and State Building in Germany, 1555–1870",Vol.39, number.25,1997.
173- (Jstor) A.raymond mentzer,"Heresy Proceedings in Languedoc(1500-1560)" ,Vol,74, Part 5, 1984.
174- (magazine), Robert Wilken,"Gregory VII and the Politics of the Spirit",First thing; A Monthly Journal of Religion and Public Life. Vol. 89,1993.
175- R. Schieffer, "Spirituales latrones. Zu den Hintergründen der Simonieprozeße in Deutschland zwischen 1069 und 1075," Historisches Jahrbuch 92,1972.

خامساً: الموسوعات.

أ- الموسوعات العربية.

١٧٦- ادوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ترجمة: يوسف داغر، مج٣، عويدات للطباعة، بيروت، ٢٠٠٣.
١٧٧- الموسوعة، الموسوعة العربية العالمية، مج١
١٧٨- مفرج ط.يب، موسوعة عالم الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم، ج١، مطبعة نوبلس، بيروت، ٢٠٠٤.
١٧٩- ول ديورانت، قصة حضارة، المجلد السادس، قيصر والمسيح، ترجمة محمد بدران، القاهرة،٢٠٠١.

ب- الموسوعات الانكليزية.

180- The New Encyclopaedia Britannica

Abstract

The history of the Middle Ages (historically different from historians) is of great importance in the field of history in general and European history in particular. This is a long historical period that is a continuous and fundamental link in the understanding of modern European history, logically, the majority of developments in Europe since the Renaissance and subsequent eras derive their origins from medieval history.

The nature of the subject required its division into four chapters. The first chapter, entitled the establishment of the French Kingdom and the Catholic Church and the establishment of their struggle for global leadership until 1309, was divided into four chapters. The first topic dealt with the establishment of the French Kingdom and its role in the establishment and support of the Catholic Church until the tenth century AD. The second is the nature of the ecclesiastical system and the role of clonal reform in the breakdown of the relationship between religion and politics (900-1209). The third topic dealt with ecclesiastical relations and their role in religious persecution - the French Inquisition (1209-1309).

The second chapter, the embodiment of French supremacy over the sovereignty of the Catholic Church in the occurrence of Babylonian families (1309-1417), included three topics. The first topic highlighted the culmination of French efforts to transfer the center of Christianity to Avignon (1309-1337) He focused on the role of the French Crown in establishing the foundations of the Catholic religious division (1337-1377). The third topic discussed the intensification of the papal conflict and the French efforts in establishing world religious peace (1378-1417).

The second chapter deals with the failure of the Ecumenical Councils to restore the unity of the Christian Church (1418-1515), and the second is the impact of the official independence of the Church of France On the deterioration of the religious situation in them (1515-1559).

The fourth chapter revolves around the doctrinal wars in France during the second half of the sixteenth century (1559-1598), in three studies that shed light on the worsening of the French religious situation and the outbreak of sectarian wars (1559-1568). In the second section on the tyranny of the French crown and its reflection (1568-1576). The third section examines France's foreign policy and its role in the intensification of the sectarian conflict and the adoption of the Nantes decree (1576-1598).

Finally, the thesis included a conclusion that showed the most prominent findings of the researcher, followed by a list of the sources on which the thesis was based and a set of explanatory annexes to the main events of the study, and a summary in English.

The study reached a set of conclusions adopted by the researcher after extrapolation and analysis of historical events, which can be summarized as follows:

- Human societies face serious waves of different historical epochs, whose dimensions differ according to external influences, attempting to penetrate the religious belief and moral principles of the members of these societies under the framework of political competition and economic interests on the one hand and the religious belief on the other religions and beliefs on the other hand, Western era in the Middle Ages.
- In the second half of the eleventh century, papal conflicts began to win the leadership of the Holy See as a result of

contractual differences over the nature of Jesus. These differences were an excuse by the Eastern Church for refusing to recognize the sovereignty of the Church of Rome according to the Apostolic Tradition And the succession of St. Peter, these events returned to the great schism in the Church of Rome in 1054 and became two churches, one Western Catholic and the other Eastern Orthodox, each took a path of its own away from the other.

- The representatives of the Christian religion and its protectors were unable to unify the Christian world under the auspices of one church and one pope, but exacerbated the religious schism and widened the gap between the members of one religion until religious divisions and church divisions spread over the Western Church. To a city in the French south called Avignon and this is known as the "Babylonian families", which lasted more than seventy years, was the Council of French Cardinals the largest role in the occurrence, as a result of French clerics demand more privileges in the Papal Council.
- The human societies must be awakened by an awakening of intellectual awakening from its long slumber. After the Church has continued its tyranny in the Inquisition and other forms of persecution of its citizens, it has lost all that it sanctifies in the eyes of the Christian community.
- France was one of the most European countries in the Catholic faith, so its politicians were very cautious about the leakage of Martin Luther's ideas to France, and Calvin was expelled from its territory for fear of its impact on French society.

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Qadisiyah / Faculty of Education - History Department

Ecclesiastical divisions and their impact on doctrinal wars in France (1309-1598)

Thesis submitted by the student

Mary Hadi Hassan Yasiri

To the Council of Faculty of Education / University of Qadisiyah

It is part of the requirements for a doctorate in modern history

Supervision

Prof. Dr

Ammar Mohammed Ali al-Tai

2018 AD ١٤٤٠ H